في سلسلة
أعدَاء الإسلام
2

صِرَاعُ مَعَ المَلاحِدَة
حتى العظم

تأليف
عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة على خاتم أنبيائه وإخوانه الأنبياء والمرسلين ، حَمَلة رسالات الهدى ، ودُعَاة الخلق إلى الحق .

اللهم ألهِمنا الصواب ، وآتِنا الحكمة وفصل الخطاب .

الإهْدَاء

إلى كل مفتون بتزييفات المبطلين ، مخدوع بزخارف أقوال الملحدين .

إلى كل ناشد للحقيقة الكبرى في الوجود ، حريص على النجاة ، طالب للسعادة الخالدة .

إلى الشباب المؤمن الذي يودّ أن يدمغ الملاحدة بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة .

أقدم هذا الكتاب الذي يمكن أن يعتبر معركة جدلية مع طائفة الملحدين المعاصرين ، جنود الشياطين ، وأجراء اليهودية العالمية ، التي تكيد لكل حق ، ولكل أمة ، ولكل خير ، ولكل فضيلة .

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ووفقنا لما تحب وترضى ، واجمع كلمة المسلمين على الهدى والتقوى ، وانصر أولياءك على أعدائك ، وأيِّد جندك على جند إبليس ، وحقق وعدك إذ قلت وأنت لا تخلف الميعاد:

{بَلْ نَقْذِفُ بِ ٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}

(الأنبياء/21 مصحف/73 نزول)

الفصل الأول

مقدمات

لولا واجب حماية المسلمين
من تضليلات المضلين ، حتى
السخفاء والتافهين ، لما كان
(د. العظم) يستحق النظر فيه ، ولا
الالتفات إليه .

(1)

تصدّى لمحاربة الإسلام متصدّون كثيرون بوسائل مختلفة ، فتحطّموا وتكسّرت على حقيقته الثابتة المتينة نظرياتهم وجدلياتهم وأقوالهم المزخرفة ، وتكشفت بنوره تزييفاتهم وأكاذيبهم وأباطيلهم وظل الإسلام بحقه ونوره يتحدى كل مخالف له ، ويصرع كل مصارع ، ويطحن كل محارب .

{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ}

(الصف/61 مصحف/109 نزول)

هذا وإني ما زلت أعتقد أنه من غير المستحسن إثارة معارك جدلية مع الملحدين من أعداء الإسلام ، حتى لا تعطيهم هذه المعارك فرصة لنشر آرائهم بين أبناء المسلمين ، وحتى لا تكسبهم هذه المعارك دعاية يستغلونها لنشر أسمائهم ، وترديد أفكارهم وآرائهم الباطلة ، وبإهمالهم يتساقطون تساقطاً ذاتياً أمام سلطان الحق المالئ للوجود ، وينساهم الزمان كما نسي أسلافهم ، وتطويهم الحقائق طي وفاة الهالكين ، ما زلت في هذا الاعتقاد إلى أن ألحَّ عليَّ فريق من أهل الغيرة على الإسلام ، أن أكشف زيف بعض الملاحدة المعاصرين الذين تصدوا لمحاربة الإسلام في جذوره الكبرى ، بمكتوباتهم ومنشوراتهم التي حاولوا أن يضعوا لها هالة البحث العلمي ، والنقد الحر الجريء ، وبرر لي هؤلاء الأحبة من أهل الغيرة ضرورة العمل ، وأنه قد أصبح واجباً إسلامياً متحتماً ، باعتبار أن طائفة من طلائع فتياننا وفتياتنا قد أثرت في نفوسهم وأفكارهم بعض أباطيل هؤلاء الملاحدة وسفسطاتهم ومغالطاتهم ، حتى نقلني إلحاحهم من موقع الرفض إلى موقع التردد ، وبقيت متردِّداً حولاً كاملاً ، حتى أعاد هؤلاء الأحبة الغيورون على إلحاحهم في صيف عام 1393-1973م ، فاستخرت الله ، وعزمت على تحقيق الطلب ، وكتبت هذا الصراع العلمي المنطقي المحتشم ، التزاماً بآداب المناظرة والجدال بالتي هي أحسن ، ما لم يستدع رد الضربة الباطلة بكفئها من الحق .

ورجوت من هذا الصراع أن يحقق الله سنته التي أعلنها بقوله في سورة (الرعد/13 مصحف/96 نزول):

{أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ}.

والله ولي التوفيق ، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد والسداد ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

(2)

لو عرف كثير من الملاحدة أن اليهود المقنعين يحرثون على أكتافهم وظهورهم مزارع سياستهم ، ولا يدفعون لهم مقابل ذلك إلا الغرور بالنفس والأجر اليسير ، والفحش الكثير ، والخمر والحشيش ، والمواعيد الكاذبة ، والأوهام الخادعة ، لاستقام تفكيرهم ، وتيقظت بصائرهم ، ولرجعوا إلى صفوف المؤمنين بالله ، يكافحون الإلحاد ومن يغذيه أو يدفع إليه .

إن اليهود الذين وضعوا أو دعموا ما أسموه بالنظريات المناقضة للدين ، وزعموا أنها حقائق علمية زوراً وبهتاناً ، وأدخلوها ضمن حشد التقدم العلمي المعاصر ، أرادوا أن يخدعوا بها أجيال المثقفين ليخرجوهم من صفوف أمتهم ويستخدموهم جنوداً يدمرون بهم كل المواريث الإنسانية والتعاليم الربانية .

ألا فليعلم هذه الحقيقة شباب مضللون سائرون في طريق الإلحاد ، أو واصلون إلى غايته ، أو متطلعون إلى السير فيه .

(3)

قرأت طائفة من مكتوبات ملاحدة القرن العشرين ، فرأيتها حشداً من المغالطات الفكرية المقرونة بزخرف من القول ، والمقنَّعة بقناع العلمانية . فهي تحاول أن تُدَلِّي قارئها بغرور إلى مواقع الباطل ، مغشية بصره وبصيرته حتى لا يرى وجه الحق الجميل ، ثم تنتقل به من تضليل إلى تضليل ، مستخدمة عبارات الأمانة العلمية ، وغوغائيات كلمات التقدم الصناعي والتكنولوجيا ، ومعطية أحكاماً قطعية على مذاهب ومبادئ لا تمثل إلى وجهة نظر معينة لفئة من العلمانيين ، تخالفها وتناقضها وجهات نظر أخرى تدعمها مدارس علمانيَّة كثيرة ، من علمانيات القرن العشرين نفسه ، قرن التقدم المادي على اختلاف جوانبه واختصاصه .

وتسير جدليّاتهم ضمن هذا المنهج من المغالطات والغوغائيات والتقريرات ، والعبارات التي تتصنَّع الهدوء والمنطقية ، وتستغل كل ثقل التقدم العلمي الذي أحرزه إنسان القرن العشرين لأنفسها ومذاهبها ، مع أن التقدم العلمي والتكنولوجيا بعيد كل البعد عن دعم مذاهبها ، أو تأييد إلحادها بالله ، وجحودها اليوم الآخر ، لدى تحري الحقيقة بصدق ، في كل مجالات التقدم الصحيح الحق ، في العلوم المادية والتكنولوجيا . وتدس جدلياتُهم في بعض عباراتها نفثات الهزء والسخرية ، وتبجحات التعاظم بالتقدم العلمي والصناعي ، وذكر الأسماء الأجنبية المعروفة في ميادين المعرفة والعلوم المادية وسيلة للتأثير على الضعفاء المراهقين في عقولهم ونفوسهم ، الذين لا يصمُدون لاستهزاء المستهزئين من أهل الباطل ، وتستهويهم مظاهر الاستكبار والتعاظم ، وتخدعهم دعاوَى المعرفة والتقدم العلمي الحديث ، وتؤثر في نفوسهم الأسماء المشهورة في ميادين العلم .

وأمام هذه المغالطات والغوغائيات الجدلية ، ذكرت قول الله تعالى في سورة (الكهف/18 مصحف/69 نزول):
{وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُواْ هُزُواً}.

(4)

قرأت فيما قرأت مقولات "نقد الفكر الديني" للدكتور صادق جلال العظم ، الحائز على لقب "دكتور" من الذين دسَّوا الكفر في فكره إذ منحوه هذا اللقب ، فرأيت في مقولاته عجباً من المغالطات والأباطيل والافتراءات ، وسائر وسائل الجدال بالباطل لدحض قضية الحق .

وكنت قلت في نفسي قبل أن أقرأ مقولاته بإمعان : لعله باحث أخطأ وجه الصواب ، وعاب بانحرافه الحق الذي لا يعاب ، ولكني بعد أن قرأت كتابه رأيته نموذجاً من التضليل المراد ، القائم على المغالطات والأكاذيب والادِّعاءات الباطلة ، وستر وجه الحق الديني الذي تصدى لمحاربته علناً ، وتزيين وجه الباطل الإلحادي الذي حمل لواء مناصرته والتبشير به .

وقد كنت قرأت علوم الفلسفة والمنطق والمناظرة ، ومررت فيها على ما يسمونه (بالمغالطة) وما يسمون (بالسفسطة) فإذا سئلت عن أمثلة لهما لم ينجدني الخيال إلا بأمثلة محدودة ، رغم الكد الذهني الذي أبذله ، فلما قرأت مقالات "نقد الفكر الديني" ظفرت منها بأمثلة كثيرة للمغالطات وأنواع السفسطات التي تعمدها كاتبها الناقد (د. العظم) ليضلل بها من يطالع كتابه من مراهقي الفتيان والفتيات ، من أجيال الأمة الإسلامية ، خدمة متحمسَة للماركسية والداروينية والفرويدية وسائر النظريات بل (الفرضيات) اليهودية الإلحادية ، وهو في كل ذلك يتستر بعبارات التقدم العلمي والصناعي ، والمناهج العلمية الحديثة ، ولا يقدم من البينات إلا قوله مثلاً: إن العلم يرفض هذا ، أو لا يسلم بهذا ، أو يثبت هذا ، دون أ، يطرح مناقشات علمية نقدية تتحرى الحقيقة .

فمن غريب ما فعل في منطقه الشاذ أنه جمع كل الأديان ، وكل ما فيها من حق وباطل ، وكل ما نسب إليها من ضعيف وقوي وفاسد وصحيح ، وقال : هذه هي الأديان ، ثم وجه النقد اللاذع للباطل الظاهر ، وللضعيف البين ، وللفاسد المعروف فساده ، ثم صنع من ذلك مقدمة فاسدة استنتج منها إبطال الدين كله .
لقد رأى في مقدمته الفاسدة أن الاتجاهات الدينية يوجد فيها ما هو باطل مخالف للحقائق العلمية ، التي توصل إلهيا البحث العلمي (ووضع الأديان المختلفة كلها في دائرة واحدة) ثم زعم أنه لما كان الدين كله يمثل جبهة واحدة ، وقد وجد الباطل في جانب من جوانب هذه الجبهة ، ولما كان الدين متماسك الحلقات متى انتقض بعضه انتقض كله ، فالنتيجة

التي يستخلصها الفكر العلمي هي أن الدين كله مشكوك به ، ولا يصح الاعتماد عليه ولا الأخذ به .

هذه هي حجة (د. العظم) في إبطال الدين كله ، ولست أدري هل يقبل إنسان يملك الحد الأدنى من التفكير المنطقي السليم هذا النوع من الاستدلال العظمي الذي ليس له أسر[1] يشده ، ولا لحم يملؤه ، ولا إهاب يزينه ، أو تجرى فيه دماء حياء أو حياة .

على هذا القياس العظمي نستطيع أن نبطل العلوم المادية كلها ، ونجعلها شيئاً غير موثوق به مطلقاً ، فنقول : إن الاتجاهات العلمانية التي تعتمد على البحث العلمي المدروس بأناة واختبار وتجربة للوصول إلى الحقائق هي اتجاهات باطلة مزيفة ، بدليل أننا نلاحظ عند أصحاب هذه الاتجاهات نظريات متناقضة ، ونلاحظ بعضها فاسداً قطعاً ، وبعد هذه المقدمة نُصدر وفق القياس العظمي حكماً قطعياً عاماً على كل الاتجاه العلمي ، ونقول : هو اتجاه مشكوك به ، باعتبار أن فيه نظريات باطلة ، وبما أن أصحاب الاتجاه العلماني يُمثلون جبهة واحدة ، ومتى ظهر الفساد في بعضها فلا بد أن يكون الفساد أو الشك شاملاً لها كلها ، وبناءً على ذلك فالاتجاه العلماني باطل كله!.

لو قال هذا الكلام واحد من المتدينين لقال الناس جميعاً – وفيهم المتدينون أنفسهم- : هذا إنسان فاسد العقل فاسد التفكير .

أما سيادة العظم فيقول مثله تماماً عن الاتجاه الديني كله ، وهو يتظاهر بحرصه الشديد على الأمانة العلمية التي تنشد الحقيقة ، ثم لا يجد بين العلمانيين الماديين من يوجه له نقداً أو تصحيحاً منطقياً ، فأين الأمانة العلمية التي يزعمونها ويتبجحون بها؟!

أهذا أمانة علمية؟ أم هو مغالطة ، وخيانة للعلم ، وخيانة لأصول العقل السليم والمنطق السديد؟

هل يصح في أصول العقل السليم تعميم مثل هذا التعميم؟ إن هذا التعميم الفاسد لا يفعله بقَّال ولا بائع خضراوات ، بل نرى البقَّال يصنف بقوله ، ويميز بين الفاسد والصحيح منها ، ونرى بائع الخضروات كذلك يميز بين الفاسد والصحيح من خضرواته ، ثم لا يرفض أصحاب الحوائج كل ما عندهما ، ولا كل ما عند جميع البقالين وبائعي الخضراوات ، لأن بعضهم يوجد عنه فاسد من بقول أو فاسد من خضراوات .

فأين المنهج العلمي الذي يتبجح به ؟ وأين الأمانة العلمية التي يتظاهر بالغيرة عليها؟

---

[1] الجملة العصبية .

قرأت جدليات (د. العظم) وجدليات غيره من أساطين الإلحاد ، فرأيت أن جدلياتهم كلها تعتمد على المغالطة الفاحشة الوقحة ، أو المغالطات المقنعة بالحيلة والخداع ، ولدى إحصاء هذه المغالطات وجدتها تعتمد على العناصر التالية:

1- تعميم أمر خاص ، والمغالطة هنا تنسب إلى بعض أفراد العام ما ليس له من أحكام بغية التضليل .

2- تخصيص أمر عام ، والمغالطة هنا تنفي عن بعض أفراد العام ما له من أحكام بغية التضليل .

3- ضم زيادات وإضافات ليست في الأصل .

4- حذف قيود وشروط لازمة ، يؤدي حذفها إلى تغيير الحقيقة .

5- التلاعب في معاني النصوص لإبطال حق أو إحقاق باطل .

6- طرح فكرة مختلفة من أساسها للتضليل بها .

7- تصيّد بعض الاجتهادات الضعيفة لبعض العلماء وجعلها هي الإسلام ، مع أنها اجتهادات منتقدة مردودة من قبل مجتهدين آخرين ، أو من قبل جمهور علماء المسلمين .

8- التقاط مفاهيم شاذة موجودة عند بعض الفرق التي تنتسب إلى الإسلام ، وإطلاقها على أنها مفاهيم إسلامية مُسلَّم بها عند المسلمين ، والإسلام منها بريء براءة الحق من الباطل .

9- نسبة أقوال أو نصوص إلى غير قائليها أو إلى غير رواتها .

10- كتمان أقوال صحيحة ، وعدم التعرض إليها مطلقاً ، مع العلم بها وشهرتها .

11- الإيهام بأن العلوم المادية ملحدة على خلاف ما هي عليه في الواقع .

وعلى هذا النمط تسير مغالطاتهم ضمن تلاعبات كثيرة فيها خيانة للعلم وللحقيقة .

ولكني أرجو أن لا تنطلي مغالطاتهم وحيلهم وألاعيبهم على مثقفي هذه الأمة ، وأن يكتشف الجميع خيانتهم لأمتهم وتاريخها ، وخيانتهم لأنفسهم إذ باعوا نفوسهم لأعداء الحق شياطين الإنس ، وأن يكون رائد هؤلاء المثقفين محبي الخير لأمتهم وأنفسهم أن يتحققوا بمضمون الدعاء التالي :

"اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ووفقنا لما تحب وترضى" .

والناقد (د. العظم) قد استخدم في كتابه "نقد الفكر الديني" معظم عناصر المغالطات التي أوضحتها آنفاً ، غير مكترث بالحقيقة ، ولا بالأصول المنطقية الصحيحة ، ولا بالبحث العلمي السليم ، وأما الأمانة العلمية التي تباكى من أجلها وتظاهر بالحرص الشديد عليها فلم يُقم لها أي وزن ، بل راح يطعنها في الصميم لدعم قضية الإلحاد التي حمل لواءها ، وانطق يبشر بها بين أبناء الأمة العربية .

أفبهذه المغالطات تُنشد الحقيقة العلمية؟

أفبهذه المغالطات تكون المحافظة على الأمانة العلمية؟
أهذه هي الأصول المنطقية المتقدمة التي يعتمد عليها؟

إن الحق الذي تنكره اليوم أيها الجاحد لن تستطيع أن تنكره غداً يوم الدين ، ولن تستطيع أن تجحده إذا أراد الله أن ينزل بك شيئاً من معجَّل عقابه ، وعندئذٍ لن تستطيع الشيوعية العالمية ، ولا اليهودية العالمية ، ولن يستطيع ملاحدة الدنيا أن ينقذوك من قبضة العدل الإلهي .

إن عذاب الله لشديد ، ولئن استهنت به وأنت مغرور متمتع بصحتك وقوتك ، فلن تستهين به يوم يمسُّك شيء منه ، إن ربك لبالمرصاد ، وإنه لا يخلف الميعاد .

لن يضر الحق شيئاً أن يجحده جاحدوه ، أو ينكره منكروه ، فالله حق وبيده مقاليد كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

ولكن إنكار الحق تبارك وتعالى يضر المنكر وحده ، وجحوده تبارك وتعالى يضر الجاحد وحده ، فهو بجحوده وإنكاره واستكباره يخسر نفسه وسعادته ، ويقذف بهما إلى العذاب الأليم .

أيها الملحدون : اسمعوا قول الله تعالى في سورة (آل عمران/3 مصحف/89 نزول):
{إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوۤاْ إِثْمَاً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}.

*   *   *

الفصل الثاني

الحقيقة بين الدين والعلم

(1)

حاول الناقد (د. العظم) بمغالطاته وافتراءاته الكثيرة – أُسوة بسائر ملحدي هذا العصر – أن يثبت أن الدين مناقض للعلم ، ليتوصل من ذلك إلى نقض الدين كله جملة وتفصيلاً ، وقد جعل هذه النقطة هي المحور الأساسي الذي دار حوله في محاربته للدين ، ونقده المزعوم المزور للفكر الديني ، ونقضه المزيف الكاذب لقضية الإيمان بالله من أساسها .

من أجل ذلك عقدت هذا الفصل "الحقيقة بين الدين والعلم" قبل الدخول مع العظم في المعركة الجدالية ، حول النقاط التفصيلية التي أثارها في جدلياته غير الشريفة وغير الأمينة ، لأكشف فيه مواقع النظر السليم إلى كل من العلم والدين ، ولأحدِّد فيه أبعاد كل منهما ، ومواطن الشبهات التي قد يقع فيها هؤلاء أو هؤلاء ، وبذلك ينكشف للقارئ منهج الحق قبل أن يشهد في هذا الكتاب فصول الصراع الجدلي على النقاط التفصيلية التي أثارها العظم ، فمن عرف قواعد الصواب والخطأ في موضوع ما قبل أن يشهد حلبة الصراع فيه استطاع في نفسه أن يكون حكماً ، ويعرف المحق من المبطل ، ويعرف المستقيم المقسط من المراوغ المخادع .

(2)

تجوزاً في التعبير ، ومتابعة لما هو دارج على ألسنة الناس ، أضع هذا العنوان (الحقيقة بين الدين والعلم) لهذا الفصل ، مع أن الحقيقة أن الدين الحق ليس قسيماً مغايراً للعلم ، وإنما هو علم عن طريق الوحي ، وما جاءت به طريق الدِّين اليقينية هو من قبيل الحقائق العلمية ، وللحقائق العلمية طرق إثبات أخرى هي الوسائل الإنسانية البحتة .

فالمقابلة إذن ليست بين الدِّين والعلم ، ولكن بين طرق اكتساب العلم الذي يأتي به الدين ، وطرق اكتساب المعرفة الإنسانية البحتة ، كطريق الحس المباشر لإدراك المعارف ، وهو الإدراك القائم على المشاهدة والتجربة ، وكطريق العقل لاستنباط المعارف التي لا تُدرك بالحس المباشر ، وهذه الوسائل الإنسانية المختلفة وأدواتها التي تستخدمها ، هي منحة من الله لعباده ، حتى يستخدموها في اكتساب المعارف والعلوم ، ولذلك كان الإنسان مسؤولاً عنها عند الله في مجال اكتساب العلم ، فقال الله في سورة (الإسراء/17 مصحف/50 نزول):

{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}

وهذه السوائل الإنسانية تقدم بدورها شهادة يقينية بالحقائق التي توصلت إليها ، أو شهادة ترجيحية بالمعارف التي ترجحت لديها بغلبة الظن

، وكذلك الوحي الجامع لطرق اكتساب العلم الذي يأتي به الدين ، هو أيضاً منحة من الله لعباده ، وقد جعله الله للناس طريقاً لاكتساب طائفة من العلوم ، وهي التي يطلق عليها اسم علوم الدين ، ونلاحظ أن أهم ما يختص بها العلوم الغيبية التي لا تدركها الحواس الإنسانية ، ولا تستطيع العقول بوسائلها إثابتها مستقلة عن أنباء الدين.

أما الحقيقة بالنسبة إلى الأمور الوجودية (غير الاعتبارية وغير النسبية) فهي واحدة ، والإدراك الحسي يقدم شهادة بما توصل إليه من نتائج نحو الحقيقة ، ويرافق الإدراك الحسي الوسائل المادية التي يستخدمها الحس ، كالملاحظة والتجربة مع الأدوات والآلات التي تثبت صحة شهاداتها ، كالمقاييس والموازين والكواشف المختلفة ، وذوات الإحساس المادي غير الإرادي الكيميائي والفيزيائي ، حتى الذري الإلكتروني . والاستنتاج أو الاستدلال العقلي يقدم أيضاً شهادةً بما توصل إليه من نتائج نحو الحقيقة . ولا يمكن أن تتناقض نتائج الإدراك الحسي ونتائج الاستدلال العقلي إلا وأحدهما أو كلاهما مصاب بالخلل ، وذلك لأن كلاً منهما منحة ربانية وضعها الخالق بين يدي الإنسان ليعرف بها حقائق الأشياء ، كما وضع بين يدي كل منهما وسائل البحث التي تقدم شهاداتها عن مشاهداتها ، والطرق الصحيحة التي تقصد أمراً واحداً لا بد أن توصل إلى غاية واحدة ونتيجة واحدة ، أو غير متناقضة على أقل تقدير ، إذ تتكامل الحقيقة مما قدمت هذه الطرق من مدركات ، أو يعرف بها جزء من الحقيقة ، على قدر ما استطاعت أن تكشف منها .

ثم إن الوحي الذي هو منحة من الله لعباده عن طريق النبوَّة هو أيضاً طريق من طرق المعرفة الصحيحة ، فهو يقدم شهادة بالحقيقة ، ومتى كان الخبر عن الوحي يقينياً مقطوعاً به فإنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يتناقض مع اليقين الذي تُوصل إليه الوسائل الإنسانية البحتة . ولو أمكن أن تتناقض لكان معنى ذلك أن الفاطر الحكيم لم يضع بين أيدينا الوسائل الصحيحة التي تكسبنا المعارف والعلوم الحقة ، أو لم يصدقنا فيما أخبرنا به عن طريق الوحي ، وكل من الأمرين مستحيل عقلاً وشرعاً .

فالله تبارك وتعالى جعل وسائل المعرفة فينا مسؤولية في ميدان المعرفة والبحث العلمي ، ومسؤوليتها هذه رهن بأنها من الطرق الموصلة إلى الحقيقة ، كما جعلنا مسؤولين عن التسليم بما يخبرنا به عن طريق الوحي ، لأن برهان العقل قد قام لدينا بأن ما يخبرنا به الرسول عن طريق الوحي صدق وحق ، والجامع بين الأمرين هو أن كلاً منهما يقدم شهادة بالحقيقة ، وبما أن الحقيقة واحدة فإنه لا يمكن أن تتناقض نتائج الطرق الصحيحة الموصلة إليها ، ومتى ظهر التناقض فلا بد أن يكون ذلك لخلل أصابها أو أصاب واحداً منها .

فمن الأمثلة ما يلي : لقد أخبرنا الله أنه لا إله إلا هو ، وهذا خبر جاءنا به الوحي فقدم لنا شهادة بحقيقة وحدانية الخالق تبارك وتعالى ، والبحث العلمي في هذا المجال لا بد أن يوصل إلى هذه الحقيقة نفسها ، ولذلك قال الله تعالى في سورة (آل عمران/3 مصحف/89 نزول):

{شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَ ٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَاً بِ ٱلْقِسْطِ..}.

فلدينا إذن حول هذه الحقيقة شهادة الله إذ أخبرنا بوحدانيته عن طريق الوحي والرسل ، ولدينا أيضاً شهادة أولي العلم الذين توصلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق البحث العلمي .

فمن الغفلة الكبيرة والجهل بأصول المعرفة ، إقامة الصراع والنزاع بين ما يأتي من المعارف الكونية عن طريق الدين ، وما يأتي منها عن طريق الوسائل الإنسانية ، مع أن هذه وتلك شواهد إلهية أقامها الله بين يدي الإنسان ليعرف بها الحقيقة ، وهل يشهد الله شهادتين متناقضتين أو يضللنا سبحانه فيضع لنا وسيلتين تعطي كل منهما نتيجة مناقضة للأخرى في موضع واحد؟

هذا أمر لا يكون في حال من الأحوال ، وحكمة الله العلي العليم الحكيم القدير تأباه .

وواجبنا لدى البحث عن الحقيقة أن نحرر تحريراً دقيقاً ما تأتينا به الوسائل الإنسانية من المعارف ، وما يصلنا من أخبار الوحي .

وكل مظهر للتناقض بين ما تشهد به الوسائل الإنسانية للمعرفة وما تشهد به النصوص الدينية لا يعدو أحد الاحتمالات التالية:

1- إما أن يكون الذي نسب إلى العلم لم يصل إلى مرحلة العلم المقطوع به ، كالنظريات التي لم تتأكد بعد ، والتي ما زالت رهن البحث والنظر ، أو التي لا سبيل إلى إثباتها بأدلة علمية يقينية ، وإن اعتقدها العلماء الماديون لعدم وجود ما هو أقوى منها في نظرهم المادي البحت ، ولأنه لا اختيار لهم بعد ذلك إلا التسليم بما جاء به الدين ، وهم يرفضون نفسياً هذا الأخير .

2- وإما لأن الذي نسب إلى الدين لم يصل إلى درجة القطع في نقل النص الذي تضمنه .

3- وإما لأن الفهم الذي فُهم به النص الديني فهم خاطئ ، وهذا الفهم لا يتحمل النص الديني وزر خطئه ، وغنما يعبر عن رأي من فهمه على هذا الوجه المخالف للحقيقة العلمية ، التي توصلت إليها الوسائل الإنسانية ، كمسألة كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس .

وهنا نلاحظ أن النصرانية لما سقطت في طائفة من المفاهيم الباطلة الدخيلة على أصل الدين ، والمخالفة له ، والمناقضة لأصول العقل والعلم الصحيح ، حاولت أن تتلخص من ورطتها هذه بمقالتها المشهورة : "الدين لا يخضع للعقل" وأطلق علماؤهم بين بين أتباعهم كلمتهم المأثورة : "أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى" وحرموا التفكير والنظر في

مسائل الدين ، وفرضوا عليهم التسليم الأعمى بالإله المثلث دون مناقشة ولا نظر ، مع أن أصول العقل السليم ترفض هذا رفضاً قطعياً ، ولا تسلم به النفوس إلا مع تعطيل منطق العقل ، ورافق ذلك أنهم أقفلوا باب العقل والبحث العلمي نهائياً عن كل مسألة تعرضت إليها نصوص دينهم ، حتى ما كان منها متعلقاً بواقع الكون الذي تستطيع الوسائل الإنسانية أن تصل إلى معرفته .

ولما جاء الإسلام رفض هذا التثليث الدخيل على دين الله ، ونادى بالوحدانية ، وقدم على ذلك شهادة من عند الله ، نزل بها الوحي على رسول الله محمد [illegible]

[illegible]

---

[1] شرحت طائفة منها في كتابي : "العقيدة الإسلامية وأسسها".

[illegible]

[illegible] .

[illegible] :[illegible] :

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] : [illegible]

[illegible]

[illegible]:

[illegible] : [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] : [illegible]
[illegible] . [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] : [illegible] :

[illegible] :

[illegible] . [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible] : "[illegible]" .

[illegible]
[illegible] . [illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] :

[illegible] .

[illegible] :

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] ([illegible] — [illegible] — [illegible]) [illegible]

[1] مثل أورده الغزالي وغيره ، خلاصته أن عدداً من العميان قُدّم لهم فيل ليصفوه ، فوقعت يد كل منهم على جانب منه ، ثم أخذ يصف الفيل عن طريق ما تلمسه بيده منه ، فوصف أحدهم ملاسة الناب وقسوته ، والآخر خشونة الذيل ، والثالث ما تلمسه من الخرطوم ، والرابع ما تلمسه من رجله ... وهكذا .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible] .

([illegible])

[illegible]

[illegible] .

[illegible] : [illegible] . [illegible] .

[illegible] :[illegible]

[illegible] : **[illegible]** [illegible] .

[illegible] : **[illegible]** [illegible] .

[illegible] : **[illegible]** [illegible] : [illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]…[illegible]

: [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible]

[illegible] : [illegible] "[illegible]" : [illegible] "[illegible]" : [illegible] "[illegible]" : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

*   *   *

الفصل الثالث

النقد الذاتي

حول مفاهيم المسلمين للإسلام

(1)

تحت عنوان "نقد الفكر الديني" تستر الناقد العظم ، إذ حاول تقويض أسس الإسلام الكبرى ، وقواعده العظمى ، التي هي حق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وربما استغل ما لدى بعض المسلمين من مفاهيم خاطئة عن الإسلام ، ليطعن الإسلام بذلك ، على طريقة إبطال الطب كله لأخطاء بعض الأطباء ، وإبطال الهندسة كلها لأخطاء بعض المهندسين ، وإبطال ضرورة القضاء لفساد بعض القضاة ، وتعميم الأحكام التي هي لبعض الأفراد ، وإطلاقها على كل الأفراد ، ثم إطلاقها على المبادئ الحقة التي يدعي هؤلاء الأفراد انتسابهم إليها ، ولو كانوا مخالفين لها في مفاهيمهم أو في سلوكهم ، وعلى هذا الجنوح الفكري الخطير ،الخارج عن حدود كل منطق عقلي أو علمي سليم ، سار العظم في جدلياته ومغالطاته .

ولكي لا يزعم القارئ أنني من الذين يبررون كل خطأ ، ما دام يعلن انتسابه إلى الدين زوراً وبهتاناً ، أو جهلاً وغفلة ، أو خطأ غير مقصود ، عقدت هذا الفصل ، لأنقد فيه نقداً ذاتياً ما دخل على مفاهيم كثير من المسلمين عن الإسلام ، وكوّن لديهم تصوُّراً مشوهاً غير صحيح للإسلام الحق ، أو تطبيقاً مشوهاً له ينم عن فساد في التصور ، أو انحراف في السلوك .

ووجدت من الواجب علي أن أعقد هذا الفصل قبل أن أدخل مع العظم في المعركة الجدالية ، حول النقاط التفصيلية التي أثارها ، لألقي فيه الضوء على أن الإسلام الحق الذي هو دين الله للناس ، يتميز كل التميز عن المنتسبين إليه ، الذين لا يمثلون في مفاهيمهم أو سلوكهم صورة صحيحة عنه ، وأرجو بهذا التمييز أن لا تدخل على الأجيال الإسلامية مغالطات وافتراءات أعداء الإسلام ، وأعداء المسلمين وتاريخهم المجيد .

(2)

من المعلوم أن الإسلام الذي قدم للإنسانية ما قدمه من مجد حضاري أمثل يوم كانت الأمة الإسلامية في طور شبابها وقوتها صالح باستمرار لأن يأخذ بيد الإنسانية في طريق المجد الحضاري الصاعد ، دون تقهقر ولا توقف ، لو ظل المسلمون يجددون شبابهم ، بالتماس منابع الإسلام الثرَّة ، منها يعبون ، ومنها ما به يتطهرون .

ففي الإسلام الصافي جميع العناصر اللازمة التي تستطيع الإنسانية بها أن تحافظ على شباب دائم ، متدفق بالحياة والعمل البناء والارتقاء ، لو أحسنت تدبُّره والاستمساك به والعمل بتعاليمه .

وفي الإسلام الصافي جميع العناصر اللازمة لإسعاد الناس كل الناس ، أفراداً وأسراً وجماعات ودولاً ، مهما اختلفت بينهم الأعراق والألوان والأجناس ، ذلك لأنه دين الإنسانية جميعاً ، المنزل وفق خصائصها وصفاتها المشتركة بين جميع شعوبها وقبائلها ، وليس ديناً قومياً ولا إقليمياً ولا طبقياً .

بخلاف الشيوعية التي هي مذهب طبقي عنوانه "يا عمال العالم اتحدوا" وبخلاف الرأسمالية التي هي مذهب طبقي أيضاً يخدم مصالح طبقة معينة ، وبخلاف اليهودية بحسب مفاهيم اليهودية المحرفة ، فهي دين قومي خاص بشعب بني إسرائيل ، الذي هو في عقيدتهم شعب الله المختار .

أما الإسلام فهو دين رب الناس اللطيف الخبير للناس أجمعين {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير} ، ومن أجل ذلك كانت تعاليم هذا الدين مصلحة ومسعدة للناس كل الناس .

ولست في مجال بيان تفصيلي يوضح هذه الحقيقة عن الإسلام ، لأدلل على أن تعاليم الإسلام الصافية من الشوائب الدخيلة كفيلة بتحقيق مجد الإنسان في هذه الحياة ، وكفيلة ببناء أفضل المؤسسات الاجتماعية ، وبتنظيم أرقى دولة مدنية آخذة بأوفى نصيب خيرٌ من التقدم الحضاري المتطور ، البعيد عن الشر ومعصية الله .

ولكن مرضاً خطيراً من الأمراض التي تراكبت على الأمة الإسلامية في القرون المتأخرة هو الذي جعلني أعقد هذا الفصل ، ألا وهو الشوائب الدخيلة التي عقلت بالتعاليم الإسلامية في مفاهيم كثير من المسلمين .

(3)

تأملات –ربما تكون غير مستقصية- من تأملات البحث العلمي ، وضعت فيها إحدى يدي على الأسس الإسلامية العامة التي وعيتها خلال دراستي الطويلة للعلوم الإسلامية ، ووضعت فيها يدي الأخرى على ما خبرته من واقع المسلمين خلال تجربة نيف وثلاثين سنة ، جعلتني أتلمس الشوائب التي تسربت إلى مفاهيم المسلمين ، فألصقها لجاهلون والغافلون بالتعاليم الإسلامية وهي ليست منها ، وكان من وراء الجاهلين والغافلين في كثير من الأحيان ماكرون مختلفو الأصباغ والأقنعة والأغراض ، يعملون في الخفاء لهدم الإسلام أسساً وقواعداً وبناءً شامخاً .

ثم تحولت هذه المفاهيم التي هي من قبيل الشوائب لا الأصل النافع المفيد الخيّر ، إلى تطبيقات عملية ، ومواريث ثقيلة ، أحنت ظهور الأجيال التي تحملها ، وعرقلت سبيل تقدمها ، كما أنها هيأت المُناخ المناسب لفساد الأجيال التي حملت شعار التخلص منها على غير بصيرة وغير هدى ، فتخلصت منها ومن الجوهر النافع ، الذي هو الأصل السليم ، المرافق لها

في حشد المفاهيم المختلطة ، وذلك إذ لم تستطع هذه الأجيال أن تميز بين الأصل النافع المفيد ، وبين الشوائب التي لا خير فيها .

يضاف إلى ذلك أن طائفة من هـذه الأجيـال وجـدت لأنفسـها بسـبب هذه الشوائب مبررات كثيرة تلبي عن طريقها الرغبـة بـالانطلاق والتحـرر ، والانسياق مع الأهواء والشهوات ، دونما ضابط أو رادع .

وكان من وراء هذه الطائفة الطائشة شياطين يمدون خراطيمهم في الظلمات من ديار الحرب إلى ديار الإسـلام ، فيوسوسـون لهـا ، ويمنونهـا ، ويكيدون في ذلك ضدها وضد الأمة الإسلامية ما يكيدون من شر عظيم .

أما الطعم في شباك الصيد فإنه يرجع إلى واحد من عدة أصول ، ومنها الأصول الخطيرة التالية:

الأول: الإغراء بالمال .
الثاني: الإطماع بالحكم والسلطان .
الثالث: الفتنة بالنساء .
الرابع: الفتنة بالخمر والميسر والمخدرات وأصناف اللهو ، وإضعاف القوى الفردية والاجتماعية عن طريقها .
الخامس: الخداع بمظاهر الحضارة الماديـة الخلابـة ، وبمـا تتضـمن من قوى حربية فتاكة ، وبمسـتنداتها مـن العلـم المـادي . وفـي ضـمن هـذا الخداع تأتي واردات مهلكة لا هي من العلم الثابت ، ولا هي مـن المنجـزات الحضارية النافعة ، وفي طيات هذه الـواردات يكمـن الخطـر علـى الفكـر ، وعلى الخلق ، وعلى السلوك ، وعلى وحدة المسلمين ، وعلى جميع قواهم الحقيقية المادية والمعنوية ، ثم على كيانهم كله .

(4)
مصوّر عام لمنهج التعاليم الإسلامية وما طرأ عليه

نظرة عميقة إلى الشوائب التي دخلت أو أدخلت على التعاليم الإسـلامية تكشـف لنـا أن المكـان الطـبيعي لهـذه الشـوائب يقـع فـي أحـد منحدرين كائنين من دون اليمين أو من دون اليسـار ، بالنسـبة إلـى المنهـج الإسلامي الوسط ، الممتد في القمة الرشـيدة السـعيدة ، والـذاهب ارتقـاء إلى أعلى ذروات الحضارة المجيدة في دار الابتلاء ، دار العمل والبنـاء ، ثـم إلى فردوس الخلود السعيد الأكمل في دار الجزاء .

وإنما يحظى بخيرات هذا المنهج القويم السامي السالكون فيه ، المتقيدون بحدوده ، أفراداً وجماعـات ، وشـعوباً ودولاً ، والكـل مسـؤولون عـن سـلوك هـذا المنهـج والـتزامه ، وعـن بنـاء الصـرح الإسـلامي الـديني والدنيوي معاً .

وهذا المنهج متى انكسرت حدوده أمسى عرضة للاتساع مما وراءه من مزالق ومتاهات ، وعرضة لانزلاق سالكيه والخروج عن جادته ، وعرضة لدخول الشوائب فيه .

أما الشوائب الدخيلة على التعاليم الإسلامية ، فالحديث عنها يستدعي إلقاء نظرات عميقة إلى مصادرها ومنابع قدومها ، ونظرات عميقة أخرى إلى السبل والوسائل التي تسربت بسببها فاختلطت في مفاهيم المسلمين ، ضمن حشد التعاليم الأصلية ، أو زاحمت بعضها ثم احتلت مكانه .

ويستدعي منا أيضاً أن نلقي نظرات على واقع الصور العامة للتعاليم التي خالطتها الشوائب ، أو زاحمت ما زاحمت منها ، ثم احتلت مكانه في مختلف البيئات لشعوب المسلمين.

(5)

أما النظرات إلى واقع الصور العامة القاتمة القائمة في مفاهيم كثير من المسلمين ، فيمكن تمثيلها بإحدى الصور التالية المصابة بالخلل أو الفساد أو التزوير ، وهي خمس صور:

*** الصورة الأولى:**

وهي الصورة المختلطة المهزوزة في مفاهيم بعض الناس لحقيقة التعاليم الإسلامية ، وتكون هذه الصورة باختلاط الحقائق ، وعدم إدراك كل منها في مكانه الصحيح .

والشوائب في هذه الصورة ناتجة عن تداخل عناصر الصورة ، وتمازج بعضها في بعض ، وعدم تمايز حدود كل منها .

ومن أمثلة هذه الصورة في الواقع ما نشاهده عند كثير من المنتسبين إلى الإسلام من المفاهيم المختلطة الغامضة عن التعاليم الإسلامية ، كالذين يرون أن أي عطاء مالي يعتبر زكاة كافية للمال ، ويكتفون بذلك فلا تحاسبون أنفسهم على كل نصيب زكوي يجب عليهم شرعاً أن يؤدوه ، وكالذين يرون أن الديانات السماوية السابقة للإسلام لا تزال بعد بعثة محمد صلوات الله عليه مقبولة عند الله ، ومنجية من عواقب الشرك والكفر بالله ، رغم كل التحريفات الواقعة فيها عن الأصل الصحيح الذي أنزله الله على رسله عليهم الصلاة والسلام ، ولولا التحريف لرأى هؤلاء في ديانتهم ما يوجب عليهم اتباع محمد [illegible]
[illegible] .

[illegible] .

[illegible]

[illegible] - [illegible] .

2- وضع منهاج للتثقيف الإسلامي العام .

3- إعداد المصنفات الإسلامية الحديثة الملائمة للغة العصر ولأسلوبه الكلامي ، أو انتقاء المناسب منها ، وينبغي أن تكون هذه الصفات بعيدة عن إثارة الخلافات المذهبية العنيفة ، وأن تكو إيجابية ذات مستويات تتناسب مع مستويات جماهير المسلمين ، على أن يتم نشرها بينهم بنسبة كافية ، وبلغاتهم القومية .

4- العمل على إعداد جيش المثقفين ثقافة إسلامية حسنة ، مقرونة بوعي والتزام واتزان ، وينبغي أن تكون دوائر التثقيف الإسلامي في حالة اتساع مستمر .

5- توجيه هذا الجيش المتزايد إلى التوعية الإسلامية العامة ، بمستويات تتناسب مع حال الجماهير المختلفة .

*** الصورة الثانية:**

وهي الصورة التي دخل فيها أخطاء لدى رسم المفاهيم الإسلامية الصحيحة ، وطبيعي أن تكون هذه الأخطاء غير مطابقة للحقيقة الإسلامية .

ومن الأمثلة لهذه الصورة ما نلاحظه من مفاهيم غير صحيحة منسوبة إلى الإسلام ، وقد يسهل الأمر حينما يقال : هذا هو رأي فلان الذي فهمه عن الأمر الفلاني من الإسلام ، ولكن الخطر حينما يقال : هذا هو الحكم الإسلامي قطعاً ، وكل رأي مخالف له من الآراء والاجتهادات التي لها وجه من النظر ضلال وكفر .

وأسباب الأخطاء في رسم هذه الصورة كثيرة جداً ، ويمكن الإشارة إلى أهم أصولها العامة:

الأصل الأول : الخطأ في الاجتهاد ، وللخطأ في الاجتهاد أسباب كثيرة يعرفها علماء أصول الفقه الإسلامي .

الأصل الثاني : الخطأ في تقويم ما توصل إليه الاجتهاد ، وذلك باعتباره هو الحق لا غير ، رغم أن اليقين القاطع لم يتوافر فيه .

الأصل الثالث : التعصب للرأي أو للمذهب ضد الآراء أو المذاهب الأخرى .

أما الخطأ في الاجتهاد فيعذر فيه المجتهد الكفء بشرط تقيده بالأصول الاجتهادية العامة ، التي قامت عليها دلائل الشرع والعقل .

ولكنه ليس للمجتهد الذي توصل إلى مفهوم إسلامي قائم على ما ترجح لديه من ظن غالب أن يعطي ما توصل إليه اجتهاده أكثر من القيمة التي يستحقها ، فيفرض على الإسلام رأيه ، ويحارب كل رأي مخالف ،

وكذلك ليس لأنصار هذا المجتهد أن يفعلوا مثل هذا الفعل لاحتمال أن يكون الصواب في جانب رأي المخالف ، أو في جانب رأي آخر .

فإذا تعصب المجتهد لرأيه وفرضه على الإسلام فقد يؤدي به الحال إلى أن يلصق بالإسلام ما لا يقول به الإسلام نفسه ، فيضيف إلى الصورة الإسلامية خطأ من عنده .

ثم لا يصح للذين أخذوا برأي هذا المجتهد أن يتعصبوا له تعصباً أعمى ، لأنهم بعملهم هذا يجسمون ويعظمون بقع الخطأ التي رسمها الاجتهاد الخاطئ في الصورة الإسلامية .

ومن أسباب الخطأ في الاجتهاد عدم التبصر الصحيح الشامل بمختلف المصادر التي تثبت بها المعارف الإنسانية ، لمعرفة وجه الصواب ، أو لتخفيف نسبة احتمالات الخطأ.

وليس عسيراً على علماء المسلمين أن يصلحوا هذه الصورة التي دخلت فيها الأخطاء ، إذا اجتمعوا في مؤتمرات عامة ، وعالجوا المشكلات بتجرد صحيح ، ونشدان للحقيقة حيث كانت .

ويلحق بهذه الصورة التي دخلت فيها أخطاء لدى رسم المفاهيم الإسلامية الصحيحة المقومة لكل ما في الحياة رغم تطور أساليبها وصورها الحضارية ، ما نلاحظه عند طائفة من متأخري طلاب المعرفة الإسلاميين من الإغراق في الاشتغال بالجدليات الكلامية والمماحكات اللفظية ، وصرف معظم جهد البحث العلمي في حدود الألفاظ والحروف ، والبعد عن تصيد جواهر التعاليم الإسلامية النافعة ، وإخراجها منتظمة في عقود فكرية متكاملة متناسقة ، تعالج مشكلات الحياة ، وتواكب أطوارها الحضارية المتقدمة بإصلاح وتقويم ، أو دفع وتدعيم .

ولكن النهضة العلمية الإسلامية الحديثة في طائفة من عواصم بلاد المسلمين قد عدّلت من هذا تعديلاً كثيراً .

*** الصورة الثالثة :**

الصورة المشوهة من قبل أعداء الإسلام ، وهي الصورة التي قبَّح جمالها وإشراقها الماكرون المفسدون بما لطخوا وجهها الصبيح من شبهات ، وبما ألصقوا فيها من تهم كاذبة .

وصانعو هذه التشويهات رسامون كثيرون من أعداء الإسلام ، أجهدوا أنفسهم في تصيد الشبهات والتشويهات والأكاذيب والتضليلات ، لإلصاقها بالتعاليم الإسلامية ، وإفساد عقول أبناء المسلمين ، ثم أجهدوا أنفسهم فأضافوا إليها أصنافاً مختلفة من الزينات والأصباغ والدهانات الخادعة للنظر .

وحاولوا بهذا التشويه الحقير أن يشككوا المسلمين بدينهم وبتعاليمهم الربانية ، واستطاعوا بعد جهد جهيد وزمن مديد أن يتلاعبوا بعقول البعيدين عن التعاليم الإسلامية وتدبُّر غاياتها والحِكَم التي تتضمنها ، والمفتونين ببريق الحضارة المادية الأوروبية الحديثة ، لا سيما الذين أنشأتهم المدارس الأجنبية إنشاءً مباشراً ، ثم الذين أنشأتهم مخططاتها ومناهجها بشكل غير مباشر .

ومن اليسير على الدعاة المسلمين ذوي البصر النافذ ، والعمل المخلص ، إزالة هذه الأدران المشوهة للتعاليم الإسلامية ، وذلك بالقيام بحملة توعية إسلامية تعتمد على إبراز فضائل هذه التعاليم ، وبيان الحكم العظيمة التي تتضمنها ، بالاستناد إلى البحوث الفكرية المنصفة الرصينة ، والتجارب الواقعية المشاهدة .

وقد تصدى بحمد الله طائفة من كتاب الفكر الإسلامي من ذوي الغَيرة لدفع هذه الشبهات وبيان زيفها ، بكتابات كثيرة ، ودفاعات محكمة ، فأسهموا إسهاماً مباركاً طيباً في غسل الصورة التي أراد لها أعداء الإسلام أن تكون صورة مشوهة في نفوس كثير من أبناء المسلمين .

وينبغي أيضاً أن تستهدف حملة التوعية هذه تبصير الأجيال الإسلامية بمرابض الخطر على مفاهيمها الإسلامية الصحيحة ، وأخلاقها الكريمة ، وذاتيتها الإسلامية ، ذات الكيان المتميز في العالم ، يضاف إليه فضح دسائس أعداء الإسلام الفكرية والعملية ، وإبراز الصورة الإسلامية المشرقة الحقة ، بكل وسيلة من وسائل الإعلام والتنوير العام .

*** الصورة الرابعة :**

وهي الصورة التي حصل فيها تغيير في النِّسب بين مفردات وأجزاء التعاليم الإسلامية ، إذ أخذها بعضها من المساحة الكلية في أفكار ونفوس طائفة من المسلمين أكثر من نصيبه المقدر له في أصل التشريع الإسلامي .

فإذا أردنا أن نمثل هذه الصورة التي تغيرت فيها النِّسب الأصلية وجدناها تشبه ما لو جاء رسَّام (كاريكاتير) فرسم سيارة لركوب الناس ، فجعل لها دواليب ، قُطْرُ كل منها متران ، وجعل لها أبواباً صغيرة لا يستطيع أن يدخل منها الإنسان ، ومرتفعة عن الأرض بمقدار قامته ، ثم جعل لها من الداخل مقاعد ضيقة جداً ، بمقدار راحة اليد ، وطويلة جداً بمقدار طول العمالقة الخياليين ، وهكذا تلاعب بالنسب الصحيحة في الأجزاء ، ووضع محركاً بمقدار محرك دراجة نارية ، ثم كتب على سيارته هذه : (عدد الركاب ثمانون راكباً).

ربما أكون قد بالغت في التمثيل لغرض التوضيح ، إلا أن الحقيقة التي عليها بعض المسلمين في فهمهم للتعاليم الإسلامية فيها تغيير كبير في نسبة كل جزء منها إلى المجموع الكلي .

ومن الأمثلة ما يلي :

(أ) يرى بعض الناس أن أهم ما في الدين هو حسن المعاملة مع الآخرين ، فيملأ معظم المساحة الدينية به ، ويفضي به هذا الفهم إلى ترك مراقبة الله في الأعمال والأقوال والأفكار والنيات ، وإلى ترك فروض العبادات أو إهمالها ، وإلى عدم الاكتراث بركن الجهاد في سبيل الله لنشر الدين ، ونصرة الحق ، وإقامة العدل ونحو ذلك من الأمور الجوهرية التي يقوم عليها الإسلام .

(ب) ويرى بعض الناس أن أهم ما في الدين هو القيام بالعبادات الشخصية ، كالصلاة والصيام وكثرة الأوراد والأذكار ، فيملأ معظم المساحة الدينية بذلك ، ويهمل ما في الدين من واجبات وفروض أخرى ، أو يُصغِّر من حجمها ويعطيها أقل اهتمامه .

(ج) ويرى بعض الناس أن أهم ما في الدين هو المحافظة على السيما الظاهرة للمسلم ، فيولي ذلك كل اهتمامه وعنايته ، ويهمل الأسس الجوهرية التي قام عليها الدين عقيدةً وعملاً ، أو يصغر من حجمها ويعطيها أقل اهتمامه .

(د) ويرى بعض الناس أن مسؤوليات الدعوة إلى الله ، ونشر دين الله ، وإقامة الإسلام في الأرض ، من خصائص فئة معينة من المسلمين تفرغت للوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما سائر الناس فمسؤولون فقط عن أنفسهم ، فلا هم لهم إلا أمور دنياهم ، وتثمير أموالهم ، والتمتع بشهوات الحياة الدنيا ولذاتها ، والاستغراق في زخرفها ، كما يرون أن مسؤوليات الجهاد في سبيل الله من خصائص الجند فقط ، المنتظمين في سلك الجيش .

مع أن الإسلام الصافي قد عقد تشابكاً عاماً بين الأفراد والجماعات والقيادات ، وحمَّل كلاً من المسؤولية الشخصية على مقدار ما وهبه الله من خصائص ، ومن المسؤولية العامة على قدر موقعه بالنسبة إلى الجماعة وذلك كمسؤولية كل عضو من أعضاء الجسد بالنسبة إلى سائر الأعضاء ، ومن البدهي أن مسؤولية الرأس تناسب موقعه من الجسد ، ومسؤولية إحدى أصابع اليدين أو الرجلين تناسب أيضاً موقعها من الجسد ، والكل يقدم واجبه نحو المسؤولية الجماعية على مقداره .

وسبب التشويه في هذه الصورة فقدان الإدراك السليم الكامل الشامل للمفاهيم الإسلامية بوجه عام ، ومقادير كل منها ، وكيفية ترابطها وتناسقها في الصورة الإسلامية العامة .

وفقدان هذا الإدراك الشامل يتولد عنه نتائج خطيرة ، منها النتائج التالية:

أولاً: فساد النِّسب لأجزاء الصورة الإسلامية العظيمة .

ثانياً: الخللُ في وحدة النظام الكلي للمفاهيم الإسلامية التي يكمِّل بعضها بعضاً .

ثالثاً: تشتت شمل وحدة المسلمين ، نظراً إلى أن لكل فريق منهم صورة إسلامية خاصة به ، تتميز أجزاؤها بنسب مخالفة للنسب التي تتميز بها أجزاء الصور الأخرى ، الأمر الذي يؤدي إلى تعصب كل فريق للصورة التي يحملها ، وادعائه أنها هي الإسلام كل الإسلام .

رابعاً: توجيه كل طاقات العمل دفعة واحدة لتحقيق ما احتل معظم الساحة في الصورة ذات النسب الفاسدة ، ويصعب الأمر جداً حينما يكون أهون جزيئات التعاليم الإسلامية الصحيحة وأيسرها هو الذي يحتل معظم مساحة الصورة .

ومما يزيد في الألم أن تكون هذه الجزيئات التي تمتص معظم طاقات العمل داخلة في حدود الأشكال والرسوم ، لا في حدود الجواهر والمعاني والأرواح والقيم الحقيقية الذاتية .

فبينما تنقض أسس الإسلام حجراً حجراً ، وتعمل على اجتثاثها اجتثاثاً كلياً جيوش كثيرة مستخفية ومستعلنة ، نجد كتائب كثيرة من المسلمين منشغلة في جدليات كلامية ، ومصارعات عملية ، حول أفضل الألوان التي ينبغي أن يُدهن بها الجدار الخارجي لبناء الصرح الإسلامي ، مع أن جيوش الهدم لا يُستطاع دفعها إلا باجتماع طاقات حماة هذا الصرح العظيم على اختلاف أعراقهم ومذاهبهم .

*** الصورة الخامسة :**

وهي الصورة المزورة للتعاليم الإسلامية تزويراً كلياً أو تزويراً جزئياً ، وأمثال هذه الصورة المزورة نجدها عند الفرق المنحرفة الضالة ، التي عمل على إنشاء جيوبها أعداءٌ للإسلام ، تظاهروا بالانتساب إليه نفاقاً ، ليعملوا على هدمه من الداخل ، وذلك بتكوين فرق وطوائف تنتسب إلى الإسلام انتساباً اسمياً ، وهي تحمل له كل حقد وكيد ، وتضع له صوراً مصنوعة من عند أنفسها ، مزورة على الإسلام وعلى أحكامه وشرائعه . ولليهود في هذا المكر أكبر نصيب .

وبدهي أن كل صورة مزورة من هذا القبيل ليست من الإسلام في شيء ، وإن تسمّت باسمه .

ومن اليسير على جماعة المسلمين أن يكتشفوا هذه الصور المزورة المزيفة ، متى قارنوها مقارنة عامة بما هو معلوم من الدين بالبداهة عند جميع المسلمين .

ولكن الأمر الخطير جداً إنما هو إدخال التزويرات الجزئية على بعض المفاهيم والتعاليم الإسلامية الثابتة ، وهذا ما اتجهت إليه أجهزة المكر في هذا العصر ، وكانت لعبة قُصد بها تحويل المسلمين عن أسس التعاليم الإسلامية باسم الإسلام .

فمن أمثلة ذلك الأسماء الحديثة التي انتشرت في عالمَي الاقتصاد والسياسة (كالاشتراكية والرأسمالية والدكتاتورية والديمقراطية).

إن من المعلوم أن لهذه الأسماء مفاهيم ومدلولات خاصة عند الآخذين بها .

والذي يُلاحظ أن تشابهاً جزئياً موجود فعلاً بين التعاليم الإسلامية وبين بعض ما تتضمنه هذه الأسماء من دلالات نظرية ، أو تطبيقات عملية .

واستغلالاً لهذا التشابه الجزئي يأتي أعداء الإسلام فيستدرجون بعض المسلمين إلى منزلق الخطر الذي ينتهي في آخره إلى طمس نظام من نظم الإسلام ، وإحلال نظام آخر في مكانه ، تعلُّلاً بوجود التشابه بينهما في ناحية من النواحي .

مع أن مثل الإسلام كمثل المخلوق في أحسن تقويم بصفاته التامة التي لا يصح بحال من الأحوال فصلُ بعضها عن بعض ، ومثل الأنظمة الأخرى كمثل غير الإنسان من الأنعام أو الوحش ، وليس صعباً على أي ناظر أن يجد تشابهاً جزئياً بين الإنسان وبين هذه الكائنات الحية الأخرى .

ولكن الجنوح الخطير فكرياً أو تطبيقياً أن يحتل ثعلب ماكر ، أو ثور مغامر ، أو ذئب غادر ، مكان الإنسان ، أو أن تحتل نظيراتها من الأنظمة الوضعية مكان نظام من أنظمة الإسلام ، أو مكان عدد منها .

وقد حاول أنصار كل مذهب من هذه الوضعية أن يجد في الإسلام تأييداً لجانب من جوانبها ، ليلبِّس بذلك على المسلمين ، ويجعل الإسلام كأنه صاحب هذه المذاهب أو يوافق عليها .

وفي دوَّامة المغالطات والتلبيسات نجد أن أنصار المذاهب الاشتراكية في البلاد الإسلامية يختبئون وراء الإسلام ، ليحميهم من هجمات أنصار المذاهب الرأسمالية ، ويدرأ عنهم الضربات القاصمة ، بحجة أن الإسلام يحتوي على مبادئ اشتراكية ، تحقق العدالة الاجتماعية بين الناس ، كما نجد أنصار المذاهب الرأسمالية في البلاد الإسلامية يقدمون الإسلام إلى الصف الأول في معركتهم مع أنصار المذاهب الاشتراكية ، بحجة أن

الإسلام يعترف بالملكية الفردية ويحميها ، ويفسح مجال حرية العمل والكسب والتجارة ، ولا يسدُّ أبواب المنافسة الشريفة في تحصيل الثروات .

وبين صراع الاشتراكيات والرأسماليات التي يزج كل منهما الإسلام في أتون معركته مع الآخر يتلقى الإسلام في بلاد المسلمين معظم الضربات ، مع أن الإسلام بريء من الفريقين المتصارعين ، وأي منهما انتصر فالإسلام خاسر .

وإن صح وجود الإسلام في حلبة الصراع هذه فإما أن يكون فريقاً وحده ضد الفريقين معاً ، وإما أن يكون حكماً عدلاً ،يسجل على كل فريق منهما خطأه وصوابه ، ويعمل على أن يرد كل مخطئ منهما إلى وجه الصواب .

وهنا نقول : إن الإسلام الاشتراكي وفق مفهوم الاشتراكيين صورة مزورة للإسلام ، وإن الإسلام الرأسمالي وفق مفهوم الرأسماليين صورة مزورة أيضاً للإسلام ، وإن الإسلام الدكتاتوري وفق مفهوم الدكتاتوريين صورة مزورة للإسلام ، وإن الإسلام الديمقراطي وفق مفهوم الديمقراطيين صورة مزورة أيضاً للإسلام .

أما الإسلام فهو شيء آخر غيرهذا وغير ذلك ، وإن كان بين هذه النظم وبين التعاليم الإسلامية تشابه جزئي .

هذه هي الصور الخمس المنسوبة إلى الإسلام ، وهي مشوبة بالشوائب الدخيلة المفسدة لها ، وقد يحدث أن تجتمع في بعض مفاهيم الناس مجموعة منها ، فيتكاثر الخطأ ، ويعظم الانحراف ، وتزداد المصيبة ، وتشتد الحاجة إلى الإصلاح والتقويم .

(5)
الأسباب وعلاجها

بعض الأسباب التي أدت إلى دخول الشوائب على المفاهيم والتعاليم الإسلامية قد سبقت الإشارة إليها في غضون تتبُّع الشوائب وصورها ، وبطريقة تأملية عامة جامعة تنكشف لنا طائفة من هذه الأسباب .

وأعرض فيما يلي أسباباً عشرة مع طرق علاجها فيما ظهر لي :

*** السبب الأول – الجهل وفتور الهمة عن تفهم التعاليم الإسلامية الصحيحة :**

وعلاج هذا السبب يكون بقيام أهل الرأي وأصحاب الرشد في كل بلد من بلاد المسلمين برسالة التعريف بالإسلام الصافي ، وفق الخطة التي سلف الحديث عنها ، لا سيما في البلاد التي يوجد فيها منتسبون إلى

الإسلام ، ولكن ليس لديهم من يعرّفهم بالإسلام الصحيح ، وهم في شوق إلى معرفته ، وأمثال هؤلاء يسهل على المضلين أن يفسدوا مفاهيمهم الإسلامية .
ولتحقيق هذا العلاج لا بد من تآزر القوى الفكرية والمالية والإدارية مع الدعاة المعرّفين بالإسلام الحق .

*** السبب الثاني – اتباع الهوى :**
وهذا السبب يدفع صاحبه أن يُدخل في التعاليم الإسلامية ما ليس منها ، إرضاء لهواه .

ولقد تكون جريمته أخف إذا هو أرضى هواه عن طريق المعصية ، ولكنه يريد أن تظل سمعته الدينية حسنة بين الناس ، فهو يحاول أن يجد لعمله مبرراً ، فيدخل في التعاليم الإسلامية الشوائب التي ترضي هواه ، ثم يتستر وراءها حذراً من سخط الناس ونقمتهم ، وينسى أو يتناسى أن نقمة الله أشد عليه وأقسى من نقمة الناس .

يضاف إلى ذلك أن نقمة الله في التلاعب بالدين أشد كثيراً من نقمته في المعصية التي يقترفُها العاصي ، وهو يعترف بها .

وعلاج هذا السبب يكون بإصلاح النفس عن طريق إثارة الخوف من الله ، وحسن مراقبته ، وملاحظة الأجر العظيم لأهل طاعته ، مع تربية دينية رصينة ، ورقابة اجتماعية حصينة ، ويكون أيضاً بتبصر المتصدين للفتاوى الدينية بالمزالق التي يضعها أهل الأهواء .

*** السبب الثالث – الغلو في الدين غير الحق:**
وهذا السبب مناقض للذي قبله ، فهو يمثل جانب الإفراط ، في حين أن الذي قبله يمثل جانب التفريط .

والغلو في الدين يفضي إلى تشددُّات منفِّرة ، وتعنُّتات ومبالغات لا يرضاها الدين ولا يقبلها ، بل يتنافى معها ، فالدين يسر سمح ، وهو دين الفطرة ، والغلوّ في الدين ينافي سماحته ويسره ، وينافي ملاءمته للفطرة الإنسانية ، وفي كلام الرسول صلوات الله عليه "هلك المتنطعون" وهم المغالون في الدين .

ومن الغلو في الدين ادعاء أن التفصيلات المبينة في النصوص الإسلامية مشتملة على كل تنظيم ضروري لكل زمن وبيئة ، وطبيعي أن يؤدي هذا الغلو إلى التخلف رغم السبق العظيم الذي كان يتمتع به المسلمون في عصورهم الذهبية .

أما أن الأسس الإسلامية تتسع في مفاهيمها العامة لكل التنظيمات الصالحة لكل زمان وبيئة فهذا هو الحق الذي لا غلو فيه .

*** السـبب الرابـع – النظـر الضـيِّق المحـدود ، الـذي يلازمـه النظر إلى جـوانب خاصـة معينـة مـن الإسـلام ، واعتبارهـا هـي الإسلام كله :**

ومن الطبيعي أن يسيء هذا النظر الضيق المحدود إلى المفاهيم الإسـلامية الشـاملة إسـاءة بالغـة ، ويفضـي إلـى تعظيـم الأمـور الصـغيرة وتهويل شأنها ، وإلى تصغير الأمور الكبيرة وتهوين شأنها .

وعلاج هـذا السـبب يكـون بحركـة تبصـير كلـي شـامل عـام للتعـاليم الإسلامية ، وإعطاء كل حكم منها حقه صفة ومقـداراً وأهميـة بالنسـبة إلـى سائر التعاليم .

ويضاف إلى ذلك ضرورة بيان الخطر الذي ينجم عن انعـدام النظـرة الشاملة إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة .

*** السبب الخامس – الجمود :**

والجمود يفضي إلى تقييد التعاليم الإسلامية في حدود تطبيقات زمن معيـن ، وبيئـة معينـة ، جمـوداً عـن ظـواهر بعـض النصـوص أو التطبيقـات الزمنية ، مع أن أسس التعاليم الإسـلامية واسـعة علـى قـدر اتسـاع قضـايا الحياة ومشكلاتها ، وهي صالحة لكل زمن وبيئة ، وملائمة للفطرة الإنسانية .

وفهم هذه الحقيقة يحتاج إلى نسبة طيبة من التبصر والـوعي والأنـاة وسعة الصدر .

*** السبب السادس – التحلل :**

وهذا السبب يقع في الطرف المباين للسبب السابق وهو مناقض لـه .

والتحلل يفضي إلى الخروج على التعاليم الإسلامية ، أو المروق منهـا وطرحهـا والأخـذ بتنظيمـات وضـعية إنسـانية ، بـدعوى أن بعـض التعـاليم الإسلامية لم تعُد تصلح للحياة المتطورة .

ومن التحلُّل الجزئي المرونة المفرطة المسرفة التي تتسع في نظـر أصحابها اتساعاً يجعل التعاليم الإسلامي ألعوبة في أيدي الماكرين .

وربما يكون كل من الجمـود والتحلـل رد فعـل للآخـر ، إلا أن المنهـج الوسط بينهما هو الحق ، ولهـذا المنهـج الوسـط حـدود لا يصـح تجاوزهـا ولا تضييقها .

*** السبب السابع – الفتنة بكل جديد قبل أن يوضع موضع الاختبار والتجربة ، خلال أمد كاف لهما :**

وهذا السبب يفضي إلى الانسياق الأرعن وراء كل ناعق مزين شعاراته بالأصباغ والألوان والصور الخادعة للنظر ، مع أنها جوفاء من الخير ، ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قِبَله العذاب .

وعلاج هذا السبب يكون بيقظة حذرة ، ودراسة واعية ، أو يكون بعد ذلك بصدمة موقظة ، أو خيبة أمل مخزية .

*** السبب الثامن – التعصب لكل قديم مهما كان شأنه ، ولو كان مخالفاً للحقيقة البينة ، ولأسس التعاليم الإسلامية الصحيحة الصافية :**

وهذا السبب يقابل السبب السابق له ، وهو على النقيض منه .

وعلاج هذا السبب يكون بالرجوع إلى أسس التربية الإسلامية التي تأمر بالاعتصام بالحق ، والبعد عن كل تعصب ذميم .

*** السبب التاسع – الأنانية التي تولّد الإعجاب الشديد بالرأي ، وتولِّد التعصب والفردية في الأعمال ، وتشتت الشمل ،وتفرّق الكلمة:**

مع أن الإسلام يدعو إلى وحدة العمل الجماعي ، واطِّراح الأنانيات الشخصية والحزبية والإقليمية والعرقية والمذهبية والعنصرية ، ويدعو إلى تعاون العاملين الإسلاميين ، وإن اختلفت بينهم الآراء الفردية ، فمصلحة الإسلام وجماعة المسلمين فوق الجميع .

وتعاونهم يكون بأن يتعاونوا فكرياً على فهم الحقيقة ، وبأن يتعاونوا عملياً على مقدار نقاط التلاقي بينهم ، وذلك إذا لم يتيسر ما هو خير منه ، وهو التعاون الفعلي في كل الأمور على البر والتقوى .

*** السبب العاشر – ما يكيده أعداء الإسلام من مكايد ، ويدخل تحت هذا السبب صور كثيرة ، وهي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان وتفصيل:**

وحين نلاحظ أن أعداء الإسلام اختاروا لأنفسهم سبيل الكفر بالله خالقهم ورازقهم يتضح لنا أن كل عمل يمارسونه لتشويه الإسلام إنما هو من ذيول الكفر ، ولكن على المسلمين أن يكونوا بصيرين بدسائس أعدائهم . وبصيرين بالمرابض التي يترصد فيها هؤلاء الأعداء للانقضاض الظالم الآثم على الإسلام والمسلمين .

هذا إجمال ما ظهر لي من أصول عامة للتشويهات التي دخلت على مفاهيم المسلمين عن الإسلام ، وأسبابها الكبرى ، والله أسأل أن يلهم أهل الفكر والغيرة في جميع بلاد المسلمين أن يعملوا على تنقية مفاهيم المسلمين للتعاليم الإسلامية من كل الشوائب الدخيلة على الأصل النقي الصافي ، حتى تصبح هذه التعاليم الصحيحة قوة دافعة إلى المجد العظيم الذي لن يحتله غير المسلمين الآخذين بالإسلام عقيدة وشريعة ، فكراً وعملاً ، كما كانت هذه التعاليم في حقبة سالفة من تاريخ المسلمين .

*   *   *

الفصل الرابع

مقدمة صراع

قد يجد القارئ في فصول
الصراع تكريراً في بعض الأفكار ،
ألجأت إليه ضرورة تقصِّ الناقد ،
ومتابعة أقواله وتزييفاته المتكررة .

(1)

ظهر الناقد (د. العظم) في هذا العصر ، ضمن طائفة من الملاحدة الجدليين الذين ينكرون الله واليوم الآخر ، ويكذبون الرسل والأنبياء ، ويجحدون الكتب الإلهية والمعجزات ، ويرتدون أقنعة العلمانية والبحث العلمي المتقدم ، ويستغلون بالباطل كل ثقل التقدم العلمي المادي في الصناعة والتكنولوجيا ، زاعمين للناشئين من أجيالنا أن التقدم العلمي الحديث يدعم مذهب الإلحاد والكفر بالله . مع أن العلم الحق إنما يدعم الإيمان بالله لا الكفر به ، أياً كان نوع هذا العلم ، أما الباطل الذي يلبس ثياب العلمانية فقد يدعم قضية الإلحاد بالله وبآياته ، لأنه باطل يرتدي ثياب زور ، فهو يؤيد باطلاً مثله ، والباطل ينصر بعضه بعضاً.

لذلك كان لا بد من اللجوء إلى خطة جدال بالتي هي أحسن مع الكافرين والملحدين ، لكشف مغالطاتهم ، وفضح أهدافهم وأهداف سادتهم من نشر الإلحاد في الأرض ، والأكاذيب والمفتريات ، والتلبيس والتدليس ، ولئلا يعيثوا في الأفكار فساداً ، ويلمؤوها ضلالاً وإلحاداً.

أنتركهم يقذفون أجيالنا – أحفاد المؤمنين الصادقين المخلصين – إلى مواقع الهلاك والعذاب والدمار الماحق . وإلى أوحال المهانة والمذلة والخزي!؟

لقد رأيت بعد تردد طويل – كما ذكرت في المقدمات – أنه يجب علي وعلى جميع الباحثين من أنصار الحق والخير والفضيلة أن نكشف زيف هؤلاء المضللين ، وأن نُبرز للمفتونين والمخدوعين وجه الحق مؤيداً بدلائل العلم القويم والمنطق السليم ، وأن نناقش جدليات الملحدين مناقشة عقلانية علمية هادئة ، وأن نجادلهم بالتي هي أحسن ، ثم لا يضرنا بعد ذلك أن يُصروا على كفرهم وإلحادهم ، فالله هو الذي يتولى حسابهم وعذابهم ، أما نحن فما علينا إلا البلاغ المبين .

ورأيت أن من واجبنا أيضاً أن نقيم بينهم وبين أجيالنا سداً منيعاً من المعرفة الرصينة الراسخة بحججها وبراهينها ، حتى لا تنخدع هذه الأجيال بزيف ما يكتبون ، وزخرف ما يقولون ، لا سيما حينما يلبس هؤلاء الملحدون أقنعة العلمانية المزورة ، ويتسترون وراء التقدم العلمي الحديث ، ويستغلون لأنفسهم مظاهر التقدم الصناعي والتكنولوجيا .

مع أن التقدم الصناعي والتكنولوجي لم يكن ولن يكون في الحقيقة ملحداً بالله ، بدليل أن معظم أئمة التقدم الصناعي والتكنولوجي وأئمة العلوم الحديثة مؤمنون بأن لهذا الكون خالقاً يصرِّف أموره بعلمه وقدرته وعنايته وحكمته .

من هـذا الـذي يسـتطيع أن يثبـت حقـاً أن علـوم الفيزيـاء والكيميـاء والطـب ، وعلـوم الرياضـيات والفلـك والأحيـاء والنباتـات ، وعلـوم الـذرة والصواريخ والمركبـات الفضـائية ، علـوم قائمـة علـى أسـس الإلحـاد بـالله والكفر بقدرته وعلمه وعنايته وحكمته؟

هل هذه العلوم تثبت ببراهينها أنه ليس لهذا الكون خالق قادر مدبر؟

إننا إذا وجدنا ملحداً واحداً من علماء هذه العلـوم وجـدنا فـي مقـابله عشرات المؤمنين بالله من كبار هـؤلاء العلمـاء أنفسـهم ، ولـو أن علـومهم قائمة على قاعدة الإلحاد ، أو تشتمل على براهيـن تنفـي وجـود اللـه لكـان الأمر معكوساً تماماً ، ولأظهر لنا هؤلاء العلماء أدلتهـم وبراهينهـم ، ولأثبتـوا لنا ذلك في مكتوباتهم ، بيد أننا نجـد فـي أقـوالهم الكـثيرة مـا يـدعم قضـية الإيمان بالله .

إلا أن حركة يهودية أرادت نشر الإلحاد في الأرض فتسترت بالعلمانية ، ونشطت عناصر منهـا فبثَّـت نظريـات مـن عنـد أنفسـها وضـعت خصيصـاً لدعم قضية الإلحاد ، وكان ذلك ضمن مخطط يهودي شـامل ، لإفسـاد أمـم الأرض بالإلحاد والمادية المفرطة ، والانسلاخ من كـل الضـوابط التشـريعية والأخلاقية كيمـا تهـدِّم هـذه الأمـم أنفسـها بأنفسـها ، وعندئـذ يخلـو الجـو – بحسب تصورهم – لليهود قلة في العالم ، ومتى خلا لهم الجـو اسـتطاعوا – كما يزعمون – أن يحكموا العالم كله حكماً مباشراً ظاهراً .

علمـاً بـأن هـؤلاء اليهـود الـذين تسـتروا بالعلمانيـة والبحـث العلمـي المحايد لم يقدِّموا نظريات تدعم قضية الإلحاد في العـوم البحتـة الخاضـعة للاختبار والتجربة وتقويم النتائج ؛ وإنمـا قـدموا نظريـات أو فرضـيات علـى الأصل في العلوم الإنسانية ذات الاحتمالات الكثيرة ، غير الخاضعة للاختبـار والتجربة وتقويم النتائج ، وضمن نظرياتهم التي قدموها فـي علـوم النفـس والاجتمـاع والسياسـة والاقتصـاد وفلسـفة النشـوء والارتقـاء دسـوا قضـية الإلحاد والكفر بالله ، تحقيقاً للمخطط اليهودي الشامل .

وهذا يوضح لنا أن قضية الإلحاد بالله قضـية سياسـية عالميـة ، تخـدم مصالح خاصة لفئات معينة من الناس ، وهذه الفئات تجند الذين يسـتجيبون لدعوتها ، ثم تقدمهم وقوداً لدعم سياستها وخدمة مخططاتها .

هذه فـي هـذا العصـر هـي حقيقـة المـذهب الإلحـادي المنظـم الـذي تدعمه قوى سياسية ذات ثقل في العالم ، أمـا الإلحـاد الفـردي الـذي تـدفع إليه دوافـع إجراميـة فجوريـة خاصـة فهـو موجـود فـي كـل عصـر ، وكـذلك نظرات الشك التي قد يتعرض إليها الإنسان في بعـض مراحـل مـن حيـاته ، هي أيضاً ذات طابع فردي غير منظم ولا مدعوم ، وليس لهـا قـوى جماعيـة كبيرة تنصرها وتنشرها وتدعو الناس إليهـا ، لأن نظـرات الشـك فـي قضـية الإيمان لا تحمل أصحابها قضية ذات رسالة تبشيرية ، ولا تسـتطيع هـي فـي نفسها أن تجد أدلة تدعم قضية الإلحـاد والكفـر بـالله ، وبـذلك تبقـى قضـية

الإلحاد قضية ساكنة صامتة في نفوس أصحابها ، لا دوافع تحركها ولا دلائل تدعمها .

بخلاف قضية الإيمان فإن وراءها دوافع تدفعها إلى الحركة والنماء والانتشار والبيان المستمر ، ومعها مئات الأدلة التي تدعمها ، وإن نظر إليها بعض الناس بشك في بعض مراحل حياتهم .

إن المؤمنين بالله لهم أدلة لا تحصى على ما آمنوا به ، وكل باحث منهم يتكشف له في موضوع اختصاصه طائفة من هذه الأدلة ، وهي تقدم له القناعة الكافية بأن الله حق .

أم الملحدون فليس لهم أدلة يمكن أن يعتمدوا عليها في نفس وجود الخالق جل وعلا ، إلا مجرد الارتباط بالمادة المدرَكَة بالحواس الإنسانية ، أو بالأجهزة التي توصل إليها الإنسان في القرن العشرين ، وهذا لا يستطيع أن يقدم أي دليل على النفي .

(2)

نحن نعلم أنه لا خوف على الحقائق الدينية الإسلامية من جدليات الملحدين ، لأنهم يجادلون بالباطل ليُدحضوا به الحق ، ولكن قد تؤثر جدلياتهم المشحونة بالتزييف على الناشئين المطبوعين بطابع الثقافات الحديثة ، الموجهة شطر مبادئ ومذاهب معينة ، وضعت خصيصاً لمحاربة الدين وهدم مبادئه الحقة .

وليس جدالهم بالباطل بدعاً في تاريخ المبطلين ، بل هي طريقة كل أهل الباطل ، ومن إبليس قائدهم إلى آخر جندي من جنوده ، وأصغر تابع من أتباعه ، كل منهم سائر على سُبُله ومتبع لخطواته .

وقد وصف الله الكافرين عموماً بأنهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، فقال تبارك وتعالى في سورة (الكهف/18 مصحف/69 نزول):

{..وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُواْ هُزُواً}.

وهي طريقة لا سبيل لهم سواها ، ليؤيدوا أفكارهم ومذاهبهم ، وينصروا باطلهم ، ويُدحضوا الحق ، ما داموا قد التزموا في أفكارهم ومذاهبهم جانب الباطل ، وأصروا بعناد على رفض جانب الحق .

ولما انغمسوا بكفرهم في رذيلة خلقية خطيرة هي رذيلة جحود الحق ، كان لا غرو أن تجرهم هذه الرذيلة إلى رذائل خلقية أخرى ، منها أن يجادلوا بالباطل ، ويستخدموا كل ذكائهم في تزييف الحق ، ويقوم تزييفهم على اصطناع هياكل وهمية لمذاهبهم ، وهياكل وهمية لمذاهب خصومهم ،

ثم يحملون حملاته الهجومية على هذه الهياكل التي اصطنعوها لمخالفيهم ، وعندئذ يسهل عليهم تحطيمها بسرعة ، لأنهم هم الذين اصطنعوا بأنفسهم ،ووضعوا فيها نقاط الضعف التي يسهل عليهم تهديمها من قبلها .

وقد يحاربون الدين كله من خلال رأي ضعيف قاله بعض الناس المنتسبين إلى الدين .

أو يحاربون الأديان كلها صحيحها وباطلها ، من خلال ما في بعضها من تحريف عن الأصل الرباني ، أو من خلال الأديان الباطلة التي تحمل اسم دين ، وهي في الحقيقة أوضاع إنسانية مخترعة ، وليست ديناً إلهياً .

وهذه الطريقة قد استخدمها الناقد (د. العظم) أقبح استخدام فيما زعم أنه نقدٌ للفكر الديني ، قال في الصفحة (21) من كتابه "نقد الفكر الديني":

"يجب ألا يغيب عن بالنا أنه مرت على أوروبا فترة تتجاوز القرنين ونصف القرن قبل أن يتمكن العلم من الانتصار انتصاراً حاسماً في حربه الطويلة ضد العقلية الدينية التي كانت سائدة في تلك القارة ، وقبل أن يثبت نفسه تثبيتاً نهائياً في تراثها الحضاري . ولا يزال العلم يحارب معركة مماثلة في معظم البلدان النامية ، بما فيها الوطن العربي ، علماً بأنها معركة تدور رحاها في الخفاء ولا تظهر معالمه ا للجميع إلا بين الفينة والأخرى ".

فهو في هذا يحشر الأديان كلها صحيحها وباطلها ويعتبرها جبهة واحدة ضد العلم ،ثم يوجه طعناته ضد ما في بعضها من باطل ، ثم يستنتج من ذلك أنها جميعاً أديان باطلة ، باعتبارها جبهة دينية واحدة ، وقد وجد بعضها باطلاً ، أو وجد في بعضها ما هو باطل .

فهل يقبل مثل هذه الحجة الساقطة من لديه أبسط قواعد الاحتجاج المنطقي ، التي تعرفها الأوليات الفكرية؟ إنها حجة مرفوضة بداهة شكلاً ومضموناً ، وحينما يعتبرها الملحد طريقة منطقية كافية للاحتجاج فإننا نستطيع أن نستخدمها سلاحاً ضد اتجاهه الذي يزعم أنه اتجاه علماني ، فنقول له : إن أصحاب الاتجاه العلماني جبهة واحدة ، ومن المعروف أن لهم مذاهب شتى متناقضة في معظم القضايا التي بحثوها وفق أصول البحث العملي الذي توصل إليه العلماء ، وفي كثير منها نظريات باطلة ، إذن فالاتجاه العلماني كله باطل .

مما لا شك فيه أننا لا نقبل هذا الكلام لأنفسنا ، ولكننا نكشف به فساد حجة الملحد الناقد للفكر الديني ، إذ نستخدم سلاحه ضد اتجاهه ، ونحن نرفض مثل هذا الاحتجاج أصلاً.

وصنيع الملحد في هذا تزييف مفضوح للحقيقة ، وتلاعب شائن في العمليات الفكرية ، واستهانة شنيعة بالمنطق الفكري لأجيالنا الناشئة من

مثقفي هذا العصر ، فهل بلغ بهم الأمر أن تنطلي عليهم مثل هذه الحيلة من حيل التزييف الفكري ، حتى بدأ الملاحدة يستخدمونها في تضليلهم؟ أم فقد الملاحدة صوابهم حتى أخذوا يحتجون بما ليس فيه حجة ولا شبه حجة؟ إذ أفلست قواهم المادية في فرض مذاهبهم على الطلائع المثقفة في العالم الإسلامي ، لا سيما حينما وجدوا في هذه الطلائع المثقفة جماهير مؤمنة بالله ، تنصر الإسلام وتعمل له ،وتلتزم بأحكامه وتعاليمه .

ولعل الأمرين موجودين معاً ، فبعض أجيالنا الناشئة الموجهة ضمن البرنامج الإلحادي قد أمست مرجوجة الأصول الفكرية ، تخدعها الحيل المصبوغة بصبغ الثقافات المعادية للدين ، والمقنعة بقناع العلمانية الأكاديمية ، والمحاطة بهالة مزخرفة من العبارات التي احتلت مركزاً ارستقراطياً بين المجتمعات المثقفة ، على الرغم من أنها عبارات جوفاء ليس لها إلا طنين يخدع صغار العقول ، وبعض أجيالنا الناشئة المثقفة هي – بحمد الله – مؤمنة بالله مسلمة حقاً ، ذات منطق علمي سليم ، تعرف الحق ، وتناقش بالحق ، وتجادل بالحق ، وتناصر الحق حيث وجدته .

وأرجو أن لا يغيب عن بال سيادة (د.العظم) ومن هم على شاكلته أن كل اتجاه عام في الواقع الإنساني يوجد فيه فئات مختلفة ، ويوجد فيه أفكار متباينة ، فهل يعني وجود هذا الاختلاف بطلان الاتجاه العام من أساسه؟ أم واجب العاقل المنصف التمييز بين المحقين والمبطلين ، وبين الحق والباطل .

إن دين الله للناس دين واحد ، وهو دين الحق الذي اصطفاه لعباده ، وأنزله على رسله بحسب حاجات الأمم ، التي اقتضت أن ينزل إليها متدرجاً على طريقة التكامل ، وكان ختم هذا الدين بصورته الكاملة التامة في رسالة الإسلام الذي اصطفى الله لحمله للناس محمداً عليه الصلاة والسلام .

إلا أن الأديان الأولى لم يتوافر لها النقل الصحيح ، ودخل إليها عن طريق بعض أتباعها التحريف والتغيير في النصوص وفي العقائد ، فجعلها غير ممثلة للدين الحق ، غذ دخل إليها كثير من الباطل ، كما أن أدياناً حملت هذا الإسلام وهي صناعة بشرية غير ربانية ، أفتحشر هذه الأديان كلها بما فيها من حق وباطل ثم يصدر بحقها جميعاً أحكام تتناسب م ا في بعضها من باطل ، أو أحكام تناسب ما في بعضها من حق؟؟

هكذا كان عمل (د. العظم) لدعم مذهب الإلحاد بالله وجحود اليوم الآخر .

(3)

ببالغ من التزييف الوقح بدأ الملحدون من أجراء صانعي الهزيمة العربية في عام 1967م يحمِّلون الدين وزور الهزيمة التي اصطنعوها ، وكانوا قبل المعركة وفي أثنائها قد عزلوا الدين عزلاً كلياً عن جميع

ساحاتها ، حتى لم يبق له صوت ولا سوط يرتفعان ، ثم يقولون : إن سبب الهزيمة هو وجود رواسب من الذهنيات الدينية الغيبية الاتكالية عند الثوريين الذين قادوا المعركة .

وكل عارف بالحقيقة يعلم أن معركتهم لم تكن ضد العدو الباغي ، إن معركتهم معه لم تكن إلا معركة صورية أو شبه صورية ، أما معركتهم الحقيقة فقد كانت ضد الدين الذي يتابع كتابهم اليوم محاربته بالتزييف والتضليل ، بعد أن حاربوا دعاته بالتعذيب والتنكيل حرباً لا هوادة فيها .

لقد أفلست عمليات الاضطهاد في تحقيق كل ما يهدفون إليه ، فلجؤوا إلى أسلحة التضليل الفكري .

مما لا شك فيه أن معركة الإسلام مع الملاحدة العالميين الذين يتحركون بدفع آلي من القيادات اليهودية العالمية ذات مراحل ، كلما أنجزوا في تصورهم مرحلة منها انتقلوا إلى مرحلة أخرى .

لقد كانت معركتهم الأولى تهدف إلى إقامة الثورة الاقتصادية والاجتماعية كمرحلة أولى ، مع التزييف الفكري بعدم معارضتها للدين ، بغية تضليل الجماهير المسلمة بأن تغييراتها الاقتصادية والاجتماعية لا تمس جوهر العقائد الدينية التي تؤمن بها هذه الجماهير ، تخديراً لها وتبريداً لمشاعر النقمة التي قد تلتهب ضد ثورتهم ، وحين انتهت فيتصورهم هذه المرحلة وبلغت مداها المرسوم لها أخذوا يحضرون للمرحلة الجديدة ،وهي مرحلة نسف العقائد الدينية التي ظلت راسخة في قلوب كثرة كاثرة من الجماهير العربية ، بغية تغيير الإنسان العربي تغييراً كلياً ، حتى في مفاهيمه وعقائده وعواطفه القومية والتاريخية ، وسائر مشاعره ، وعندئذ يستطيع العدو المحرك من وراء الستار تطويعه وتسخيره واستعباده .

وهذا يفسر حملة مكتوبات الملحدين الجديدة ، التي تهدف إلى تحضير النفوس والأفكار للمرحلة الآتية من مراحل الحرب المستمرة .

قال الناقد (العظم) في كتابه في الصفحة (12):

"ولكن الواقع هو أن حركة التحرر العربي غيرت بعض ظروف الإنسان العربي الاقتصادية والاجتماعية ، ثم وضعت في نفس الوقت كافة العراقيل والموانع الممكنة في وجه حدوث أية تغييرات وتطورات موازية في ضمير الإنسان العربي وعقله ، وفي "نظرته للذات والحياة والعالم" ...".

ثم ذكر أن حركة التحرر العربي قد وقفت على رأسها بدلاً من قدميها فقال :

"عبَّرت هذه الوقفة (على الرأس بدلاً من القدمين) عن نفسها في السياسات الثقافية التي اتبعتها حركة التحرر العربي ، كما في أسلوب اهتمامها السطحي والمحافظ جداً بالتراث والتقاليد والقيم والفكر الديني ، مما أدى إلى عرقلة التغييرات المرجوة في الإنسان العربي نفسه ، وفي نظرته إلى الذات والحياة والعالم ، تحت ستار حماية تقاليد الشعب وقيمه وفنِّه ودينه وأخلاقه ، تحوَّل الجهد الثقافي لحركة التحرر إلى صيانة للأيديولوجية الغيبية ، بمؤسساتها المتخلفة ، وثقافتها النابعة من العصور الوسطى ، وفكرها القائم على تزييف الواقع وحقائقه".

أقل متأمل في هذا الكلام وأشباهه يتبين له أنه إرهاص واضح بمرحلة جديدة من مراحل الحرب اليهودية الماركسية العالمية ، ضد الإسلام داخل الوطن العربي ، لتحطيم الرصيد الباقي من أمل هذه الأمة في إمكان ظفرها على عدوها ، إذا هي استطاعت أن تتحرر من القيود ، وتستخدم ما لديها من طاقات محركة ، تصلها بدينها وأخلاقها وقيمها .

إنهم يمهدون بهذا للثورة الثقافية الفكرية التي تريد اقتلاع كل تراث مجيد للمسلمين ، حتى لا يبقى لهم أي أمل بالظفر على عدوهم ، وحتى لا يبقى لديهم أي نزوع لاستعادة مركزهم القيادي في العالم .

ومما يؤسف له أن العدو القابع وراء الحجب قد استطاع أن يشتري من سلالات هذه الأمة جنوداً مغفلين ، يدفع بهم إلى صف المواجهة ، ويحملهم الأسلحة الفتاكة ضد أمتهم وأقوامهم وأمجادهم ، وأخيراً ضد أنفسهم ، لأن العدو سيتخلص منهم متى استنفد طاقاتهم ، وصاروا في نظره كالثور الذي يأكل كثيراً ، وهو لا يحرث أرضاً ، ولا يسقي زرعاً ، ولا يدفع كيداً ولا يدرّ بِلَبن .

وماذا ترجو الأمة ممن باع نفسه لعدوه وعدوها ، ورضي بأن يكون سلاحاً نجساً مصلتاً عليها في أيدي الخنازير؟!

وحين نتساءل : كيف استطاع العدو أن يشتري هؤلاء الجنود ، وأن يسرقهم من أحضان أمتهم ، ليسخرهم هذا التسخير الخبيث الذي لا يرضى به الهمجيون البدائيون ، فضلاً عن المثقفين الذين يدعون التقدمية ، ويلقبون أنفسهم بالطلائع المتحررة؟

فإن الجواب يأتينا من الواقع بأن العملة التي يشتري بها العدو شباباً من أجيالنا الناشئة . ثم يجندهم في صف المواجهة ضدنا ، هي عملة تبذل للأهواء والشهوات بغير حساب ، أما مادتها فالمرأة الفاجرة ، والشهوة العاهرة ، والخمرة المضلة ، والرشوة المذلة ، ومطامع المال والسلطان ، وأحياناً أوراق مجد علمي تُمنح على صفة شهادات عليا ، ويجري ضمن ذلك كله عمليات تغيير كلي لجهاز التفكير ، وتغيير كلي في المختزنات العاطفية ، وتبديل تام أو ناقص لعناصر الكيان الذاتي التي هي قوام الشخصية .

وبعد هذا التغيير والتبديل تتم عملية التجنيد الطوعي ، أو التجنيد المسوق بالسلاسل ، والمدفوع بالسياط اللاهبة ، خوف الحرمان والفضيحة ، وأخيراً خوف القتل بأي سبب ظاهر أو خفي .

وما التقدم والعقلانيات والبحث العلمي والنظرة الأكاديمية إلا ألفاظ وشعارات تستعمل في الأقوال فقط ، وليس لمدلولاتها الحقيقية واقع معتبر لديهم .

تزييف في الألفاظ ،تزييف في الحقائق ، تزييف في المعارف ، تزييف في الرجال ، تزييف في المؤسسات الصغرى والكبرى ، تزييف في الدول وتكوين الأمم والشعوب ، هذه هي خطتهم .

وغرضهم الحقيقي تدمير الأمة الإسلامية وفي مقدمتها الشعوب العربية تدميراً يشمل ما يسمونه في مصطلحاتهم : "البنية الفوقية – البنية التحتية – الأصعدة العليا – الشرائح الوسطى ، والجانبية والعلوية والسفلية" إلى آخر هذه المصطلحات الإيهامية ، التي يقذفونها للتغطية حيناً ، وللتهويل حيناً آخر ، وللتظاهر بارتقاء المستوى الفكري أمام الذين لم تتجاوز عقولهم طور مراهقتها ، بغية السيطرة الفكرية عليهم ، وتقييدهم بمصطلحات يتميزون بها ، ويدسون في المراد منها ما شاءوا .

وجملة هذه المصطلحات تدور حول عقائد المسلمين ومفاهيمهم الإسلامية والأخلاقية والاجتماعية ، وحول مستويات المجتمع الإسلامي على اختلافها ، فهم يشرحونه إلى شرائح وفق مخططهم ، ويوجهون لكل شريحة وسائل تدميرها ، ويركزون معظم طاقاتهم لتدمير العقائد والمفاهيم والأخلاق وسائر القيم والتطبيقات الإسلامية ، ومراكز حماية كل هذه الأثقال التي تقف في طريق تسلطهم الكامل على الأمة الإسلامية وشعوبها المختلفة .

وانطلت حيلة التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي لا تتعارض مع الدين ولا تمس عقائده ومفاهيمه الأساسية كما زعم أجراؤهم والمنخدعون بهم .

وتجند لمؤازرتها ومناصرتها فريق الطامعين ، وسارت من ورائهم جماهير العمال والفلاحين وصغار الكسبة ، وقادة المسير صنائع وأجراء من طبقة القيادات المثقفة ، الذين استطاعوا أن يشتروهم أو يغرروا بهم ، إذ وجدوا في نفوسهم مواطن ضعف نؤهلهم لهذه العمالة .

وقامت الثورة ، ورافق إقامتها حملة عنيفة من ضجيج الوعود الكبيرة بتحقيق النصر المنشود ، وسارت وفق المخطط الذي رسم لها ، وفي الوقت المناسب سيقت إلى خيبة كبرى حملت آلام نتائجها الأمة العربية والأمة الإسلامية من ورائها .

وأزيح الستار عن الفصل الأول من التمثيلية ، وطلع الملحد العميل يقول : إن الهزيمة قد كانت بسبب وجود رواسب من الذهنية الدينية لدى القيادات الثورية في حركة التحرر العربي ، وبسبب عدم التغيير الشامل في تركيب المجتمع كله ، لأن التغيير الاقتصادي والاجتماعي لا يكفي لتحقيق النصر ، بل لا بد من تغيير يشمل المبادئ والعقائد والتقاليد وسائر المواريث القائمة في المجتمع العربي .

هلمَّ إذن إلى هذا التغيير ، لتفقد الأمة العربية كل كيانها وكل مقوماتها ، وعندئذ تسقط سقوطاً كاملاً في يد عدوها ، الذي يستعبدها ويسخرها فيما يريد .

وهذا هو ما يهدف إليه العدو في خطته ضمن حربه الشاملة للإسلام والمسلمين .

وجاءت حرب رمضان (تشرين أول- أكتوبر) في عام 1973م فأظهرت للناس جميعاً أن الإسلام لما دخل في المعركة دخولاً اسمياً وبصورة جزئية ظهرت في الأمة العربية بطولات حقيقية لم يكن لها وجود مطلقاً في حرب (حزيران-يونية) عام 1967م ،وكان من نتيجتها تحول جزئي لصالح الأمة العربية ، وكان في هذا تكذيب واقعي لمفتريات الملحد الماركسي العميل .

وقد يبدو عجيباً أن يوجه هؤلاء الملاحدة الماركسيون انتقادهم لحركة التحرر العربي وقياداتها الثورية ، إذ لم تقم بتغيير شامل في مجال سلطانهم ، يتناول كل إرث الأمة العربية ، من عقائد ومبادئ وأخلاق وعادات ومفاهيم ومشاعر نحو أمجادهم وتاريخهم .

ولكن هذا العجب ينتهي تماماً حين نعلم أن المخططات المرحلية للحروب الحديثة التي يحركها أساطين المكر العالميون لا تهتم بالأشخاص ولا بالمنظمات .

إن الأشخاص والمنظمات وسائر الأدوات المرحلية هي بمثابة جسور توضع لتنسف متى تم العبور عليها ، حتى لا يعود عائد عن طريقها إلى المنطلق الأول ، وكل من يقدم نفسه جسراً لها من أشخاص أو منظمات فليعلم أنه سينسف بدداً متى استنفد الماكرون أغراضهم ومنه ، وعندئذ لا يجد عاطفة تحنو عليه ، ولا وفاء يستقبله .

وكل لاحق من هذه الجسور المرحلية لا بد أن يؤدي وظيفة تهديم من سبقه وانتقاد أعماله ، ليقدم تبريراً لمرحلته الجديدة ، وليمحو من الأذهان ما ترسب فيها من مفاهيم كان يقدمها السابق .

وكل ذلك في ترتيب الخطة العامة أزياء فكرية مرحلية ، يجب تغييرها لدى تنفيذ المرحلة التالية ، إلا أنها تمهيد ضروري لها .

وليس لها منا مجرد تحليلات ذهنية ، وتقديرات خيالية ، بـل مكتوبـات العدو السرية تنص عليه بصراحة لا تقبل التأويل .

مسكينة هذه الجسور البشرية كيف تقدم خدماتها الجلي للشياطين ، لتقدم أنفسها فيما بعد ضحايا لهم ، وليس لهـا منهـم عـبر الرحلـة القاسـية الشـاقة إلا الإباحيـات المختلفـات ، والمواعيـد الكاذبـات ، وأنـواع مـن المساعدات للتسلط على أمتهم في الأدوار المرحلية .

ولتحويـل الأنظـار عـن العـدو الحقيقـي بـدأ الملاحـدة الماركسـيون يهونون من أمر مكايد الاستعمار ، ومكايد الصهيونية العالمية ، ويوجهون كل اهتمامهم لميراث الأمة العربيـة مـن قيـم وأخلاق ومبـادئ وعقائـد وعـادات وتقاليـد ومفـاهيم ، ويحملـون هـذا الميـراث وزر تخلـف هـذه الأمـة ، ووزر الهزيمة العسكية التي صنعتها التقدمية العربية بأيديها ، سيراً مـع المخطـط المرسوم لها .
ومع أن الماركسيين كانوا مع الذين حملوا شعارات محاربة الاستعمار في الوطن العربي ، إلا أن ذلـك قـد كـان منهـم خطـة مرحليـة ، أمـا اليـوم فالصهيونية العالمية ليست عـدوة لهـم ، إن عـدوهم الأكـبر عقائـد الإسـلام ومبادئه ، ومفاهيمه وتشريعاته ، وما له من رصيد كبير في الجماهير العربية ، لأن هذه هي العدو الأكبر لليهودية العالمية ، ومن يسير في ركابها أو يتـأثر بدسائسها .

قال الناقد (د. العظم) في كتابه "نقد الفكر الـديني" فـي الصـفحة (13):
"قامت حركة التحرر بتجريد العلاقـة الاسـتعمارية فـي حيـاة الـوطن العربـي عـن جملـة الظـروف التاريخيـة ، والأوضـاع الاجتماعيـة العربيـة المتشابكة معها ، والمحيطة بها إلى درجة جعلـت "الاسـتعمار" يبـدو وكـأنه الحقيقـة المباشـرة الوحيـدة الماثلـة فـي مجـرى الأحـداث فـي المنطقـة والمحركة لها . أي : كان هناك اختلال أساسي في التـوازن بالنسـبة لنظـرة حركة التحرر إلى نفسها وواقع مجتمعهـا ، وإلـى أعـدائها والعـالم الخـارجي المحيط بها ، بصورة عامة . بالغت عملية التجريد هذه في تبسـيطها للواقـع التاريخي المعقد ، مما جعل (الاستعمار) – أحياناً الصهيونية العالمية – يبـدو وكأنه القوة الوحيدة المتحكمة ، بصـورة مباشـرة أو غيـر مباشـرة ، بحركـة المجتمع العربي ، وبالبيئة التي تثير ردود فعلـه . أدى هـذا القصـور إلـى مـا يشبه الإهمال التام لأوضاع القوى والمؤسسـات والتنظيمـات والمجهـودات الذهنيـة الموجـودة دومـاً فـي الـتركيب الاجتمـاعي (العربـي) والفاعلـة باستمرار في حياته ، والمهمة أيضاً ف ي تحديـد ردود فعلـه وأنمـاط سـلوكه الجماعية والفردية . إن الوجه الآخر لعملة تجريد العلاقة الاسـتعمارية علـى هذا النحو هـو التعصـب للـوهم المثـالي الكـبير القائـل: بـأن الأيـديولوجيات الغيبية والفكر الـديني الـواعي الـذي تفـرزه مـع مـا يلتـف حولهـا مـن قيـم وعادات وتقاليـد ... إلـخ هـي حصـيلة للـروح العربيـة الخالصـة الثابتـة عـبر العصور ، وليست أبداً تعبير عن أوضاع اقتصادية متحولة ، أو قوى اجتماعية

صاعدة تارة ونازلة تارة أخرى ، أو بنيات طبقية خاضعة للتحول التاريخية المستمر ، ولا تتمتع إلا بثبات نسبي".

ألا يمثل هذا الكلام وقاحة بالغة النهاية ، لا يفعلها إلا أجير ذليل باع نفسه للصهيونية العالمية عن طريق الإلحاد الماركسي؟!

ولا يشك خبير بحقائق الأمور أن سبب تخلف العالم العربي هو هجره لمفاهيم الإسلام الصحيحة المتقدمة جداً ، ثم تعلقه بوافدات تفد إليه من أعدائه ، الذين يخشون أن يصحو من نومه العميق ، ويستمسك من جديد بإسلامه ، ويثب وثباته المدهشة ، ويحتل قيادة العالم مرة ثانية .

أما الوافدات الوبائية التي تفد إلى بلاد المسلمين من خارج حدودهم فالذين يحملونها بأمانة تامة للعدو وخيانة تامة لأمتهم وتاريخهم معروفون تماماً ، وأقوالهم وأعمالهم تدل عليهم ،ولئن اختفوا حيناً فلا بد أن يظهروا بعد حين .

(4)

يقول الناقد (د. العظم) في الصفحة (9) من كتابه:

"تبيَّن أيضاً بعد هزيمة (1967م) أن الأيديولوجية الدينية على مستوييها الواعي والعفوي . هي السلاح (النظري) الأساسي والصريح بيد الرجعية العربية في حربها المفتوحة ، ومناوراتها الخفية على القوى الثورية والتقدمية في الوطن".

ويقول أيضاً:
"يلعب الفكر الديني دور السلاح (النظري) المذكور عن طريق تزييف الواقع وتزوير الوعي لحقائقها : تزييف حقيقة العلاقة بين الدين الإسلامي – مثلاً – والعلم الحديث . تزييف حقيقة العلامة بين الدين والنظام السياسي مهما كان نوعه ".

إنه في هذا يخص الإسلام بالذكر إعلاناً عن غرضه الذي يهدف فيه إلى تهديم الإسلام وإطفاء نوره ، عن طريق التهجم الصريح المقرون بالشتائم التي يطلقها زوراً وبهتاناً على الدين .

ونحن لا ننتظر منه ومن كل الملحدين وسائر أعداء الإسلام غير هذا ، فهم يتميزون غيظاً منه كل يوم ألف مرة ، لأنه حق قوي كاشف لزيف المبطلين ، وكما يقول هذا الكاتب نفسه في أول كلامه في المقدمة عن الفكر الديني :

"من نافل القول أن هذا النوع من الفكر يسيطر إلى حد بعيد على الحياة العقلية والشعورية للإنسان العربي ، إن كان ذلك بصورة صريحة وجلية ، أو بصورة ضمنية لا واعية".

وقبل أن نفند أقواله عن الدين وعن الفكر الديني الصحيح غير المزيف ، وأمام حملات الكذب والشتائم الوقحة ، نقول ما قال الله تعالى في سورة (التوبة/9 مصحف/113 نزول):
{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ}.

أي : يريدون مرادات كثيرة ، ويتخذون أسباباً متعددة ، ليطفئوا نور الله العظيم بأفواههم ، بأكاذيبهم وشتائمهم وأباطيلهم وافتراءاتهم ومغالطاتهم ونظرياتهم العلمية الباطلة ، والله مُتم نورِه رغم كل محاولاتهم الفاشلة ، ولو كرهوا ذلك وتميزوا منه غيظاً .

أما ادعاؤه "بأن الفكر الديني يلعب دور السلاح (النظري) عن طريق تزييف الواقع ، وتزوير الوعي لحقائقه" ، فمجرد شتائم يطلقها تعبيراً منه ومن رفاقه وسادتهم المديرين لحركاتهم عن مدى غيظهم من الإسلام ، وعن مبلغ حقدهم عليه ، وعلى المسلمين الملتزمين بإسلامهم .

وأنت خبير أن الشتائم ليس لها في ميادين الجدل المنطقي مقام . فمن قلت له : أنا موجود هنا أخاطبك ، هلُمَّ فناظرني ، فقال لك : هذا تزييف للواقع ، أنت مزور للحقيقة كاذب ، تريد أن تضللني وتزور وعيي ، أنت وهم ، أنت خيال ، أنت ليست شيئاً حقيقياً ، فمباذا ترد عليه؟ وبماذا تجيبه؟

لا جواب له عند العقلاء إلا الإعراض عنه ، أما الدخول معه في حرب الشتائم فصناعة الغوغائيين ، لا صناعة الجدليين المفكرين الذين ينشدون الحق .

وهذا هو سبيلنا مع أي عدو من أعداء الإسلام ، أعداء الحق ، حينما يوجه له شتيمة : "تزييف الواقع وتزوير الوعي لحقائقه" دون أن يقدم براهين صحيحة تثبت دعواه .

ولكنه حينما يقدم ما يراه دليلاً وحجة فإننا لا نسكت عن مناقشتها ونقضها وبيان المغالطات فيها .

وأما ادعاؤه : "أن الدين هو السلاح النظري الأساسي والصريح بيد الرجعية العربية ، في حربها المفتوحة ومناوراتها الخفية على القوى الثورية والتقدمية في الوطن".

فلا شأن للإسلام حقيقة في هذا ، والحق قد يتستر به المبطِلون من كل جانب ، ولا يضير الطود المنيع أن يتستر في ظله من الواديَين فريقان متصارعان متضادان في مذاهبهما .

أما التقدمية والرجعية والثورية وغير الثورية فألفاظ يطلقونها بأفواههم وفق أهوائهم .

لقد استخدموا الإباحية الفكرية واللفظية أسوأ استخدام ، فقد يطلقون عبارة التقدمية على أقبح الرجعيات الفكرية والسلوكية ، فالقتل والسحق والتمثيل بالقتلى والتشويه والتعذيب الذي لا يخطر على بال كبار المجرمين ، والسلب والنهب وهتك الأعراض ، وكل الموبقات تقدمية ، مع أنها غاية في الهمجية الممعنة في الرجعية التاريخية ، التي ترجع إلى الوحشية البهمية ، وتجرُّع قوارير (الفودكا) حتى الارتماء على قمامات الشوارع هي في نظرهم تقدمية ، مع أنها في الحقيقة رجعية إلى ما دون مستوى البهائم وأضل سبيلاً ، والكفر بالله والإلحاد به تقدمية في نظرهم ، مع أن الكفر بالله من رجعيات القرون الأولى . أما الصدق والأمانة والمحبة الإنسانية والإخاء وحسن المعاملة وسائر مكارم الأخلاق وفضائل السلوك فهي في نظرهم وتسمياتهم رجعيات ، وهي أمور سخيفة يجب تركها والاستهانة بها .

أليس هذا التلاعب بالحقائق تنفيذاً للمخطط اليهودي الشامل ، الذي يعمل على تجريد الأمة الإسلامية من كل قواها المقوّمة لكيانها ، حتى تفقد كل مقاومة ضد عدوها ، وتستلم لها استسلاماً كاملاً على ذل وضعة وعبودية؟

وهؤلاء الملاحدة هم من أخطر جنود تنفيذ هذه الخطة اليهودية العامة ، ولا ضيرإذن أن يكون الإسلام سلاحاً ضدهم لأنهم أعداؤه ، وهم ومبادئهم وأفكارهم ومخططاتهم أسلحة فتاكة مسلطة ضد الإسلام ومبادئه وعقائده وتشريعاته والمؤمنين به .

وفي كلام الماركسيين عن الرجعة العربية مغالطة قائمة على التعميم ، فحينما يطلقون عبارتي الرجعية والرجعيين فإنهم يقصدون الإسلام والمسلمين ودعاته وحماته ، ويقصدون أيضاً سائر الأنظمة العالمية المخالفة للنظام الماركسي ، وحماة هذه الأنظمة والمستفيدين منها ، وفي ضمن هذا التعميم المقصود يقذفون مغالطاتهم ، إذ يوهمون بأن الإسلام في نظرياته ومفاهيمه وتشريعاته يدعم النظام الرأسمالي مثلاً ، أو يدعم أنظمة الحكم الدكتاتورية ، مع أن موقف الإسلام من الأنظمة الرأسمالية المخالفة له مثل موقفه من الأنظمة الماركسية ، يخالف هذه وتلك ، ويقاوم هذه وتلك ،ولا يدعم هذه ولا تلك ، إن الإسلام نظام غيرهما جميعاً .

هذه هي حقيقة الإسلام التي تشتمل عليها نصوصه ، ويعترف بها المسلمون الصادقون ، ولكن ما نصنع بالذين يستغلون اسم الإسلام لنصرة مذاهبهم التي تخالف الإسلام وهو لا يعترف بها؟

هذا عيب في الناس وليس عيباً في الدين نفسه ، ونفاق الناس للمذاهب والأنظمة ، وتسترهم بها ، واحتماؤهم بقواها ، موجود في كل موقع فكري أو جماعي ، ولا يمكن أن يدفعه إلا نظام صحيح ثابت ، له في الأرض قوة تحمي مبادئه بحق ، وتكشف باستمرار المزيفين الذين يستخدمون اسمه وقوة الجماهير التي تنتسب إليه لدعم انحرافاتهم .

فبالنفاق والتزوير والمخادعة قد يستخدم النظام الماركسي اسم الإسلام سلاحاً لدعم نظامه وحمايته ، إذا وجد جماهير تنخذع بنفاقه وتزويره ، ووجد أجراء وصنائع تزين أمام الجماهير نفاقه وتزويره وتتلاعب بمفاهيم الإسلام وفق أهوائه ، ولا يكون هذا بحال من الأحوال جريرة تلتصق بالإسلام أو عيباً ينسب إليه ، فالإسلام من نفاق المنافقين وتزوير المزورين بريء .

وبالنفاق والتزوير والمخادعة قد يستخدم نظام رأسمالي اسم الإسلام سلاحاً لدعم نظامه وحمايته ، إذا وجد جماهير تنخدع بنفاقه وتزويره ، ووجد أجراء وصنائع تزين أمام الجماهير نفاقه وتزويره ، وتتلاعب بمفاهيم الإسلام وفق أهوائه ، ولا يكون هذا بحال من الأحوال جريرة تلتصق بالإسلام أو عيباً ينسب إليه ، فالإسلام الحق بريء من نفاق المنافقين وتزوير المزورين وتلاعب المتلاعبين .

فاتهام الإسلام بأنه سلاح في يد الرجعية ، أو في يد بعض الأنظمة التقدمية ، مغالطة قائمة على التعميم أولاً ، إذ يُعمِّم المغالطون اسم الإسلام فيجعلونه شاملاً لدين الله وللمنتسبين إليه بصدق ، وللمنتسبين إليه زوراً ونفاقاً ، وللمستغلين اسمه وهو منهم بريء ، وقائمة ثانياً على تحميل الدين جرائر المنافقين له ، والعابثين أمام بعض الجماهير بمفاهيم ينسبونها إليها ، وهي ليست منه .

ولكن:

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتِمّ نوره ولو كره الكافرون .

(5)

قال الناقد (د. العظم) في الصفحة (9) من كتابه :

"يلعب الفكر الديني دور السلاح (النظري) المذكور عن طريق تزييف الواقع وتزوير الوعي لحقائقه : تزييف حقيقة العلاقة بين الدين الإسلامي – مثلاً – والعلم الحديث ، تزييف حقيقة العلاقة بين الدين والنظام السياسي مهما كان نوعه (الاشتراكية – العربية – العلمية

الإسلامية – المؤمنة – الثورية) تزييف الحقيقة حول التصنيف الثوري الصارم للأعداء والأصدقاء على مستوى العلاقات بين الدول في المرحلة الحالية الحرجة (مؤتمر القمة الإسلامي) تزييف حقيقة الصراع الاجتماعي القائم في الوطن العربي بين قوى اجتماعية ثورية صاعدة ، وقوى رجعية معطّلة ، بين قوى طبقية مسيطرة ، وقوى متمردة مسحوقة مستغلة (الدعوة لبناء الجسور بين الطبقات باسم الإصلاح والتسامح والمحبة وغيرها من القيم الروحية) ولا شك أن عملية التزييف هذه تعمل في صالح مجموعة مصالح طبقية ضيقة ومسيطرة ، تنزع نحو الاستماتة في المحافظة على نفسها وعلى مواقعها ،وبذلك نحو فرض أيديولوجيتها الدينية ومنظورها الميثولوجي المزيف للواقع على المجتمع بأسره ، وعلى حياته الفكرية والثقافية بكاملها تقريباً ".

(أ) إذا تركنا شتائم (العظم) للفكر الديني في هذا النص ، لأننا عالجناها فيما سبق ، فإننا نلاحظ أن الذي يلعب دور التزييف بكل معانيه وصوره هو الفكر اللاديني الإلحادي ، لا الفكر الديني المؤمن .

فاللادينيون هم الذين يصنعون هذه التزييفات ويستغلونها لستر واقعهم المعادي لجماهير الأمة ، والكثرة الكاثرة من شعوبها ، ولمبادئ هذه الجماهير وقيمها وأخلاقها وتاريخها ومؤسساتها .

(ب) أما ما زعمه من تزييف حقيقة العلاقة بين الدين الإسلامي والعلم ، فقد كشفنا بطلانه بالشرح العلمي المركز في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، وأثبتنا بالبراهين المنطقية أنه لا نزاع مطلقاً بين الدين الصحيح والعلم اليقيني الثابت ، وسنزيد هذا بياناً في جدليات تفصيلية ، نعالج فيها كشف أكاذيبه وتزييفاته في الفصل الثامن من هذا الكتاب ، والواقع أن الملاحدة وكل اللادينيين هم الذين يزيفون حقيقة العلاقة بين اللادين والعلم ، إذ يصورون كذباً وزوراً أن العلم صديق الإلحاد ، أو صديق اللاتديُّن ، ويحاول جهدهم ويكدون كداً لاهثاً ليثبتوا وجود التناقض بين الدين والعلم ، ويصنعون كل ألوان التزييف والتزوير لإثبات هذه الفرية ، ليتوصلوا من ذلك إلى نقض الدين وإبطاله .

فمن المزيف للحقيقة والواقع ؟؟

(ج) وأما ما زعمه من تزييف حقيقة العلاقة بين الدين الإسلامي والنظام السياسي مهما كان نوعه (الاشتراكية – العربية – العلمية الإسلامية – المؤمنة – الثورية).

فالمزيفون في الحقيقة هم أصحاب المذاهب والنظم المخالفة للإسلام ، ويستأجرون أجراء للقيام في وسط الجماهير المسلمة بالدعاية لصور التزييف التي يصنعونها ، ستراً لمواقفهم المعادية للإسلام ، وكيداً لجماهير المسلمين ، ويسير وراءهم مخدوعون ، يظنون أنهم يخدمون الدين بما يصنعون . أما الدين الإسلامي فلا يعترف بأي نظام مهما كان

نوعه ، إذا كان يخالف المبادئ الإسلامية الصحيحة ، فللإسلام مناهجه ونظمه الواضحة البينة .

والمسلمون الصادقون لا يقبلون أية صورة من صور التزييف التي يحاول غير المسلمين مخادعة الجماهير المسلمة بها .

(د) وأما ما ذكره " من تزييف الحقيقة حول التصنيف الثوري الصارم للأعداء والأصدقاء ، على مستوى العلاقات بين الدول في المرحلة الحرجة (مؤتمر القمة الإسلامية)".

وما ذكره من "تزييف حقيقة الصراع الاجتماعي القائم في الوطن العربي بين قوى اجتماعية ثورية صاعدة ، وقوى رجعية معطّلة ، بين قوى طبقية مسيطرة وقوى متمردة مسحوقة مستغلة (الدعوة لبناء الجسور بين الطبقات باسم الصلاح والتسامح والمحبة وغيرها من القيم الروحية)".

فإن الإسلام أشد حرصاً على مقاومة هذا التزييف ، إن المؤمنين الصادقين أحرص من الملاحدة على إيجاد التصنيف الصارم ، وعلى إقامة الحدود الفاصلة بين الأعداء والأصدقاء ، أي : بينهم وبين الكافرين ، ولو كانوا من أبناء جلدتهم ، ويتكلمون بألسنتهم ، ولو كانوا منحدرين من السلالات الإسلامية ، ولو كانوا من أقرب أقربائهم ، فالإسلام لا يعرف مداهنة ولا مصانعة على حساب الدين والعقيدة ، أو على حساب جماعة المسلمين ، ولا يقر مبدأ المساومة في أي أمر من أمور الدين ، فالعدو عدو ولو كان أباً أو ابناً أو أخاً أو أقرب الأقربين في النسب ، والصديق صديق مهما كان بعيداً عن وشائج القرابات ، فالله يقول في سورة (التوبة/9 مصحف/113 نزول):

{يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُوۤاْ آبَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إَنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ منكُمْ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ منَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ }

فالأمر في المفهوم الإسلامي ليس بالسهل ولا باليسير ، إنه لعب بمصير الأمة ، ولعب بمصير دينها ، وفيه تمكين عدوها منها ، فليست موالاة أعداء الله من المعاصي الفردية العادية ، إنها خيانة للأمة جميعها ، وخيانة للكيان الإسلامي كله ، ودونها بنسبة كبيرة بعض كبائر المعاصي الفردية ، لأن هذه الموالاة لأعداء الله فرع من فروع النفاق .

والله تبارك وتعالى يقول في سورة (آل عمران/3 مصحف/89 نزول):

{يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ أُوْلاۤءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ

بِٱلْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ }

(6)

حشر الناقد (د. العظم) اتجاهاته السياسية المعينة في صلب قضايا يزعم أنها قضايا نقدية علمية بحتة ، فهو بالإضافة إلى أنواع التضليل الذي سلكه في المسائل العلمية ضد الدين ،أخذ يحشر اتجاهاته السياسية ليتابع عملية التضليل ، ويسلك فيها مسلك الغوغائية الدعائية المعروفة في الكتابات الصحفية ، التي يكتبها الملاحدة الماركسيون ، فقال في الصفحة (23) من كتابه:

"كان الدين في أوروبا حليف التنظيم الإقطاعي للعلاقات الاجتماعية ، ولا يزال على هذه الحال في معظم البلاد المتخلفة وخاصة في الوطن العربي . في الواقع أصبح الإسلام الأيديولوجية الرسمية للقوى الرجعية المتخلفة في الوطن العربي وخارجه (السعودية ، أندونيسيا ، الباكستان) والمرتبطة صراحة ومباشرة بالاستعمار الجديد الذي تقوده أمريكا . كما كان الدين المصدر الأساسي لتبرير الأنظمة الملكية في الحكم لأنه أفتى بأن حق الملوك نابع من السماء وليس من الأرض . ثم أصبح اليوم الحليف للأوضاع الاقتصادية الرأسمالية والبرجوازية ، والمدافع الرئيسي عن عقيدة الملكية الخاصة وعن قداستها ، حتى أصبح الدين وأصبحت المؤسسات التابعة له من أحصن قلاع الفكر اليميني والرجعي . فالدين بطبيعته مؤهل لأن يلعب هذا الدور المحافظ ، وقد لعبه في جميع العصور بنجاح باهر ، عن طريق رؤياه الخيالية لعالم آخر تتحقق فيه أحلام السعادة ، وواضح أن هذا الكلام ينطبق على الإسلام كغيره من الأديان ".

واضح من هذا الكلام (العظمى) أنه من قبيل الغوغائية الدعائية السياسية ، التي تعمل لنصرة مذهب سياسي واقتصادي معين ، أثبت الواقع فشله في المجالين السياسي والاقتصادي ، وأثبت أنه كان سلاحاً في أيدي الانتهازيين الطامعين باحتلال المواقع الرأسمالية والبرجوازية ، عن طريق النهب والسلب والاستغلال الظالم الآثم ، وأن شعارات هذا المذهب الاقتصادي لم تكن إلا أقنعة للتضليل .

وقد عمد إلى ذكر بلاد إسلامية معينة لأنها ما زالت نوعاً ما ترعى الإسلام ، وتحمي شعاراته ، وتطبق بعض أحكامه .

أما قصة الارتباط صراحة ومباشرة بالاستعمار الجديد الذي تقوده أمريكا فقصة أتقن تشييعها أجراء هذا الاستعمار ، وأجراء الصهيونية العالمية ، وغايتهم هدم الإسلام من وراء ذلك ، وهو يعلم أكثر من غيره دور

الماركسية الملحدة التي تعمل لصالح الاستعمار الجديد ، وتعمل لصالح الصهيونية العالمية .

وحرب رمضان عام (1973-1393هـ) ودور الدول الإسلامية فيها ، ودور المملكة العربية السعودية إذ دخلت فيها بكل ثقلها ، ربما يكون قد أغاظه كثيراً ، لأنه جاء على غير هوى سادته ، ولأنه كشف زيفاً كثيراً كان يصدّره هو وكل الذين يلبسون أقنعة التقدمية .

وأكتفي عند هذه النقطة بهذا القدر لأنه ليس من خطتنا في الدفاع عن الدين وحقائقه أن ندخل معارك سياسية ذات طابع زمني ، وذلك لأن الدين دين الله ، وهو تعاليم ومفاهيم وحقائق فكرية ، ومتى هبطنا بها إلى مستوى الصراع السياسي فإننا نورِّط الدين توريطاً سيئاً ، إذ نجسده في واقع بشري ، مع أن الواقع البشري غير المعصوم قد يخالف الدين في كثير من التصرفات الإنسانية ، والدين لا يحمل جريرتها ، وإنما يحمل جريرتها المخالفون للدين أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الإيمان به والمطبقين لبعض تعاليمه ، ومن الذين يرفعون لواءه ، ويحرصون على نصرته .

إن أي تجسيد للدين في واقع بشري غير معصوم عن الخطأ أو المخالفة يعتبر تشويهاً للدين ، وتحويراً في مفاهيمه وتعاليمه ، وهذه ليست خطة رشد في الدفاع عن الدين .

إن الصراع من أجل الواقع البشري عمل سياسي قد يتصل بالمبدأ إلا أن له مجالاً آخر .

وبالتضليل المقصود لمحاربة الإسلام بوصفه ديناً ربانياً ؛ يحاول أعداء الإسلام من ملحدين وغيرهم التقاط صور معينة عن الواقع البشري للمنتسبين إلى الدين ، ولو كانوا من أئمة المسلمين ومرشديهم ، ثم يأخذون هذه الصور البشرية المعينة ، ويجعلونها من الدين عقيدة ومفاهيم وأنظمة وغير ذلك ، مع أنها في الواقع ليست إلا انحرافات بشرية عن عقائد الدين أو مفاهيمه أو أنظمته ، وليس الدين هو المسؤول عنها ، ولكن أصحابها هم المسؤولون.

وهذا التضليل من أعداء الإسلام مغالطة خبيثة ماكرة ، يقصدون منها تشويه الصورة الإسلامية من جهة ، واستدراج مغفلين من أنصار الدين ليتورطوا في الدفاع عن الواقع البشري ، فيستغله أعداء الإسلام استغلالاً سيئاً .

يضاف إلى كل هذا أن المعارك السياسية الزمنية لها وجهات أنظار مختلفة ، ومن العسير جداً تمييز جانب الحق فيها ، وما أكثر ما ترى الغوغائية الجماهيرية رأياً أملته عليها الغوغائية الدعائية التي تنصر مذهباً اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً معيناً ، وتدعم مصالح معينة ، ثم يتبين بعد التجربة أن الرأي المناقض له كان هو الأحق بالاعتبار ، وأن محاربته كان

رعونة وطيشاً ، وتورطاً في مزالق سياسية تكبد المنزلقين خسائر فادحة ، وتحمِّلهم مصائب كثيرة ، وقد تدفع بهم على أيدي أعدائهم ضحايا رعوناتهم ، وعندئذ تجد جنود الأعداء الذين دفعوا بهم إلى هذه المزالق يطبلون ويزمرون ويرقصون على أجساد الضحايا .

أما زعمه : أن الدين أصبح اليوم الحليف الأول للأوضاع الاقتصادية الرأسمالية والبرجوازية ، والمدفع الرئيسي عن عقيدة الملكية الخاصة وعن قداستها ... إلى آخر كلامه .

فالواقع أن هذا الكلام ليس فيه من النقد الفكري شيء ، بل هو لون دعائي سياسي صحفي قائم على التضليل .

إن أي دارس للنظام الاقتصادي الإسلامي يعلم بداهة أنه نظام فذّ قائم بنفسه ، فلا هو نظام رأسمالي يساير الأنظمة الرأسمالية في العالم ، ولا هو نظام اشتراكي يساير الأنظمة الاشتراكية في العالم ، ولكن قد تتلاقى الأنظمة الرأسمالية معه في بعض الجوانب ، وقد تتلاقى الأنظمة الاشتراكية معه في بعض الجوانب ، وينفرد الإسلام بمفاهيم خاصة وتنظيم كلي خاص ، والشبه الجزئي لا يعني التبعية بحال من الأحوال .

وأما تحصن الرأسماليين بالإسلام فيشبه تحصن بعض الاشتراكيين به ، وهو ليس حصناً في الحقيقة لهؤلاء ولا لهؤلاء ، ولكن يتحارب الفريقان فيختبئ هؤلاء وراء جانب منه ، ويختبئ أولئك وراء جانب آخر منه ، وتتساقط بعض الضربات من هؤلاء وأولئك على الحصن الإسلامي زوراً وبهتاناً ، ولو كان في الحصن الإسلامي جنود حقيقيون لخرجوا وقاتلوا الفريقين معاً ، ولطردوهما عن جوانب الحصن .

وأما قوله : "إن الدين قد أصبح المدافع الرئيسي عن عقيدة الملكية الخاصة وعن قداستها".

فإننا نقول : ما دامت الملكية الخاصة مكتسبة بطرق مشروعة يوافق عليها نظام الإسلام فاحترامها حق ، واحترام الحق من أسس مبادئ الإسلام العامة ، ولا يضيره في هذا أن توافقه أو تخالفه أنظمة وضعية ومذاهب اقتصادية أخرى ، فالحق أحق أن يتبع .

وتعلن بإصرار أن النظام الإسلامي هو الأكمل والأصلح للإنسانية ، وستضطر الأنظمة الأخرى أن تتراجع إلى نظامه .

وهل عيب في النظام الإسلامي أن يحترم الملكية الخاصة المشروعة ، لأنه لا يوافق في هذه الناحية النظام الماركسي؟

إن العيب والنقص فيما خالف الإسلام ، نقول هذا بكل فخر واعتزاز .

ثم نتساءل فنقول: هل تتنازل الأنظمة الماركسية عن ملكياتها لصالح دول أخرى ماركسية أيضاً؟

إنهم يتقاتلون لحمايتها ، فأين بقيت مقومات المذهب؟

مفتريات وأباطيل ، وخداع وتضليل!!

*   *   *

الفصل الخامس

صراع من أجل قضيّة الإيمان بالله

والفكر الدّيني الصّحيح حَوْلها

(1)

تحت عنوان "الثقافة العلمية وبؤس الفكر الديني" أثار الناقد (د. صادق جلال العظم) حول الدين عدة موضوعات سماها "مشكلات" ومن هذه الموضوعات عقيدة الإيمان بالله تعالى.

مع أن الملحدين جميعاً في سالف الدهر وحاضره ، لم يستطيعوا مجتمعين ولا متفرقين ، أن يقدموا أية حجة منطقية أو واقعية مقبولة عند العقلاء تثبت عدم وجود خالق لهذا الكون .

وقد قرأنا ما كتبه هذا الملحد وما كتبه غيره من أساطين الإلحاد ، فلم نجد لديهم دليلاً واحداً صحيحاً ينفي وجود الخالق جل وعلا ، رغم الجهود الكبيرة التي بذلوها للإقناع بمذهبهم ، بل لم نجد في كل ما كتبوه دليلاً واحداً يقدم ظناً بعدم وجود الخالق ، فضلاً عن تقديم حقيقة علمية في هذا الموضوع ، جل ما لديهم محاولات للتشكيك بعالم الغيب ، والتزام بأن لا يثبتوا إلا ما شاهدوه من مادة بالوسائل العلمية المادية ، وهذا الارتباط بحدود المادة التي لم يشهد العلم حتى العصر حاضراً إلا القليل منها إن هو إلا موقف يشبه موقف الأعمى الذي ينكر وجود الألوان لأنه لا يراها ، أو موقف الأصم الذي ينكر وجود الأصوات لأنه لا يسمعها ، أو موقف الحمقاء حبيسة القصر التي ترى أن الوجود كله هو هذا القصر الذي تعيش فيه ، لأنها لم تشاهد في حياتها غيره .

فما حظ هؤلاء من العلم والأمانة العلمية ومطابقة الحقيقة والواقع؟

كذلك الملحدون لاحظ لهم من العلم والأمانة العلمية ومطابقة الحقيقة والواقع ، إذ ينكرون الخالق جل وعلا ، ويُصرون على إنكاره ، وهم لا يملكون دليلاً واحداً على نفي وجوده .

قد يستخدمون عبارات ضخمة ، يستغلون فيها أسماء التقدم العلمي والصناعي وتطور مفاهيم العصر ، والبحوث العلمية في المعامل والمختبرات ، للتمويه بها ، وتضليل الأذهان المراهقة ، مع أن التقدم العلمي والصناعي لم يتوصل بعد إلى قياس شيء من عالم الغيب ، بل ما زال عاجزاً حتى الآن عن قياس أمور كثيرة داخلة في العالم المادي ، الذي هو مجال كل أنواع التقدم العلمي الذي انتهت إليه النهضة العلمية الحديثة .

فالمعامل والمختبرات والأجهزة العلمية المتقدمة جداً ما زالت عاجزة عن أن تقيس أشياء كثيرة في هذا العالم المادي الذي نشاهد ظواهره ، بشهادة كبار العلماء الماديين أنفسهم ، وبدليل تجدد المعارف والمكتشفات يوماً بعد يوم ، ومتى زعم العلم الإنساني أنه اكتشف كل شيء فقد سقط في الجهل ، وأجهز على نفسه بنفسه منتحراً .

يضاف إلى ذلك أن العلماء الماديين من بعد كل دراساتهم ومشاهداتهم وملاحظاتهم المادية يحاولون تفسير ما شاهدوه من ظواهر بنظريات استنتاجية ، يقررون فيها حقائق غير مرئية وغير مشاهدة ، وهي بالنسبة إليهم وبالنسبة إلى أدواتهم ما زالت أموراً غيبية ، ومع ذلك فإنهم يضطرون إلى إقرارها والتسليم بها ، ويجعلونها قوانين ثابتة يقولون عنها : إنها قوانين طبيعية .

ومن أمثلة ذلك قانون الجاذبية ، إنه قانون غدا من الحقائق العلمية الطبيعية لدى العلماء الماديين.فما هي حقيقة هذه الطاقة ؟ هل باستطاعة العلماء أن يشاهدوها بأدواتهم وأن يعرفوا كنهها؟ وكيف أثبتوها؟

ألم يثبتوها بالاستنتاج العقلي استناداً إلى ما شاهدوه من ظواهرها وآثارها؟ هذه هي الحقيقة .

فما بال هؤلاء الملاحدة يسلمون بهذه القوانين الخارجة عن نطاق المشاهدات المادية ،وهي بالنسبة إلى حواسهم وإلى الأدوات العلمية المتقدمة أمور غيبية ، ثم ينكرون وجود الخالق جل وعلا لمجرد كونه خارجاً عن نطاق الإدراك الحسي ، ولا يمكن التواصل إلى إدراكه بالأجهزة العلمية المتقدمة؟

مع أن مئات الأدلة العقلية والاستنتاجية تثبت ضرورة وجود خالق عظيم لهذا الكون ، بيده مقاليد السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير .

أليس هذا من المفارقات التي لا تستقيم مع البحث العملي والأمانة العلمية ؟

إذا لم تصل أدلة الإثبات لديهم إلى مستوى اليقين ،ألم ترجح لهم هذه الأدلة احتمال وجود الخالق على عدم وجوده ؟ إنها مهما تكن من وجهة نظرهم فهي أقوى حتماً من الاحتمال الآخر الذي هو احتمال النفي ، فكيف يأخذون باحتمال النفي دون دليل ، ويرفضون احتمال الإثبات ومعه الأدلة الكثيرة ، ثم يسعون جاهدين لمحاربة الإيمان بكل ما لديهم من قوة؟

لماذا يعادون من خلقهم كل هذا العداء؟
أهذا جزاء الإنعام والإكرام؟
ألم يتحرك فيهم حس أخلاقي للاعتراف بوجوده؟
ألم ترجف قلوبهم خوفاً من عقابه الذي أعلنه على ألسنة رسله؟
ألم يفترضوا أن يكون الأمر حقاً؟
فبماذا يعتذرون يوم الحساب والجزاء؟

هل يكون عذرهم كافياً ومقبولاً إذا قالوا لربهم يوم الحساب : إنك يا إلهنا وربنا وخالقنا لم ترينا نفسك حتى نؤمن بك؟

ألا تسقط حجتهم هذه حينما يقول الله لهم : ألم أمنحكم عقولاً تستنبطون بها وجودي من آياتي التي بثثتها في كوني وفي أنفسكم؟ ألم أرسل لكم رسلاً مؤيدين بالآيات من عندي فأبلغوكم عني ؟ فلماذا كذبتموهم؟ إنني لم أضع في كوني أية حجة تقنع أحداً بعدم وجودي ، فلماذا جحدتم وجودي ، ولا حجة لكم في ذلك إلا اتباع الهوى ، والاستكبار عن الإيمان بي ، والرغبة بالتحرر من أوامري ونواهيّ وشريعتي لعبادي؟

عندئذ لا بد أن تسقط حجتهم وينقطعوا ، وعندئذ يعلمون علم اليقين أنهم كانوا في الغرور يتقلبون ، وفي جهالتهم وضلالتهم يعمهون ، وأنهم كانوا يجحدون ربهم من غير أن يكون لهم دليل به يعتذرون .

ويومئذ لا تنفعهم أحزابهم ، ولا أئمة الشر الذين كانوا يزينون لهم الكفر بالله وجحود آياته .

لست أدري ما هي الثمرة التي يستفيدونها في حياتهم من إنكارهم لخالقهم ، حتى يدفعوا بأنفسهم إلى موقع خطر كبير جسيم ، يعرِّضون فيه أنفسهم لشقاء أبدي وعذاب لا ينقطع؟

إن إلحادهم لا يفيدهم شيئاً في حياتهم الدنيا ، وما هو إلا مذهب عنادي ، فليتحملوا إذن جريرة عنادهم .

(2)
الحجة الشيطانية ودفعها

أخذ (د. العظم) يردد الحجة الشيطانية القديمة التي تقول في آخر سلسلة التساؤل : ومن خلق الله؟ ثم اختار لنفسه سبيل التسليم بقدم المادة وأزليتها .

وقد حدثنا الرسول [illegible] :

"[illegible]".

[illegible]:

[illegible] :

"[illegible] : [illegible]".

[illegible]

[1] هذا كذب على المسلمين من الفلاسفة . فمن قال من الفلاسفة بقدم العالم فهو ليس من المسلمين .
[2] هذا ليس صحيحاً ، فسنأتي في الرد عليه بما ينقض مغالطته .

[illegible] ."

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] : [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible].

([illegible]) [illegible]: [illegible]

. [illegible]

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible]

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible]

[illegible] .

[illegible]) [illegible] : [illegible] ([illegible]

"[illegible] ."[illegible]

:[illegible] ([illegible]) [illegible]

"[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] ."[illegible]

[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] . [illegible] .

[illegible] .

[illegible]

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .
[illegible]

[illegible]

[illegible]

([illegible])

[illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible]

[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible]:

"[illegible]."

[illegible]:

" [illegible]:

[illegible] : [illegible]. [illegible] : [illegible] ."

[illegible]:

" [illegible] ."

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]:
[illegible] : [illegible].
[illegible] : [illegible].
[illegible] : [illegible].

[illegible] : [illegible]

[illegible]: [illegible].

[illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible].

[illegible] : [illegible]

[illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible]
[illegible] .

[illegible] :[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible] .
[illegible]
[illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible] .

[illegible] . [illegible]
[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible]
[illegible] : [illegible]
.[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[1] عن (إسماعيل مظهر) في مقدمته لكتاب "أصل الأنواع" ، تأليف (تشارلز داروين).

* [illegible] * [illegible]

[illegible].

[illegible].

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]
.{... [illegible]}

[illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible].

[illegible].

[illegible].

([illegible])

[illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible]
[illegible] ([illegible]) "[illegible]".

[illegible].

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

" [illegible] ([illegible]) [illegible] : [illegible]."

[illegible] ([illegible]) [illegible]

[illegible]!!

[illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]):

"[illegible] ([illegible]) : [illegible] : [illegible]."

[illegible]

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}

[illegible] .

[illegible]

[illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] * [illegible]

.{[illegible]}

[illegible] : [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible].

[illegible].

[illegible]:

:([illegible]) [illegible] ([illegible])

"[illegible] ([illegible]) [illegible]."

[illegible] : [illegible].

:([illegible]) [illegible] ([illegible])

"[illegible] ([illegible]) [illegible]! [illegible]."

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[1] هذه الأقوال من (أ) إلى (ح) مقتبسة من كتاب "الإسلام يتحدى" ، تأليف : وحيد الدين خان ، تعريب : ظفر الإسلام خان ، مراجعة وتحقيق : دكتور عبد الصبور شاهين .

[illegible] .

[illegible]:

[illegible] -[illegible] :

[illegible] ([illegible]) [illegible] : "[illegible]".

[illegible] :

"[illegible]
[illegible]:

-[illegible] .

-[illegible] .

-[illegible].

-[illegible] "[illegible]".

[illegible].

[illegible] .

[illegible] :

[illegible] "[illegible]" .

[illegible] :

"[illegible] :

[illegible] : [illegible] .

[illegible] ."

[illegible] : "[illegible]."

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] :

[illegible] : "[illegible]".

[illegible] :

[illegible] -

[illegible] .

[illegible] -

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] -

[illegible] .

[illegible] -

[illegible] .

[illegible]: "[illegible] — [illegible] — [illegible]."

[illegible] - :

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] : "[illegible]".

[illegible] ([illegible]) [illegible] : "[illegible]."

[illegible]:

- [illegible]:

([illegible]) [illegible] .

([illegible]) [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] " : [illegible]

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] ."

[illegible] !

[illegible] !

[illegible] :

[illegible] ([illegible]) [illegible] : "[illegible]".

[illegible]:

-[illegible].

-[illegible].

[illegible].

-[illegible].

-[illegible]."

[illegible].

-[illegible] :

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] : "[illegible]."

[illegible] :

[1] يلاحظ الكاتب الدول الإلحادية التي ترى أن مصالحها مرتبطة بدعم قضية الإلحاد .

[2] وهو ما تمليه بعض الأديان المحرَّفة عن أصولها الصحيحة .

[3] لكن هذا السبب غير موجود بحمد الله في واقع المعتقدات الإسلامية ، إلا أن دعاة الإلحاد يحاولون بكل ما لديهم من خداع وتضليل أن يصوروا العقائد الإسلامية تصويراً يخالف مقتضيات المنطق والتفكير العلمي ، إذ يعممون هذا السبب تعميماً تقريرياً دون دليل ، أو يحشرون مفاهيم غير إسلامية ضمن بعض مفاهيم إسلامية للتضليل .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[1] اقتباساً من كتاب "العقيدة الإسلامية وأسسها" للمؤلف ، وكذلك الأقوال الواردة بعد تلخيص المقالات الثمان: قول (هرشل) ، وما أذاعته وكالة (رويتر) ، وما جاء في كتاب "الله في الطبيعة" للفيلسوف (كميل فلامريون).

"[illegible]"

[illegible] (5)
[illegible]:

"[illegible]."

[illegible]:

"[illegible]."

[illegible].

[illegible].

[illegible]."

[illegible]: *

[illegible].

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] .([illegible])

[illegible]

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] "[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] " [illegible] .

[illegible] .

[illegible] . [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible] .
[illegible]
[illegible]
. [illegible]

[illegible] : [illegible] : [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
. [illegible]

([illegible])

[illegible]
: [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible]

[illegible]"
[illegible]
."[illegible]"

[illegible]
([illegible]) [illegible]
([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible]
[illegible] ([illegible]) [illegible]
[illegible]
."[illegible]

[illegible] !![illegible]
![illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]!

[illegible] "[illegible]" [illegible] "[illegible]" [illegible] "[illegible]".

[illegible] ([illegible]) [illegible]: "[illegible]."

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible].

[1] من كتاب "الدين في مواجهة العلم"، تأليف وحيد الدين خان .

[illegible]

([illegible])

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible].

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] "[illegible] : [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible]:"

"[illegible]."

:[illegible] ([illegible]) [illegible]
"[illegible]."

[illegible] ([illegible]) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

([illegible])

[illegible] :([illegible])

"[illegible]."

[illegible] :([illegible])

"[illegible]"

[illegible] :([illegible])

"[illegible]."

[illegible] — [illegible] —

[illegible] ([illegible]) [illegible]:

"[illegible] ([illegible]). [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible]."

[illegible] .

[illegible]

[illegible]!

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] "[illegible]" : [illegible] :

-[illegible] .

-[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

([illegible]) [illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] :[illegible]

[illegible] *** [illegible] : [illegible]
[illegible] *** [illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible])

[illegible] {[illegible] * [illegible]}.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]."

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible])

[illegible]

[illegible]

[illegible]

. [illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible].

[illegible] :

"[illegible]: [illegible] ([illegible]) [illegible]."

:[illegible]

"[illegible]."

[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

. [illegible] : [illegible]

. [illegible] : [illegible]

[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible]:

"[illegible]."

[illegible] ([illegible]) [illegible]:

"[illegible]."

[illegible] ([illegible]) [illegible]:

"[illegible]."

[illegible] ([illegible]) [illegible]: [illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible]: [illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible] .([illegible])

"[illegible] — [illegible] — [illegible] ."

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible] .

[illegible]:

[illegible] *** [illegible]

[illegible]:

"[illegible] : [illegible] . [illegible] ."

[illegible]

[illegible] .

[illegible]:

[illegible]: [illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] .([illegible])

[illegible]: [illegible]:

"[illegible]."

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] ([illegible] [illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible]:

"[illegible] ([illegible]) [illegible] . [illegible]."

[illegible] ([illegible]) [illegible]. [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible]:

" [illegible] ."

[illegible] : [illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible]:

"[illegible] . [illegible]

[illegible] ."

[illegible] :

"[illegible] ."

[illegible] — [illegible] — [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] :([illegible] /[illegible] /[illegible]) [illegible]

{[illegible]}

:([illegible] /[illegible] /[illegible]) [illegible]

[illegible] } [illegible] .{[illegible]

[illegible] .

[illegible] : [illegible]

."[illegible]"

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible]

:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] * [illegible] .

[illegible] ([illegible])
:[illegible]

."[illegible]"

:[illegible]

"[illegible]."

[illegible].

[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible].

[illegible] — [illegible] — [illegible].

[illegible]:([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}.

[illegible]:([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}.

* * *

الفصل السادس

صراع من أجل قضية الإيمان باليوم الآخر

والفكر الدّيني الصّحيح حَوْلها

(1)

اعتمد الناقد (د. العظم) في إنكار الآخرة ، والبعث بعد الموت للحساب والجزاء على أقوال (برتراند رسل)[1] ، وزعم أن أقواله تلخيص للنظرة العلمية حول هذا الموضوع ، مع أن (رسل) لم يقدم في كلامه إلا مجرد النفي الذي لا تدعمه أدلة علمية ، ومعلوم أن النفي المجرد عن الأدلة المصححة للنفي يستطيع أن يفعله أي إنسان ، إذ يستطيع أن ينفي به أية حقيقة من الحقائق ، فهو لا يكلف صاحبه إلا أن يقول : (لا)، أو يرفع رأسه إلى أعلى إشارة للنفي ، لكنه بذلك يخسر أصل إنسانيته التي زانها العقل السليم ، والمنطق المحاكم للأمور بميزان مستقيم .

قال (العظم) في الصفحة (27) من كتابه:

"وفي مناسبة أخرى عندما سئل (رسل) : هل يحيى الإنسان بعد الموت؟ أجاب بالنفي ، وشرح جوابه بقوله: عندما ننظر إلى هذا السؤال من زاوية العلم وليس من خلال ضباب العاطفة نجد أنه من الصعب اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت . فالاعتقاد السائد بأننا نحيا بعد الموت – يبدو لي – بدون أي مرتكز أو أساس علمي . ولا أظن أنه يتسنى لمثل هذا الاعتقاد أن ينشأ وأن ينتشر لولا الصدى الانفعالي الذي يحدثه فينا الخوف من الموت . لا شك أن الاعتقاد بأننا سنلقى في العالم الآخر أولئك الذين نكنُّ لهم الحب يعطينا أكبر العزاء عند موتهم ، ولكنني لا أجد أي مبرر لافتراض أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا ، فليس لنا أي حق في أن نطلب من الكون تكييف نفسه وفقاً لعواطفنا وآمالنا ، ولا أحسب أنه من الصواب والحكمة أن نعتنق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية".

لا بد أن نضع هذا الكلام للفيلسوف الإنكليزي الملحد تحت مناظير البحث المنطقي والعلمي ، لنرى قيمته من الوجهة العقلية والعلمية .

ليس غريباً على (رسل) بعد أن اختار سبيل الإلحاد بالله ، واعتبار الكون ظاهرة مادية بحتة ، على خلاف ما قدمته الأدلة العلمية والعقلية في هذا المضمار ، أن يصعب عليه – في الإطار المادي البحت – اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت .

وليس غريباً عليه بعد ذلك أيضاً أن لا يجد لعقيدة الحياة بعد الموت ، وعقيدة الدار الآخرة للحساب والجزاء ، مرتكزاً علمياً يستند إليه .

نعم ، إن من ينكر حياة كائن ما بغير دليل يجد من الصعب عليه أن يكتشف المبرر العقلي لوجود إرادة لهذا الكون ، لأن إرادته فرع لتصور حياته ، وبعد إنكار الأصل يكون إنكار الفرع شيئاً طبيعياً ، ومذهباً سهلاً ، لكن هذا الإنكار لا يعبر عن الواقع بحال من الأحوال .

---

[1] سيجد القارئ دراسة لهذا الفيلسوف الملحد في الفصل (السابع) من هذا الكتاب .

إن الإيمان بالحياة بعد الموت للحساب والجزاء في دار غير هذه الدار قضية خبرية ، أي : ذات مستند خبري ، وليست قضية عقلية بحتة حتى نَبْحث في نطاق العقل عن دليل يدلُّ عليها دون الاستناد إلى الإيمان بالله . فلو أن عالماً من علماء الحيوان تحدث عن وجود حيوان بري غريب رآه بعينيه ، وأخذ يصف مشاهداته الحسية له ، ثم جاء سمَّاك فقال : لا أجد المبرر العقلي لوجود هذا الحيوان الغريب الذي يتحدث عنه هذا العالم ، لما كان كلامه أكثر سقوطاً من ناحية الاستدلال العلمي والعقلي من كلام (رسل) إذ أنكر وجود الحياة بعد الموت ، في ظروف غير ظروف هذه الحياة الدنيا ، على الرغم من أن هذا الرجل فيلسوف وعالم واسع الاطلاع ، إلا أن الهوى قد يحوّل عقل الفيلسوف الكبير إلى عقل السمّاك .

لقد أراد (رسل) أن يخضع الدار الآخرة والحياة الأخرى للمقاييس التجريبية التي تخضع لها ظواهر هذا الكون المادية ، في ظروف الحياة الدنيا التي نعيش الآن فيها ، مع أن الدار الآخرة والحياة الأخرى لا تخضع بطبيعتها لهذه المقاييس .

إن (رسل) بقياسه هذا يشبه من يزن الضغط الجوي بميزان البقال ، أو يزن الكثافة بميزان الحرارة ، أو قيس مقدار الذكاء بمساحة الجمجمة ، أو يزن بحور الشعر بالسانتمتر .

ما هو مبلغُ إنكار أي فيلسوف من الصحة إذا هو أنكر قراراً أصدرته دولة كبيرة قادرة ، بأنها ستنشئ في برنامج خطتها لربع قرن مدينة نموذجية بديعة جداً ، لا تُسكن فيها إلا الطبقة الصالحة الراقية من شعبها ، وستنشئ سجوناً إصلاحية أو تأديبية تخصصها للجانحين والخارجين على قوانين الدولة ؟!

فإذا قال فيلسوف كبير : لا أجد مبرراً عقلياً أو علمياً يؤكد أن منشأتين من هذا القبيل ستحدثان ، أفيكون كلامه مقبولاً عند العقلاء الذين علموا بقرار الدولة؟

من البدهي أن استدلال (رسل) استدلال غير منطقي وغير علمي ، وكشف هذا الزيف لا يحتاج إلى فلسفة راقية ، وإنما تكفي فيه البديهة العقلية المسلّمة عند جميع العقلاء ، وكان الأولى له أن يبني إنكاره لقضية الحياة بعد الموت والدار الآخرة على إنكاره لخالق الكون ، فبما أنه جحد الأساس الأول فكل ما يأتي عنه من أنباء وأخبار وقرارات وأحكام مرفوض من وجهة نظره ، وعندئذ تكون معالجته من مواقع هذا الأساس ، لا مما يتفرع عنه ويبنى عليه .

واعتباره عقيدة اليوم الآخر والدار الآخرة ناشئة عن الصدى الانفعالي الذي يحدثه الخوف من الموت ، إنما هو ثمرة من ثمرات جحوده للخالق ، وتخيُّله أن هذا الكون كله ، وما فيه من نظم رفيعة معقدة جداً ،

وما ظهر فيه من حياة وفكر ، إنما هو نتيجة مصادفات عثرت عليها حركات ذرات الكون العشوائية ، فهذه الحركات العشوائية تولَّد عنها هذا النظام البديع ، وهذا الوجود كله خال من أي أثر لعقل محرِّك ، وحياة ذات إرادة وخلق وتدبير .

فلما كان هذا الكون كله كذلك من وجهة نظره الملحدة الكافرة بالله الخالق المدبر الحكيم ، كان طبيعياً أن لا يجد هذا الكون المادي الجاهل الأعمى الخالي من كل تدبير حكيم عليم مهتماً بالآمال والرغبات التي تقوم في نفوس الناس ، ولذلك قال:

"ولكنني لا أجد أي مبرر لافتراض أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا ، فليس لنا أي حق في أن نطلب من الكون تكييف نفسه وفقاً لعواطفنا وآمالنا".

وحين نمنع النظر في الواقع والحقيقة نجد أن الملحدين هم الذين يريدون أن يكيفوا الكون وفق رغباتهم وأهوائهم ، وذلك لأن الإيمان بالدار الآخرة والحياة الآخرة إيمان بمحكمة العدل الرباني ، وما تستتبع من جزاء ، وفي هذه المحكمة العظمى يحاكم الناس ويحاسبون على أعمالهم ، والرغبات الإنسانية لو تركت وشأنها لحلا لها أن تتلخص من قانون الجزاء ، حتى تنطلق في تلبية مطالب أهوائها وشهواتها دون أن تقف في طريقها حدود ولا ضوابط ، فقضية الإنكار هي القضية التي تحاول إخضاع الواقع الكوني للأهواء والعواطف والرغبات ، لا قضية الإيمان باليوم الآخر والحياة الآخرة ، وقد كشف القرآن هذه الحقيقة من حقائق نفوس المنكرين ، فقال الله تعالى في سورة (القيامة/75 مصحف/31 نزول):

{بَلْ يُرِيدُ ٱلإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ}.

وبهذا التحليل يتبين لنا أن الأمر على عكس ما ادعاه (رسل) ، إذ إن عقيدة الدار الآخرة عقيدة قائمة على مفهوم الجزاء والعدل ، والإنسان ميال بأهوائه وعواطفه إلى أن يصرف عن تصوره قانون العدل الإلهي وما يتصل به ، لينطلق في الحياة الدنيا انطلاقاً فاجراً ، دون أن تقف في طريقه تصورات قانون العدل ، لكن الله غير مستعد لأن يغير من سننه وأحكامه ومقاديره القائمة على أسس من علمه وحكمته وعدله ورحمته وفضله ، تلبية لأهواء وشهوات الجانحين الفاجرين .

فما حاول أن يستند إليه (رسل) هو في الحقيقة دليل ضده ، وليس دليلاً له ، هذا إذا قبلنا بالمنهج الذي سلكه في الاستدلال .

على أن مناقشتنا لمنكري الآخرة تغدو عقيمةً ما داموا مصرين على جحود الخالق ، واعتبار أن هذا الكون كله مظهراً لأصل مادي صرف ، ونتيجة لحركات عشوائية قامت بها ذرات هذا الأصل المادي ، جلَّ ما نستطيع أن نناظرهم به هو إمكان العودة إلى الحياة لا لإثباتها جزماً ، وإفساد مذهبهم المادي من أساسه ، بإثبات عالم آخر غير هذا العالم المادي الخاضع للتجربة الحسية ، والقياس بالأجهزة . والأفضل من ذلك

العودة إلى مناظرتهم حول الأساس الأول ، وهو قضية الإيمان بالله تبارك وتعالى .

لكنهم متى قبلوا التسليم الكلي أو الجزئي بعقيدة الإيمان بالله تعالى فإننا حينئذ نستطيع أن نجد سبلاً متعددة لمناقشتهم ، ونستطيع أن نقدم لهم المبررات العلمية والعقلية ، التي تدعم قضية الإيمان بالحياة الآخرة والدار الآخرة للحساب والجزاء .

إن الحقائق الكبرى في الوجود تبدأ من منطلق واحد ، وحين يتعذر الاتفاق على هذا المنطلق فإن الاتفاق على ما يبنى عليه أكثر تعذراً ، بل قد يغدو أمراً مستحيلاً .

إن من لا يؤمن أساساً بقانون العدد من الواحد فما فوق من المستحيل منطقياً مناقشته في قواعد الأعمال الحسابية . ومن هو مصاب بعمى الألوان فهو لا يرى أياً منها ويجحدها يستحيل مناقشته في أجمل الألوان وأكثرها إرضاء للذوق . ومن يجحد مبدأ الحق من أساسه يغدو من العبث مناقشته ومناظرته حول حق المال ، أو حق الحياة ، أو حق العرض والكرامة ، أو أي فرع من فروع الحق . ومن يجحد مبدأ الخير والفضيلة من أساسه يستحيل مناظرته حول فروع الخير والفضيلة ،ما لم يكن متناقضاً مع نفسه ، يسلِّم ببعض الفروع دون أن يسلِّم بالأصول وبالفروع الأخرى ، وحينئذ يمكن جذبه عن طريق الإلزام ، ونقله من الفروع التي يسلم بها إلى الأصول ، وهذا من أساليب المناظرة البارعة .

(2)

أما الذين يسلِّمون تسليماً كلياً أو جزئياً بعقيدة الإيمان بالله تعالى ، إلا أنهم ينكرون البعث والحياة الأخرى ، أو يشكُّون بذلك ، فإننا نستطيع أن نقيم لهم عدداً من الأدلة ، ونناقشهم بجملة من المناقشات .

ومفتاح الأدلة النظرية لهذا الموضوع موجود في قول الله تعالى في سورة (المؤمنون/23 مصحف/74 نزول):

{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ }

إن الوجود الإنساني كله عبر تاريخه الطويل يسمى مسرحية من مسرحيات العبث ، لو أن حياة الإنسان تنتهي كلها في ظروف هذه الحياة الدنيا ، ثم لا شيء وراءها .

أين تحقيق قانون العدل الإلهي في ظروف هذه الحياة الدنيا؟

إنه إذا لم يوجد فيها بصورة مستوفية فلا بد أن يوجد في يوم آخر وحياة أخرى أعدها الله للحساب والجزاء ، وإلا كانت عملية خلق الإنسان على هذا الوجه المقرون بحرية الإرادة للإنسان ، والتي كان من نتائجها تاريخ مشحون بالجرائم والظلم والعدوان والمصائب الكثيرة ، عبثاً من العبث ، وقد تعالى الله الملك الحق ذو الحكمة والعدل والكرم عن ذلك علواً كبيراً ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم .

إن المنطق الحق والضمير النقي ليشعر بداهة – ولو لم تتنزل آيات الوعد والوعيد ، وأنباء اليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء – بأن مرحلة حياتية غير هذه المراحل لا بد أن يتم فيها تحقيق العدل الإلهي ، ولا بد أن يلاقي الناس فيها جزاء أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولئن كنا نشاهد أن بعض تطبيقات العدل الإلهي جارية في ظروف هذه الحياة الدنيا ، ضمن سنن الله الثابتة ، فإن الصورة الكاملة للعدل غير مستكملة في هذه الحياة ، ولذلك كانت الضرورة الأخلاقية والإيمانية تقضي بأن نفهم أن الله قد أعدَّ ظروف حياة أخرى غير هذه الحياة ، لإقامة عدله سبحانه .

وقد تأمل كثير من أهل الفكر والنظر في ظروف هذه الحياة الدنيا دون ملاحظة الآخرة وما فيها من جزاء ، فرأوا أن تاريخ الإنسان فيها صور للجرائم والمصائب وتهريج لا جدوى منه ، وسجل للجرائم والحماقة وخيبة الأمل ، وقصة لا تعني شيئاً ، ونحو ذلك.

قال فولتير: "إن التاريخ الإنساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب".

وقال هربرت سبنسر: "إن التاريخ تهريج وكلام فارغ لا جدوى منه".

وقال إدوارد جين: "إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلاً للجرائم والحماقة وخيبة الأمل".

وقال نابليون: "إن التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعني شيئاً".

وقال هيكِل: "إن الدرس الوحيد الذي تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئاً"[1].

ويعلِّق المفكر الإسلامي (وحيد الدين خان) في كتابه "الإسلام يتحدى" على هذه الأقوال بعد أن أوردها ، فيقول:

"وهل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهي إلى كارثة أليمة؟ إن فطرتنا تقول: لا .. فدواعي العدالة والإنصاف في الضمير الإنساني تقتضي عدم حدوث هذا الإمكان ، لا بد من يوم يميز بين الحق والباطل ، ولا بد للظالم

---

[1] هذه الأقوال مقتبسة من كتاب "الإسلام يتحدى" ، للمفكر الإسلامي وحيد الدين خان ، ص 142-143 .

والمظلوم أن يجنيا ثمارهما ، وهذا مطلب لا يمكن إقصاؤه من مقومات التاريخ ، كما لا يمكن إبعاده عن فطرة الإنسان .

إن هذا الفراغ الشاسع الذي يفصل ما بين الواقع والفطرة يقتضي ما يشغله . إن المسافة الهائلة بين ما يحدث وبين ما ينبغي أن يحدث تدل على أن مسرحاً آخر قد أعدَّ للحياة ، وأنه لا بدَّ من ظهوره ، فهذا الفراغ العظيم يدعو إلى تكميل الحياة ...

إذا لم تكن هناك قيامة فمن ذا الذي سوف يكسر رؤوس هؤلاء الطواغيت الطغاة؟".

والواقع أن هذه المشاعر مشاعر فطرية ونظرية لا تنكر ، وهي الهادية إلى تصور الحياة الأخرى لإقامة العدل الإلهي الأكمل .

من هذه النظرات تبين لنا أن مفتاح الدليل النظري لقضية الإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء قول الله تعالى في سورة (المؤمنون/23 مصحف/74 نزول):

{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ}.

وقد اهتدينا من هذا المنطلق الفكري الذي نبه عليه مفتاح هذا الدليل النظري إلى أن الإيمان بالآخرة ضرورة أخلاقية ، تقتضيها مفاهيم العدل الإلهي والفضل الإلهي .

ومعلوم أن العدل الإلهي والفضل الإلهي من الأسس المرتبطة جذرياً بعقيدة الإيمان بالله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العظمى .

وهذا الدليل النظري القاضي بأن الإيمان باليوم الآخر ضرورة أخلاقية ، تقتضيها مفاهيم العدل والفضل الربانيين ، قد أعطانا القرآن الكريم عدة مفاتيح إليه ، فمن أحسن فهم هذه المفاتيح ، وأدرك العلاقة بينها وبين أبوابها النظرية وما ترشد إليه ، استطاع أن يجد الدليل العقلي الذي يدلّه على أن من القضايا الحتمية في الوجود قضية اليوم الآخر ، لإقامة الجزاء الحق ، وتحقيق صفتي العدل والفضل من صفات الله التي قامت عليها براهين العقل .

هذا إنما يظهر في مفاهيم من استطاع أن يتوصل إلى الإيمان بالله وصفاته بالأدلة العقلية والعلمية ، وتابع نظره مشوقاً لبلوغ الحقيقة ، ولم تقف في نفسه عوائق التعصب أو عوائق الرغبة بالفجور .

ولدى تتبُّع المفاتيح القرآنية لهذا الدليل النظري نستطيع أن نظفر بمجموعة من النصوص منها:

(أ) قول الله تعالى في سورة (القلم/68 مصحف/2 نزول):

{أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}

(ب) وقول الله تعالى في سورة (الجاثية/45 مصحف/65 نزول):

{أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ}

(ج) وقول الله تعالى في سورة (القيامة/75 مصحف/31 نزول):

أَيَحْسَبُ ٱلإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِـيَ ٱلْمَوْتَىٰ }.

(د) وقول الله تعالى في سورة (ص/38 مصحف/38 نزول):

{وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ }.

(و) قول الله تعالى في سورة (الدخان/44 مصحف/64 نزول):

{إِنَّ هَـٰؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا ٱلأُوْلَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِٱلْحَقِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ }

فهذه النصوص القرآنية مفاتيح تفتح أمام الفكر الإنساني الذي آمن بالله الخالق أبواب الدليل النظري ، الذي يجعل قضية الإيمان باليوم الآخر قضية حتمية في مدركات العقل الصرف بعد الإيمان بالله جلَّ وعلا .

وذلك لأن من آمن بالله الخالق عن طريق النظر الفكري في آثار صنعته في الكون وفي الأنفس ، فإنه لا بد أن يهتدي إلى كمال صفاته جلَّ وعلا ، ومنها علمه وقدرته وحكمته وعدله ، وهذه الصفات لا بد أن تهدي الباحث المؤمن بالله إلى أن الله لم يخلق هذا الكون وما فيه ليكون مسرحية من مسرحيات اللعب أو اللهو والعبث الباطل ، وإنما خلقه لغاية ، يعرف الإنسان في حدوده من هذه الغاية ، أن الله قد خلقه مزوداً بخصائصه ليمتحنه في ظروف هذه الحياة الدنيا ، وليبلو إرادته ، ولكل امتحان نتيجة وغاية ، وإذ لم تظهر هذه النتيجة والغاية في ظروف هذه الحياة الدنيا ، فلا بد أن يكون العليم القادر الحكيم العدل قد ادَّخر إظهار هذه النتيجة والغاية وتحقيق مقتضياتهما إلى حياة أخرى ، هذا ما توجبه نظرياً مقتضيات العقل السليم والفهم المستقيم .

فلولا ترتيب يوم الدين هذا في هذا الوجود ، لكان خلق هذا الكون وفق ظروفه الحالية مظهراً من مظاهر اللعب أو اللهو والعبث الباطل .

لكن الله العليم الحكيم القادر لا بد أن يكون منزهاً عن اللهو واللعب والعبث ، إن أعماله كلها هادفة لحكم عظيمة وغايات جليلة ، قد ندرك طرفاً منها ويخفى عنا منها الكثير .

ولذلك رأينا في النصوص القرآنية أن الله تبارك وتعالى قد نفى عن أفعاله اللهو واللعب ، فذلك لا يليق بكمال صفاته سبحانه .

فحينما يجعل الفيلسوف الملحد (برتراند رسل) هذا الكون كله مسرحية من مسرحيات اللهو والعبث ، فإنما يخالف في ذلك مقتضيات المنطق السليم والجدية المهيمنة على هذا الكون ، وقد جره إلى ذلك إنكاره وجود الخالق ، واعتباره الكون كله ظاهرة للحركة العشوائية التي قامت بها مادة الكون الأولى في سحيق الأزمان ، وأنتج ذلك عنده أنه ليس لهذا الكون غاية مرسومة ، ولا حكمة مقدَّرة ، وأنه عبث من عبث المادة التي لا حياة فيها . ونسي أنه لا شيء في هذا الكون المدروس متسم باللعب واللهو والعبث ، وأن كل شيء فيه خاضع لقوانين جادة صارمة ، ولسنن ثابتة قاسية .

ألم يخطر في ذهنه أن هذه الجدية الظاهرة في كل شيء من هذا الكون المدروس لا بد أن تلازمه وتصاحبه إلى ما وراء المجال المدروس منه؟

إن هذه الجدية الملاحظة في الكون لا تدع مجالاً لتصوُّر اللعب واللهو والعبث . وفي اللحظة التي تسقط فيها تصوُّرات اللعب واللهو والعبث عن هذا الكون تبدأ التصورات الصحيحة الباحثة عن الغايات التي تهدف إليها المقادير العظمى . وهذا هو مفتاح النور لإدراك الحقيقة الدينية التي لم يرد الملحدون أن يدركوها تعنتاً وعناداً واستكباراً ورغبة بالفجور ، ولذلك أنكروا الامتحان والجزاء واليوم الآخر ، بعد أن جحدوا الخالق جلَّ وعلا ، وربما جحدوه لأنهم أرادوا أن يبعدوا عن تصورهم قانون الامتحان والجزاء ، لينطلقوا في أعمالهم الفاجرة المجرمة دون خوف من النتائج الوخيمة ، والعواقب الوبيلة .

ومن هذا نستطيع أن نتبين السلسلة الفكرية الإيمانية ، فهي تسير على الوجه التالي:

1- دراسة الكون والحياة والإنسان تهدي إلى الإيمان بالخالق العظيم ، القادر العليم ، العدل الحكيم .

2- دراسة الغاية من الخلق التي تهدي إليها ملاحظة الكون ، وأحداثه الكبرى ، وقوانينه الصارمة ، وسننه الثابتة ، لا تدع مجالاً لتصور اللعب واللهو والعبث في أي حدث من أحداثه ، بل كل ما فيه جدّ لا هزل يصاحبه ، ولا عبث يخالطه .

3- دراسة العلاقة الأخلاقية والتكوينية بين الخالق الحكيم والإنسان المدرك المريد ، تهدي إلى أن الإنسان خلق في هذه الحياة للامتحان ، والامتحان يستلزم الجزاء في جدية قوانين الوجود وسننه الثابتة .

4- دراسة الظواهر الجزائية في نطاق هذا الكون المدروس المشاهد تدل على أن كمال مقتضيات العدل وكمال مقتضيات الحكمة لم يتحققا فيه ، وهذا يهدي – مع ملاحظة صفات الخالق العظيمة التي منها العدل والحكمة ومع ملاحظة قوانينه الصارمة وسننه الثابتة في الكون – إلى أن حياة أخرى قد رتبت في برنامج الوجود الكبير ، لإقامة العدل وكمال الحكمة فيها ، وفيها يتم تحقيق الصورة المثالية للجزاء الرباني .

بهذه الدراسة النظرية المتسلسلة على هذا الوجه ، والمدعَّمة بالأدلة العقلية ، المستندة إلى دراسة ظواهر هذا الكون المشاهد ، استطعنا أن نهتدي إلى ضرورة اليوم الآخر ، وإلى الإيمان به .

ولكن كيف يكون هذا اليوم الآخر وعلى أية صورة ؟

إن الدراسة النظرية لا تسمح لنا بالتحديد ، وذلك لأن الاحتمالات النظرية كثيرة جداً ، ولا سبيل إلى ترجيح بعضها على بعض ، ومن أجل ذلك كان لا بد لنا من أن نلتمس مفاهيم النصوص الدينية الثابتة لتخبرنا بذلك ، وليس لنا أن نتخيل صورة من عند أنفسنا أو نضيف صوراً من عند أنفسنا إلى ما جاءت به النصوص الدينية الثابتة في القرآن الكريم وفي أقوال الرسول صلوات الله عليه .

(3)
شرح المفاتيح القرآنية
للدليل النظري الدال على الحياة الأخرى

اكتفيت في الفقرة السابقة بعرض المفاتيح القرآنية للدليل النظري القاضي بضرورة الحياة الأخرى للناس في خطة الوجود ، لاستيفاء كمال العدل الإلهي ، والجزاء الأمثل ، وهو ما تقضي به قواعد الإيمان بالله وكمال صفاته ، التي دلت عليها ظواهر هذا الكون المتقن المحكم الهادف إلى تحقيق غاية تناسب حكمة الخالق العظيم .

واعتمدت هناك على عرض المفاهيم العامة المستفادة من هذه المفاتيح ، لأفردها في فقرة خاصة أُولِي فيها كل نص منها نظرات تدبُّر وبحث استنباط .
وفيما يلي شرح لهذه النظرات:

(أ) النص الأول :

قول الله تعالى في سورة (المؤمنون/23 مصحف/74 نزول):

{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ }

فهذا النص يكشف لنا أنه لو لم يكن وراء هذه الحياة التي تنتهي بالموت حياة أخرى ، تكون فيها الرجعة إلى الله للحساب والجزاء وإقامة محكمة العدل والفضل الإلهية ، لكانت عملية هذا الخلق ضرباً من العبث ، والله تبارك وتعالى منزَّه عنه ، فلا يكون في شيء من أفعاله وأحكامه وأوامره ونواهيه وشرائعه هذا العبث ، بل لا بد في كل ذلك من غايات حكيمة تحددها إرادة الخالق المستندة إلى علمه المحيط بكل شيء ، والجديةُ الصارمة هي المظهر البارز في كل أحداث الكون وقوانينه وسننه ، وإشارة إلى كون الله منزَّهاً عن العبث في عمليات الخلق التي يجريها قال الله تعالى في هذا النص : {فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم}

ولما كان احتمال العبث احتمالاً مرفوضاً عقلياً كان لا بد من وجود حياة أخرى تظهر فيها تطبيقات الغاية من الحياة الأولى ، وهذه الحياة لا بد أن تكون مقررة في برنامج المقادير الربانية ، إن الله هو الملك الحق الذي لا إله إلا هو ، وبهذا نلاحظ أن هذا النص قد أعطى الفكر الإنساني مفتاح البحث النظري لهذه الحقيقة.

(ب) النص الثاني :

قول الله تعالى في سورة (القلم/68 مصحف/2 نزول):

{ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}

من الواضح أن ظروف هذه الحياة التي نعيشها قد تسمح للمجرمين بأن يعيشوا فيها عيشاً رغداً ناعماً ، يصيبون فيه المال والجاه والسلطان واللذات ، كما قد تسمح للمسلمين أهل الاستقامة بمثل ذلك ، وقد تسمح بأن يتمكن الفاجر من قتل التقي وظلمه وتعذيبه ، واستلاب ماله والعدوان عليه في أرضه أو عرضه ، وقد لا يلقى الفاجر جزاءً معجلاً على فجوره ، بل قد يمهل وتأتيه منيَّته دون أن ينال شيئاً من جزائه ، فلولا أن حياة أخرى غير هذه الحياة قد أعدت في برنامج المقادير الربانية لإقامة الجزاء الذي توجبه حكمة الخالق ، لكانت النتيجة الحكم على الخالق بأنه قد رضي بأن يجعل المسلمين كالمجرمين سواء محياهم ومماتهم ، وهذا يتنافى مع أصول العدل والحكمة الإلهية ، لذلك فهو مرفوض عقلاً ، ولما كان هذا الاحتمال مرفوضاً فإن الاحتمال المقابل له – وهو وجود الحياة الأخرى التي يتحقق فيها التمييز بين المسلمين والمجرمين – هو من الأمر الحتمي الذي لا مناص من اللجوء إلى إدراكه عقلاً ، والتسليم به عقيدة ، وهو طبعاً الاحتمال الذي قررته النصوص الدينية وأخبرت به .

وتفسير العملية كلها يتضح بأن هذه الحياة كلها لا تزيد على أنها مجال مفتوح لامتحان الناس على سواء ، كقاعة الامتحان حينما يدخلها الدارسون المجدّون والهازلون الكسالى ، والمتلاعبون الظالمون .

من المتحتم أن القصة لا تنتهي بانتهاء المدة الزمنية للامتحان ، بـل لا بد من زمن آخر تعلن فيه النتائج ، وينال فيه كلٌّ على مقدار عمله .

فمن أجـل ذلـك جـاءت الآيـة بصـيغة الاسـتفهام الإنكـاري {أفنجعـل المسلمين كالمجرمين؟ مالكم كيف تحكمون؟} دلالة على أن إنكار الحيـاة الأخرى وما فيها من جزاء يفضـي إلـى اتهـام حكمـةِ الخـالق بالتسـوية بيـن المسلمين والمجرمين ، وهو أمر مرفوض رفضاً قطعياً ، وقد تنـزه الخـالق عنه وتعالى علواً كبيراً.

إن أحدنا لا يقبل أن يُسوّي في أحكامه بين الظالم والمظلوم ، أو بين المحسن والمسيء ، أو بين المجدّ والكسول ، أو بين العالم والجاهل ، ولـو فعل ذلك واحد منا لكان سِمةَ نقص كبير في أخلاقـه . أفنكـرِّم أنفسـنا عنـه ونرضاه للخالق جلَّ وعلا؟

إنه أمر مرفوض بداهـة ، ورفضـه يعنـي حتميـة اليـوم الآخـر والحيـاة الأخرى .

(ج) النص الثالث :

قول الله تعالى في سورة (الجاثية/45 مصحف/65 نزول):

{أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ}.

إن هذا النص القرآني يكشف لنا عن حقيقة فكرية مهمة جداً ، وهـي أن مقتضيات العدل الإلهي تـوجب التسـليم بـأن التسـوية فـي الجـزاء بيـن الذين اجترحوا السيئات والـذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات قضـية مرفوضـة حتماً ، لأنها تتنافى مع صفتي عدل الله وحكمته الثـابتتين بالـدليل العقلـي ، والثابتتين أيضاً في ظواهر شتى من واقع حياتنا المدروسة ، وإذا كانت هذه التسوية مرفوضة عقلاً فما بالنا نلاحظ في هذه الحياة أن كثيراً مـن الـذين اجـترحوا السـيئات ينـالون منهـا مثـل مـا ينـال منهـا الـذين آمنـوا وعملـوا الصالحات ، أو أكثر في بعض الأحيان ، وأن كثيراً مـن الـذين آمنـوا وعملـوا الصالحات قد تتوالى عليهم المصائب والآلام ؟ فـأين تطـبيق قواعـد العـدل والحكمة الإلهية؟

وهنا يأتي الجواب العقلي الذي لا يحتاج إلى بحث وتأمل كثيرين:

إن هذه الحياة ليست نهاية قصة حياة الإنسان ، ولكنهـا فصـل منهـا ، ومرحلة قصيرة أعدت في برنامج الوجود الكبير لغاية الابتلاء ، ولا بـد حتمـاً من ظـروف حيـاة أخـرى تـأتي بعـد انتهـاء هـذه الحيـاة الـدنيا الـتي أعـدت للامتحان ، وعندئذٍ تظهر تطبيقـات قواعـد العـدل الألهـي ، وتظهـر مراحـل الجزاء ، وهنا نبهنا هذا النص القرآني على أن تطبيق قواعد الجزاء يبـدأ مـع

بداية مرحلة الموت ، الذي هو عملية انفصال بين الروح المدركة المحسـة ، وبين الجسد الذي هو ثوب هذه الروح في حياتها الأولى .

ومع بداية هذه المرحلة الجديدة مـن وجـود الإنسـان تظهـر الفـوارق القائمة على العدل والحكمـة بيـن الـذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات والـذين اجترحوا السيئات .

إن ما لم يظهر اليوم في مرحلـة الامتحـان لا بـد أن يظهـر غـداً فـي مراحل الجزاء .

فهذه الآية تشير إلى التطبيقات الجزائية التي تكون فـي مـدّة الحيـاة البرزخية بعد الموت وقبل البعث ، وهو ما يطلق عليه نعيم القبر وعذابه .

(د) النص الرابع :

قول الله تعالى في سورة (القيامة/75 مصحف/31 نزول):
{أَيَحْسَبُ ٱلإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَـىٰ * ثُـمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَـىٰ * أَلَيْـسَ ذَلِـكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِـيَ ٱلْمَوْتَىٰ }.

من الواضح أن هذا النص يشتمل على المفتاح الفكري لاكتشاف الغاية مـن خلـق الإنسـان فـي هـذه الحيـاة : {أيحسـب الإنسـان أن يـترك سُدى؟!}

أي : إنه لم يُخلق في هذه الحيـاة ليأكـل ويشـرب ، ويتمتـع ويظلـم ، ويطغى ويفسد في الأرض ، وينزل الآلام بـالآخرين ويكفـر بربـه ، ثـم يـترك سدى دون جزاء عادل ، أو ليستقيم ويعمل الصالحات ، ويعـدل بيـن النـاس ويحسن إليهم ، ويمسح عنهم الآلام ويعبد ربه ، ثـم يـترك سـدى دون جـزاء كريم .

إن هذا الظن مـن الإنسـان لأمـر عجيـب ، أفيظـن مـا لا يليـق بعـدل الخـالق وحكمتـه؟ أفيظـنُّ ظنـاً تقـوم براهيـن العقـل ودلائـل الواقـع علـى نقيضه؟

إن الإنسان في هذا الوجود لن يترك سدى بعـد ظـروف هـذه الحيـاة التي يعيشها ، والتي لو كانت نهاية قصة حياة الإنسان لكانت حيـاة لا معنـى لها ولا مغزى .

وهل يليق بحكمة الخالق العظيم القادر العليم أن يخلق خلقاً باطلاً لا مغزى له؟ إن هذا ضرب من اللعـب واللهـو والعبـث ، واللـه تبـارك وتعـالى منزه عن ذلك ، إن كل أمره جد لا هزل فيه .

وإذا ثبت بالدليل النظري أن الإنسان لن يترك سدى فلا بد من ظروف حياة غير هذه الحياة يتم فيها تحقيق الغاية من خلق الإنسان ، ويتم فيها تطبيق قواعد الجزاء الرباني وفق مقتضيات الحكمة والعدل والكرم .

وحينما يبدأ الجاهل قصير النظر يشكُّ في قدرة الله على إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت في النشأة الأخرى ، فلينظر إلى واقع النشأة الأولى ، إنها تعطيه برهاناً تجريبياً يثبت له أن من أنشأ النشأة الأولى قادر على أن ينشئ النشأة الأخرى ، نشأة الإعادة ، وهي في التحليل النظري أهون من نشأة الابتداء ، وقد لفت النص نظر الإنسان إلى هذا البرهان التجريبي فقال تعالى : {ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان عقلة فخلق فسوَّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟} بلى وهو الخلاق العليم .

(هـ) النص الخامس:

قول الله تعالى في سورة (ص/38 مصحف/38 نزول):

{وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ}.

فحينما يرفع الجاحدون تصورات الحياة الأخرى من أذهانهم تغدو هذه الحياة في تصورهم عملاً باطلاً لا معنى له ، وتغدو مسرحية من مسرحيات اللعب واللهو والعبث .

هذا ما صرح به كبار مفكريهم ، وذلك تصور الذين كفروا وظنهم القائم على أساس باطل هو جحود الحق والكفر به ، فويل لهم من أحداث هذه الحياة الأخرى حينما يجدونها حقيقة واقعة ، ويجدون أنفسهم في النار يعذّبون .

أما المؤمنون فإنهم يدركون الغاية من خلقهم ، ويعلمون أنهم في هذه الحياة الدنيا في ظروف امتحان لإرادتهم بين يدي خالقهم ، وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى خالدة يكون فيها الجزاء الأمثل ، وتظهر فيها حكمة الله من الخلق ، لذلك فهم لا يرون خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً . ويهديهم إلى هذه الحقيقة أنه من غير الممكن في الاحتمال العقلي أن يجعل الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، وأن يجعل المتقين كالفجار ، فتكون نهاية الجميع بالموت ، ولا شيء بعد ذلك من حساب ولا جزاء ، إن هذا العبث لا يفعله من يقيم دورة مسابقة رياضية ، فضلاً عن أن يفعله الخالق القادر العلمي الحكيم العدل ذو الفضل العظيم .

(و) النص السادس :

وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء/21 مصحف/73 نزول):

{وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ }.

جحد المشركون الحساب واليوم الآخر ، وجرّهم ذلك إلى إنكار رسالة محمد [illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible] .

:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]
{[illegible]}

: [illegible]

[illegible] * [illegible] {[illegible]}
[illegible] .{ [illegible]

: [illegible]

{[illegible]}

[illegible] : [illegible]
. [illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
. [illegible]

[illegible]
. [illegible]

:[illegible]
{[illegible]}

[illegible]
[illegible]
[illegible]{[illegible]} : [illegible]
[illegible] : [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

{إِنَّ هَـٰؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا ٱلأُوْلَىٰ وَمَا نَحْـنُ بِمُنشَـرِينَ * فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا إِن كُنتُـمْ صَـادِقِينَ * أَهُـمْ خَيْـرٌ أَمْ قَـوْمُ تُبَّـعٍ وَ ٱلَّـذِينَ مِـن قَبْلِهِـمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَـا خَلَقْنَـا ٱلسَّـمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِـ ٱلْحَق وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْـلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَـرُونَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ }

[illegible] : [illegible] .

[illegible].

[illegible]:

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

:([illegible]) [illegible]

{[illegible]}

[illegible] : [illegible] .

[illegible]:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ ... وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

هي ابتلاء الإنسان في الحياة الدنيا ، وبعد الامتحان يأتي الجزاء في الحياة ...

67/ ...

... وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * ...

( )

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]:

[illegible].

[illegible]:

[illegible]

[illegible].

([illegible])

[illegible]

[illegible] : [illegible]

[illegible].

[1] تأليف : وحيد الدين خان ، تعريب : ظفر الإسلام خان ، من صفحة 154 إلى صفحة 159 .

[1] صفحة 152/153 (البحث النفسي).

[illegible]

[illegible]

[illegible]

([illegible])

[illegible]

لدى البحث عن المستندات الفكرية التي يستند إليها منكرو الحياة الآخرة يتبين لنا أنهم لا يملكون أية مستندات فكرية صحيحة ، إنما هـم بيـن العناد والتوهم .

أما العناد فهو مذهب المكابرين الذين لا ينفع معهم الجدل المنطقـي ، والمناظرة العلمية .

وأما التوهم فهو طريقة كثير من المنكرين الذين يندفعون وراء توهمات يتصورونها أدلة ، وليست هي بأدلة .

إن الحياة الأخـرى ليسـت مـن المسـتحيلات العقليـة حـتى يجحـدوها الجاحدون بحجة الاستحالة ، ولكنها من الممكنات العقليـة ، وظهـور الحيـاة الأولى أعظم شاهد تجريبي على إمكان الحياة الأخرى ، وبعد إثبات الإمكان الفعلي تبقى لدينا مرجحات إثبات الوقـوع ، وقـد رأينـا بالأدلـة النظريـة أن مرجحات إثبات الوقوع مرجحات قوية ، فـإذا انضـمت هـذه الأدلـة النظريـة إلى التبليغات الربانية التي أخبرنا بها رسل الله الصادقون وجـدنا أن الحيـاة الأخرى قضية حتمية لا مناص للعقلاء مـن الإيمـان بهـا ، والتسـليم بمـا جـاء عنها من أخبار صادقات .

وقد رأينا أن طريقة القرآن في محاجَّة منكري الحياة الأخرى من الماديين الملحدين ، الذين لا يؤمنون بالله ، طريقة تتضمن العودة بهم إلى نقطة الخلاف الأولى الأساسية ، وهي الإيمان بالله تعالى ، فهو يقيم لهم دليلاً مزدوج الهدف ، يلفت النظر إلى حقيقة الإيمان بالله تعالى وبكمال صفاته ، ويوجِّه إلى أن الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلق هذا الكون عبثاً ، تنتهي حياة الإنسان فيه بنهاية حياته الأولى . ومتى أدرك المتفكر هاتين الحقيقتين تفتحت مغاليق فكره وفؤاده للتسليم بالحياة الأخرى ، كما جاءت بها الأخبار الصحيحة الصريحة الصادقة التي أخبر بها الرسول .

أما طريقة القرآن في محاجَّة الآخرين ، فهي تشتمل على النظر في توهماتهم التي استندوا إليها فيما ذهبوا إليه من الرفض ، والرد عليها بإثبات الحق المناقض لهذه التوهمات ، وقد استقصى القرآن الكريم في مواضع مختلفات توهماتهم وردها واحدة فواحدة بالحجج الدامغة .

وفيما يلي تتبع لهذه التوهمات وللرد القرآني عليها:

*** التوهم الأول :**

توهم ظهر على ألسنة المشركين أيام الرسول [illegible]

[illegible] .

[illegible] :

* [illegible] :

طريق إظهار واقع التساوي بين الإعادة والبدء ، وبيان أن شبهة التفاوت شبهة باطلة ، إذ أن قدرة الله التي قدرت على ابتدائهم إبداعاً ، قادرة على خلقهم بعد فنائهم إرجاعاً ، فالأمران مستويان ، بل الإعادة أهون في نظر الناس وحدود قدراتهم من الابتكار والإبداع .

فمن يسلِّم بأن الله قد بدأ الخلق حتم عليه بأن يسلِّم بأنه تعالى قادر على إعادته ، بل هو أهون عليه .

وقد رد القرآن على أبيّ بن خلف شبهته هذه ، بقول الله تعالى في سورة (يس/36 مصحف/41 نزول):

{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِـي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيۤ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}.

وأكد حقيقة التساوي بين الإعادة والابتداء بقوله تعالى في سورة (مريم/19 مصحف/44 نزول):

{وَيَقُولُ ٱلإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَلاَ يَذْكُرُ إلإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً}.

وبين الله في نص آخر أن إعادة الخلق أهون من ابتـدائه ، فـإذا ثبـت الابتداء بالمشاهدة تثبت الإعادة الموعود بها من باب أولى ، فقال تعال فـي سورة (الروم/30 مصحف/84 نزول):

{وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْـهِ وَلَـهُ ٱلْمَثَلُ ٱلأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ}

*** الطريق الثاني:**

طريق التنبيه على مظاهر قدرة الله في السماوات والأرض ، وذلك أنه إذا كابر المنكـر بعـد إقامـة الـدليل بإظهـار واقع التسـاوي بيـن الإعـادة والبدء ، فقال : الإعادة أشد من البدء مصراً على توهمه هذا ، أتـاه الجـواب القرآني بنقله إلى ما هو أكبر في تصوره من ابتداء خلق الإنسـان وإعـادته ، ألا وهو خلق السماوات والأرض .

إذ من المعلوم بالبداهة الحسية أن خلق السماوات والأرض أكبر مـن خلق الناس ، في ابتدائهم أو في إعادتهم ، وهذا ما أشارت إليه آية (الـروم) السابقة:

{وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ}

ونلاحظ أن الاستدلال بخلق السماوات والأرض على قدرة الله تعالى على أن يحيي الموتى كثير في آيات القرآن المجيد :

فمنها قول الله تعالى في سورة (الأحقاف/46 مصحف/66 نزول):

{أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَلَمْ يَعْـيَ بِخَلْقِهِـنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِـيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

ومنها قول الله تعالى في سورة (غافر/40 مصحف/60 نزول):

{لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ أَكْـبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْـثَرَ ٱلنَّـاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي ٱلأَعْـمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـالِحَاتِ وَلاَ ٱلْمُسِيۤءُ قَلِيـلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لآتِيَـةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰـكِنَّ أَكْثَـرَ ٱلنَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ }

فبعد إثبات أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس نبه النص على أنه لا يصح التسوية بين الأعمـى والبصـير ، ولا بيـن الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات والمسيئين ، إن حكمة خـالق هـذا الكـون الكـبير المتقـن البديع تأبى هذه التسوية ، وإذا كانت هذه التسوية مرفوضة فإن أمر الجـزاء واقع لا محالة ، وذلك يكون يوم القيامـة ، وإذ وصـل النـص إلـى إبـراز هـذه الحقيقة قرر أن الساعة آتية لا ريب فيها .

أي: فخلق السماوات والأرض شاهد على إمكان إعادة خلق الإنسـان بعد فناء جسده ، والداعي لهذه الإعادة قانون الجزاء الحكيم .

*** التوهم الثاني:**

توهم أن خلق السماوات والأرض وخلق الأحياء قد أصاب الخالق بالإعياء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولقد رد القرآن هذا التوهم ببساطة ووضوح ، وذلك بإثبات أن خلق الله للأشياء كلها إنما يكون بتوجيه الإرادة والأمر ، فإذا أراد أن يخلق شيئاً قال له : كن فيكون ، ومن كان أمر خلقه كذلك فلا يمكن أن يصيبه الإعياء في القدرة أبداً .

وقد نفى الله أن تصاب قدرته بالإعياء بسبب خلقه للسماوات والأرض وما فيهن ، فقال تعالى في سورة (الأحقاف/46 مصحف/66 نزول):

{أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِـيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وعدم الإعياء بالخلق هو مقتضى قدرة الرب الخالق ، ولذلك قال الله تعالى مستنكراً لو أن تفكيرهم ، متسائلاً تساؤل المتهكم بإنكارهم في سورة (ق/50 مصحف/34 نزول):

{أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}

أي : بل هم في شك من إمكان خلق جديد لمن سبق له أن خُلق ثم مات وفني جسمه .

وبين الله مدى قدرته العظيمة على ما خلق ما يريد من شيء بمجرد توجيه أمر التكوين له ، فقال تعالى في سورة (يس/36 مصحف/41 نزول):

{إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}

على أن نفي الإعياء ومناقشة المنكرين في هذا الأمر ، وكذلك مناقشتهم حول بعض التوهمات الأخرى ، إنما هو تنزل من الخالق العظيم إلى مستوى تفكير المنكرين وعقولهم الساذجة ، لإقامة الحجة عليهم من جميع الوجوه ، ومحاصرتهم محاصرة فكرية ملزمة بالحق ، على أن في هذه البيانات لفت نظر إلى حقيقة الربوبية ، وأن من مقتضى خصائص صفات الربِّ الخالق قدرته الكاملة على الخلق ، وهذه القدرة لها صفة البقاء الأزلي الأبدي ، فهي لا تتناقص ، ولا تختل ، ولا تعرض لها عوارض التغير ، فلله الخالق الأزلي الأبدي كلُّ صفات الكمال المطلق .

*** التوهم الثالث:**

توهم المنكرين أن من يموت من الناس يضل رفاته في الأرض ، فتذهب صورته وصفاته ، فكيف يرجع الله هذه الذوات والصفات ، وكيف يجمع هذه الذات المتفتتة من عظامهم؟

وأثر هذا التوهم يظهر في توهمهم أن علم الله غير محيط بكل صغيرة وكبيرة من أعداد الذين يموتون من الناس ، وغير محيط بصفاتهم وأوضاعهم وأعمالهم .

وقد ذكر الله مقالتهم التي تدل على هذا التوهم من توهماتهم ، بقوله تعالى في سورة (السجدة/32 مصحف/75 نزول):
{وَقَالُوٓاْ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلَقَـآءِ رَبِّهِـمْ كَافِرُونَ}

أي: بل علة نفوسهم أنهم لا يريدون أن يقبلوا مبدأ لقاء ربهم ، حتى لا يحجزهم اعتقاد هذا المبدأ عن الانطلاق في الفجور ، وما يوردونه على قضية الآخرة وما فيها من حساب وجزاء ليس إلا تعلاّت.

وذكر الله مقالتهم هذه أيضاً في سورة (سبأ/34 مصحف/58 نزول) فقال تعالى :
{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلاَلِ ٱلْبَعِيدِ}.

أي : فهم في عذاب في حياتهم يأتيهم من داخل نفوسهم المجرمة المتمردة على الحق ، وهم في الضلال البعيد في عقيدتهم وفي سلوكهم .

ولدفع هذا التوهم من توهماتهم تنزل الله إلى مستوى مداركهم فأثبت لهم إحاطة علمه بكل شيء ، ومن ذلك علمه سبحانه الذين يموتون أعداداً وصفات كاملة ، وأن من مقتضى كونه تعالى هو الرب الخالق ، والموجود الأزلي الأبدي ، أن يتناول علمه كل ما يجري في مخلوقاته ، حتى ما توسوس به نفوس الناس من غير أن ينطقوا به ، ودون أن يسمعه منهم أحد . وأثبت لهم أيضاً أن الملائكة الكرام الكاتبين والملائكة الذين يقبضون الأرواح ويتوفون الأنفس يسجلون كل واحد من الناس أحياءً وأمواتاً ، بذواتهم وصفاتهم وأفعالهم وأقوالهم في كتاب حفيظ .

وفي الرد على هذا التوهم الذي يحتمل أن يكون مصدر تعجبهم إذ قالوا:
"أئذا متنا وكنا تراباً؟ ذلك رجع بعيد" قال تعالى في سورة (ق/50 مصحف/34 نزول):
{قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلأَرْضَ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}

وأثبت الله إحاطة علمه بكل صغيرة وكبيرة في مقام عرض إنكارهم للساعة وذلك على سبيل الرد عليهم فقال تعالى في سورة (سبأ/34 مصحف/58 نزول):

{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}

وشاهد هذا الشمول العلمي لله تعالى سير كل شيء في هذا الكون ضمن نظام محكم دقيق لا يعتريه أي خلل ، وهذا يسقط توهمهم .

وفي بيان إحاطة علمه تعالى بما توسوس به نفوس الناس دون أن يطلعوا عليه أحداً ، قال سبحانه في سورة (ق/50 مصحف/34 نزول):

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ}

وفي بيان مراقبة أقوال الناس وحفظها قال الله تعالى في سورة (ق/50 مصحف/34 نزول):

{مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}

وحين يلاحظ المنكرون هذه الحقيقة من حقائق الرب الخالق يسقط هذا التوهم من توهماتهم ، ويعرفون أن الله على كل شيء قدير ، ويعلمون أن وعد الله حق .

على أنهم لو نظروا فيما انتهت إليه البحوث العلمية لرأوا أنها قد أثبتت هذا السجل الكوني الكبير ، الذي تسجل فيه الأعمال كلها ، والأقوال ، وخواطر الأنفس ، ووساوسها ، ونياتها .

لقد أثبت العلماء أن كل حرف نقوله وكل عمل يصدر عنا يسجل في الأثير ، ويمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصيله ، متى تهيأت الأجهزة القادرة على كشف ما في هذا السجل الكبير ، والتحكم بموجاته ، فصور كل كائن من القرون الأولى وأصوات كل كائن مسجلة تسجيلاً كاملاً ، منذ وجوده حتى آخر وجوده لحظة بلحظة ، لا يضيع منه شيء صغيراً كان أو كبيراً ، في النور أو في الظلمات ، في السرِّ أو في العلن ، وأثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا وخواطرنا تحفظ في شكلها الكامل وفق تسلسلها ، ولسنا بقادرين على محوها أبداً ، وإن نسيناها في عقلنا الظاهر أو في مستوى شعورنا ، إنها تظل محفوظة أبداً لدينا فيما يسمى عند علماء النفس (ما تحت الشعور) وما هو محفوظ فيما تحت الشعور هو الجانب الأكبر من مجموع المحفوظات في كياننا الإنساني ، فالقضية لا تحتاج يوم القيامة أكثر من كشف الغطاء عن مستوى ما تحت الشعور ، وعرض شريط صور (فيلم) حياتنا كلها المسجل في الأثير[1] .

---

[1] تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن ، وهي تعطي صورة فوتوغرافية للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية ،غير أن هذه الآلات التي تم اختراعها حتى الآن لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية إلا خلال ساعات قليلة من وقوع الحادث ، أما الموجات القديمة فلا تستطيع تصويرها لضعفها . وتستعمل في هذه الآلات (أشعة انفرارد) التي تصور في الظلام والضوء على حد سواء ، ولقد بدأ العلماء في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية استغلال هذا النوع من الآلات في تحقيقاتهم ، وذات ليلة حلَّقت طائرة مجهولة في سماء نيويورك ، فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذا النوع من الآلات ، وأدى ذلك إلى معرفة طراز الطائرة ونوعها ، وقد أطلق على هذه الآلة اسم (آلة تصوير الحرارة).

فهذا التوهم القديم الذي لم يكن يتصور مدى هذا التسجيل قد أصبح ساقطاً اليوم بالمكتشفات العلمية ، وتحقق قول الله عز وجل في سورة (فصلت/41 مصحف/61 نزول):
{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

*** التوهم الرابع :**

توهم أن الأشياء التي لا يشاهدونها بالحس ينبغي أن لا يسلِّموا بها ، وأن لا يصدقوها ، فما لم يحدث فعلاً أمام أعينهم بشكل متكرر فهو ممتنع الوقوع .

وأصحاب هذا التوهم قد سيطرت حدود حواسهم الظاهرة على قوة التجريد العقلي فيهم ، فزعموا عدم إمكان العبث ، لأنهم لم يرَوا حياة بعد موت .

وهل باستطاعة أصحاب هذا التوهم أن يلتزموا مذهبهم في كل الحقائق التي يبحثونها أو يمؤنون بها؟

إن معظم النظريات العلمية التي يثبتها العلماء الماديون تشتمل على مضامين لم تشاهد بالحس ، وإنما استنتجها العلماء استنتاجاً عن طريق تعليل الظواهر وتفسيرها .

وكثير مما كان يثبته الإنسان القديم وما يزال يثبته الإنسان الحديث لا يعتبر داخلاً في نطاق الأمور التي يمكن إدراكها بالحس ، كالعقل والروح ، والقوى التي لا تشاهد إلا آثارها وظواهرها .

ولكن رغم أن هذا التوهم مرفوض بداهة قد يكابر به بعض المعاندين ، فيزعم بوقاحة أن الأشياء التي لا يشاهد لها أمثلة واقعة هي ممتنعة الوقوع .

ولنا مع أصحاب هذا التوهم محاكمات كثيرة ، نلزمهم فيها بإثبات أشياء كثيرة في أنفسهم ، وفي الكون من حولهم ، يستنتجون هم وجودها استنتاجاً ، مع أنها غير مدركة بأية حاسة من حواسهم .

ومع كل هذا فقد تنزَّل القرآن إلى مستوى مداركهم فضرب أمثلة مدركة بالحس دائمة الوقوع في الكون ، تُقرِّب إلى تصوراتهم صورة الحياة بعد الموت .

إن جفاف الزرع وانقطاع تغذيته من الأرض ، وحصاده وتحطمه ، يشبه حالة الموت في الأحياء ، ثم إن السنة الكونية الدائمة الظاهرة المشاهدة في عملية انشقاق الحبوب في بطن الأرض ،ونباتها بعد ما سبق

[من كتاب: الإسلام يتحدى ، ص 132]

من حالتها التي تشبه حالة الموت ، وعودتها إلى الحياة والنضر كرَّة أخرى ، وذلك عند وجودها في البيئة الملائمة من ماء ممتزج بالتراب الصالح ، لتعطي تقريراً حسياً مشاهداً باستمرار في الظواهر الكونية لقصة بعث الحياة بعد موت الأجساد الحية ، وتفرُّق أجزائها في تراب الأرض ز

وقد نبَّه القرآن على هذا الشاهد الكوني الذي يقرب إلى تصور أصحاب هذا التوهم إمكان الحياة الأخرى ، وأنها تشبه عودة الحياة إلى الزروع والنباتات بعد جفافها وما يشبه حالة الموت فيها .

فقال الله تعالى في سورة (الحج/22 مصحف/103 نزول):
{وَتَرَى ٱلأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُل زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ}

وقال أيضاً في سورة (الروم/30 مصحف/84 نزول):
{فَٱنظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

وقال أيضاً في سورة (فصِّلت/41 مصحف/61 نزول):
{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِيۤ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

يضاف إلى هذا الشاهد المتكرر ما ضربه الله من أمثلة تجريبية واقعية ، أجراها في أزمنة ماضية لحياة الإنسان بعد الموت .

فمن ذلك حادثة أهل الكهف وكيف ضرب الله على آذانهم ثلاثة قرون وتزيد ، ثم أعثر عليهم ليعلم الناس بشهادة الحس كيف يحيي الله الموتى ، وقص الله علينا قصتهم في سورة (الكهف/18 مصحف/69 نزول) ثم قال تعالى :
{وَكَذٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوۤاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا..}.

ومن ذلك أيضاً قصة (العزيز) الرجل الصالح من بني إسرائيل ، إذ مر على قرية أموت فقال : "أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟" فأماته الله مئة عام ثم بعثه وشاهد مشاهدة حسية كيف أحياه الله بعد أن أماته ورأى بنو إسرائيل من أهل قريته هذا الحدث التاريخي العجيب ، وقد أخبرنا الله تعالى بهذه القصة في سورة (البقرة/2 مصحف/87 نزول) فقال:
{أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَٱنْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلعِظَامِ كَيْفَ

نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

ومن ذلك أيضاً قصة إماتة الألوف من بني إسرائيل حين أمروا بقتال عدوهم ، فخرجوا من ديارهم فارين من مقابلة العدو حذو الموت ، ثم بعد هذه الإماتة الجماعية أحياهم الله ليعملوا أن الفرار من القتال لا يحمي من الموت ، وليعلموا أن البعث حـق ، وقد ذكر الله قصة هؤلاء في سورة (البقرة/2 مصحف/87 نزول) فقال تعالى :
{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}

ومن ذلك أيضاً قصة إحياء قتيل بني إسرائيل ،لسؤاله عن القاتل ، وهذه القصة قد أخبرنا الله بها في أوائل سورة (البقرة) وقد أوجز المفسرون هذه القصة بأنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر له ابن واحد ، قتله ابن عمه طمعاً في ميراثه ، ثم جاء يطالب بدمه قوماً آخرين ، فأنكر المتهمون قتله ، وترافع القوم إلى موسى عليه السلام ، كل منهم يدرأ التهمة عن نفسه ، فقال لهم موسى : إن الله يأمركن أن تذبحوا بقرة ، وذلك ليتبين لهم القاتل الحقيقي فقالوا له : أتهزأ بنا؟ فقال موسى : معاذ الله أن أكون من الجاهلين ، فسأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام عن أوصافها ، وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، ثم عثروا عليها وذبحوها وما كادوا يفعلون ، ثم ضربوا جسد القتيل ببعض البقرة التي ذبحوها وفق الأمر الإلهي ، فأحيا الله القتيل وأخبر عن قاتله .

ومن ذلك أيضاً قصة إحياء الطيور الأربعة لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، لما سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى .
ومن ذلك أيضاً معجزة عيسى عليه السلام ، إذ كان يحيي الموتى بإذن الله ، كما هو معلوم من معجزاته وآيات رسالته .

*** التوهم الخامس :**
توهم المنكرين أن مراد الخالق في إبداع الحياة وخلقها لا يتعدى حدود هذه الحياة الأولى ، وأن كل حكمته من الخلق تتم فيها .

وهذا التوهم فيه اتهام لحكمة الخالق بالعبث ، وهو ما سبق أن ناقشنا به منكري اليوم الآخر قبل أن نطرح توهماتهم للمناقشة ، وذلك لأن منحة العقل ، والإرادة الحرة ، وبعض القدرة على التنفيذ تستلزم المسؤولية ، وإلا نجم عنها الفساد الذي لا حدود له دون غاية ، وهو أمر ينافي الحكمة ، والمسؤولية تستلزم المحاسبة والجزاء ، وإلا كانت مسؤولية شكلية لا قيمة لها ، وهو أمر ينافي الحكمة أيضاً ، والجزاء يقتضي العقاب والثواب ، وإلا كانت مسؤولية ناقصة تنهى عن الشر ولا تأمر بالخير ، أو لا تشجع على الارتقاء في درجات الفضائل ، وهو أمر ينافي كمال الحكمة أيضاً ، والله تبارك وتعالى قادر حكيم منزَّه عن النقص في ذاته

وصفاته وأفعاله ، فلا يصدر عنه سبحانه إلا الكمال ، ولا تكون أفعاله إلا مطابقة لكمال الحكمة .

وقد سبق أن عرضنا دفع القرآن لهذا التوهم ، واستشهدنا بعدة نصوص قرآنية .

منها قول الله تعالى في سورة (المؤمنون/23 مصحف/74 نزول):
{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ}

ونصوص أخرى نفى الله فيها عن نفسه أن يكون قد خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، أو خلقها على سبيل اللهو واللعب ، بل خلقها لحكمة ، وهذه الحكمة تقتضي مسؤولية الإنسان ومن على شاكلته ، والمسؤولية تستلزم الجزاء بالثواب وبالعقاب ، وظروف الجزاء الكامل غير موجودة في هذه الحياة الدنيا ، فلا بد من حياة أخرى يكون فيها هذا الجزاء .

ولا ننسى أن هذا التوهم قد ورد في مقالات منكري الحياة الآخرة ، وقد حكى الله مقالتهم التي تنم عن هذا التوهم من توهماتهم ، فقال تعالى في سورة (الدخان/44 مصحف/64 نزول):
{إِنَّ هَـٰؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا ٱلأُوْلَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ}

وحكاها أيضاً في نصوص أخرى سبق الاستشهاد بها .

***التوهم السادس :**
توهم المنكرين عدم إمكان تلقي الرسل الأخبار عن الله تعالى ، وعدم معرفتهم شيئاً من الغيب .

وقد عرض الله مقالة منكري الحياة الأخرى المشتملة على هذا التوهم من توهماتهم ، فقال تعالى في سورة (سبأ/34 مصحف/58 نزول):
{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلاَلِ ٱلْبَعِيدِ}

وكان مطلبهم أن ينزل الله ملائكة يبلغونهم الأخبار عنه ، أو يرون الله ويخاطبهم خطاباً مباشراً ، وقد ذكر الله مطلبهم هذا بقوله تعالى في سورة (الفرقان/25 مصحف/42 نزول):
{وَقَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيۤ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً}

والرد على أصحاب هذا التوهم يأتي ببساطة ، ويتلخص بأن وعد الله بالدار الآخرة والحياة بعد الموت جاء على ألسنة الرسل المؤيدين بالمعجزات الباهرات ، والله سبحانه لا يؤيد بمعجزاته من يكذب عليه ، وبأن

الله يستحيل عليه – سبحانه – الكذب في الأخبار ، وقد أخبرنا في كتابه المنزل بذلك .

ولا تعدو مناقشة هؤلاء المناقشة حول الرسل والكتب واستحالة الكذب على الله تعالى ، وأن لله أن يصطفي من يشاء من عباده ، لتبليغ رسالاته للناس ، وأن يتخذ ما يشاء من وسائل لإعلام رسله برسالاتهم ، وإعطائهم ما يكون حجة لهم أمام الناس ، حتى يصدقوهم ويثقوا بأخبارهم .

هذا إحصاء توهمات منكري الحياة الآخرة ، وما فيها من جزاء بالثواب وبالعقاب .

وبعد إسقاط هذه التوهمات ودفعها ، وبيان أنها لا تصلح بحال من الأحوال لأن تكون مستنداً لرفض الإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء ، من قبل المعترفين بوجود الخالق العظيم لهذا الكون ، وبعد هذا الحصار الفكري للمنكرين حصاراً تاماً ، لا يبقى لهم مخرج إلا طريق الإيمان والتسليم ، إذا كانوا حريصين على احترام عقولهم ، وحذرين من عاقبة إنكارهم . أما إذا لم يكن لديهم هذا الحرص وهذا الحذر فباستطاعتهم أن يظلوا جاحدين بوقاحة ، ومنكرين بعناد لا مبرر له ، ومورطين أنفسهم بكبرهم في إصرار من ورائه عذاب شديد ، وشقاء لا نهاية له ، ثم إنهم لا يظفرون بأي كسب مادي أو نفسي لحياتهم الدنيا من جراء هذا الإنكار ، إلا أوهام الاستكبار والعناد ، والرغبة بالانطلاق في الجرائم والآثام ، دون أن ت تحرك قلوبهم بالخوف من مغبة ما يفعلون .

ولقد كشف الله عن هذه الدوافع التي تدفع المنكرين إلى التكذيب بالحياة الأخرى .

أما الكبر الذي جعل قلوبهم تنكر ، فنجده في قول الله تعالى في سورة (النحل/16 مصحف/70 نزول):

{إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ}

وأما الرغبة بالانطلاق في الجرائم والآثام ، فنجده في قول الله تعالى في سورة (القيامة/75 مصحف/31 نزول):

{بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ}

والفجور: هو التدفق الوقح إلى فعل الشرور والآثام والجرائم ، دون رادع ، أو ضابط من دين أو ضمير .

(7)
مع العظم واستناده إلى أقوال (برتراند رسل)

بعد أن عرض الناقد (د. العظم) أقوال (برتراند رسل) التي أنكر فيها الحياة الأخرى ووجود الله تبارك وتعالى ، وعرض فيها نظرة الماديين الملحدين إلى الكون والحياة والإنسان ، والتي سبق أن نقضناها وكشفنا زيفها فكرياً وعلمياً ، قال (د. العظم) بأسلوبه التزييفي في الصفحة (27) :

"لنقارن بين هذه النظرية العلمية المجردة القاسية الباردة ، وبين القصة الدينية الإسلامية الجميلة المريحة الدافئة التي تعودنا عليها . نجد أن الغيبيات والملائكة والصلوات والمعجزات والجن تؤلف جزءاً لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته ، كذلك الأمر بالنسبة لتاريخ الإنسان ومصيره".

هذا كلامه حرفياً ، ولست أدري كيف يسمح لنفسه هذا الإنسان ومن هو على شاكلته من الملحدين أن يبلغوا هذا المستوى التافه السخيف من التدجيل والتزييف ، الذي لا يقبله صغار المثقفين ، فضلاً عن الذين أخذوا من جوانب المعرفة قدراً مناسباً ، وعرفوا مداخل الزيف .

إن ما أسماه بالنظرية العلمية المجردة القاسية الباردة ،قد عرفنا بالمناقشات العلمية التي أوردناها فيما سبق أنها فرضيات احتمالية صاغها الملحدون باسم العلم ، وليس لها براهين علمية مقبولة ، ثم تلقفها المجرمون في الأرض وأخذوا يروِّجون لها ، ويلبسونها أثواب الحقائق العلمية ، ويعطونها من قوة التثبيت ما لا تملك شيئاً منها .

فكونها نظرية دعوى باطلة ، لأنها فرضيات احتمالية لم تدعها أدلة تجعلها في مستوى النظريات .

وكونها علمية هي أيضاً دعوى باطلة ، لأن الفرضيات ظنون ضعيفة لا يصح تسميتها علماً ، لا سيما إذا كان يوجد ما يخالفها مما تدعمه الأدلة دعماً أقوى من دعمها .

وكونها مجردة قاسية باردة لا أجد له تفسيراً واقعياً إلا أنها مجردة عن المنطق السليم ، ومجردة عن أية غاية كريمة ، وقاسية على النفوس قسوة الباطل حينما يبهت الحق بتزييفه ، وباردة برود الموت الذي لا يستطيع أن يحيا .

وأدهى من ذلك وأمر ما نجده من خلط عجيب لا يفعله إلا وقح شديد الوقاحة ، أو جاهل بالدين شديد الجهل ، وذلك إذ يزعم : "أن الغيبيات والملائكة والصلوات والمعجزات والجن تؤلف جزءاً لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته ، كذلك الأمر بالنسبة لتاريخ الإنسان ومصيره".

فهل يجد أحد في الدين أن الصلوات كان لها أثر في نشأة الكون وطبيعته؟

هل يجد أحد في الدين أن الجن جزء لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وخلقه في عقيدة المسلمين؟ هل ساهم الجن في نشأة الكون وخلقه؟

هل يقول مثل هذا أحد من جهلة المسلمين فضلاً عن علمائهم؟

إن الدين يقرر أن الكون قد نشأ بخلق الله له ، ضمن نظام الأسباب والمسببات ، التي إذا اكتشف الباحثون شيئاً منها سمَّوها قوانين طبيعية .

فما هذا الخلط العجيب المفترى على الدين؟! ما هذا الخلط العجيب الذي لا نجد له مثيلاً إلا في أوكار الحشاشين ، أو في مستشفى المجانين؟ أو في أقوال المهرجين؟!

قد يكون عذره أنه لم يقرأ إلا كتب الماركسيين ، ودسائس اليهود وأجرائهم ، ولم يسمع إلا أقوال هؤلاء وأولئك في التهكم على الدين ، فظنها فعلاً مفاهيم إسلامية ، فحملها حملاً ببغاوياً وكتبها في مقالاته مقابل أجر معلوم ، دون أن يرجع إلى المصادر الإسلامية ويحقق فيها .

ولكن هل هذه طريقة باحث علمي أكاديمي يكتب نقداً وينشره بين جماهير المثقفين ، وهو بهذا المستوى الذي لا يليق بصغار أبناء المدارس ، فضلاً عن الذين تضعهم الأوراق المختومة بين كبار الدارسين؟!

أو لعله نظر من بعيد فرأى أن المسلمين يصلون لله خالق الكون وفاطره ، ويعتقدون بأنه يوجد مخلوقات أخرى غيرهم خلقهم الله كما خلق البشر ، إلا أنهم مزودون بخصائص وصفات ليس لدى البشر نظيرها ، فمن هذه المخلوقات الملائكة ، ومنها الجن . والمسلمون يعتقدون بها تصديقاً لخبر الله ، دون أن يعتقدوا بأن لها مشاركة في تعليل نشأة الكون وطبيعته ، وإنما لها تاريخ فيه كما للإنسان فيه تاريخ ، ولها وظائف فيه ، كما للإنسان فيه وظائف ، ثم بنى (العظم) على نظرته هذه التي نظرها من بعيد إلى المسلمين وعقائدهم ، فزعم أن كل هذه الأمور جزء لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته وتاريخ الإنسان ومصيره .

إن مثل (د. العظم) في صنيعه هذا كمثل من يراقب مطبخ الجيش المحارب من بعيد ، فيرى فيه الكوسا والباذنجان وأكياس البصل وأواني الأطعمة المحفوظة وأدوات الطبخ وأسياخ شي اللحم ، فينسى وظائف هذه الأشياء فيقول : إن هذا الجيش المحارب يستخدم في حربه (الكوسا والباذنجان والبصل وعلب الطماطم) ويعدد ما شاهد في مطبخ الجيش ، ثم يقول : إن هذه الأشياء تمثل عند عدونا جزءاً لا يتجزأ من القيادة العامة للجيش .

كان باستطاعته ما دام قد وصل إلى هذا الحد من السخافة الفكرية النقدية أن يضيف أشياء كثيرة لا حصر لها من الدين ، ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته وتاريخ الإنسان ومصيره ، فله أن يضيف مع الصلوات التي ذكرها الزكاة والصوم والحج وتحريم الربا وتحريم الخمر والميسر ، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل ، وتحريم الغش ، وتحريم العدوان والظلم وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأن يضيف مع الملائكة والجن جميع الحيوانات والنباتات التي خلقها الله ، والجبال والأوديان والأنهار والسحاب والليل والنهار والسماء والأرض ، فكلها مذكورة فعلاً في القرآن ، ولكن لكل منها مناسبة ، ولكل منها موقعاً ، ولا علاقة لها بتعليل نشأة الكون وطبيعته ، وإنما هي أجزاء موجودة في الكون تحتاج هي إلى تعليل ، وليست جزءاً من التعليل .

فيا لهذا من مغالطة متهافتة جداً ، تكشف لأصغر طلاب المدارس زيف كاتبها ، إذا كان لديه ولو قدر يسير من المعرفة الدينية .

* * *

الفصل السابع

مع "برتراند رسل" و"فرويد"

إمـامي العظـم

(1)

من غريب ما شهدت في أقوال الناقد (د. العظم) في كتابه "نقد الفكر الديني" ظاهرة داء التعصب المذهبي لأقوال قادة المذهب المادي الإلحادي ، لا سيما واضعو النظريات الإلحادية المادية من اليهود ، كأنه لا يكاد يرى علماً إلا ما قالوه ، ولا يكاد يمجد نظرية أو رأياً إلا ما ينسب إليهم ، ولا يكاد ينظر إلى مدرسة علمية في العالم غير المدارس التي تنسب إليهم ، حتى كأن أقواله فيهم أقوال عاشق مشغوف بحب لا أقوال باحث علمي دارس للعلوم وعارف بمختلف النظريات .

أتُراها هي العمالةُ وأعمالها المأجورة تفعل كل هذا؟ أم الغفلة والفتنة والتعصب الأعمى؟

إنه ليس من قبيل المصادفة أن يتعمَّد التنويه بأسماء اليهود الذين وضعوا الآراء والمذاهب الإلحادية ، وصنعوا لها ما أسموه بنظريات علمية ، فصاغوا مذاهبهم (نظرياتهم) في الاجتماع ، وفي الاقتصاد. وفي المادية الجدلية ، وفي الدراسات النفسية .

وليس من قبيل المصادفة أن نراه لا يلفت الأنظار بقوة إلا إلى نظرياتهم ، أن العلم الحديث كله ، ومنجزات الحضارة منحصرة فيما قدم هؤلاء من دراسات لم تحظَ في عالم العلم بالقبول التام ، أو لم تؤيد حتى الآن بالبراهين العلمية القاطعة .

ففي الصفحة (20) من كتابه يشيد بكتاب : "أصل الأنواع" لداروين ، ومعلوم أن نظرية داروين قد تبناها اليهود وأذاعوها وأشادوا بها لخدمتها لأغراضهم ، وهو يشيد بكتاب : "رأس المال" لكارل ماركس ، وهو يهودي .

ويكرر في صفحات كتابه الإشادة بالداروينية ، ويسميها النظرة العلمية ، ويكرر الإشادة بالماركسية أو ما يسمى بالاشتراكية العلمية .

وفي الصفحة (39) من كتابه يشيد باليهود الثلاثة : دوركهايم وفرويد وماركس .

وفي الصفحة (41) يشيد ينظرية المادية الجدلية ، ونظرية دوركهايم في الطقوس والعبادات الدينية ، كأنها حقائق علمية لا خلاف عند العلماء فيها .

وفي الصفحة (42) يشيد بالثورة الفرنسية ، وقد أصبح معروفاً تماماً أن اليهود هم الذين صنعوها ، لتحقيق أغراض اليهودية العالمية[1].

وفي الصفحة (43) ينتقد الفكر الإسلامي المرحوم الشهيد (سيد قطب) لأنه رفض نظرية التطور العضوي ، أي : نظرية داروين ، ولأنه رفض نظرية فرويد في مجال الدراسات النفسية ، ولأنه رفض الماركسية أو الاشتراكية العلمية . ثم أخذ (العظم) يمجد ويشيد بهذه النظريات ، كأنه لا يوجد في عالم العلم نظريات علمية غيرها ، وكأن المفروض في كل الناس أن يكونوا مثله مقلدين لأئمته اليهود الذين يقلدهم هو تقليداً أعمى . مقروناً بتعصب شبيه بتعصب الجاهلية الأولى ، بل هو أشد خطراً وأكثر ضلالة ، وكأن المفروض في كل الناس أن يكونوا مثله عشاقاً للقيادات اليهودية العالمية ، أعداء الإنسانية عامة ، وأعداء الأمة الإسلامية والأمة العربية الخاصة .

ففي انتقاده للمرحوم الشهيد (سيد قطب) يقول في الصفحة (42-43) ما يلي:

"في الواقع يذهب سيد قطب إلى أبعد من ذلك في أفكاره التوفيقية ، فيرد المنهج العلمي التجريبي إلى روح الإسلام ، ويعتبر المنهج الإسلامي الأساس الذي قامت عليه النظرة التجريبية العلمية الحديثة ، وليتبين لنا مدى نجاح هذا التوفيق الشامل بين الدين والعلم ما علينا إلا أن نتابع تفكير السيد قطب ، لنجد أنه بعد مفاخرته بأن المنهج الإسلامي هو الأساس الذي قام عليه المنهج العلمي التجريبي نراه يرفض رفضاً باتاً أهم النتائج التي توصل إليها هذا المنهج ، لأنها تتناقض مع العقائد الدينية ، إنه يرفض نظرية التطور العضوي ، مع أنها توَّجت البحوث العلمية في علم الحياة ، ونظرية فرويد مع أنها من أهم النتائج التي توصلت إليها البحوث العلمية في مجال الدراسات النفسية ، ويرفض الماركسية أو الاشتراكية العلمية ، مع أنها أهم نظرية شاملة صدرت في العلوم الاجتماعية والاقتصادية في العصور الحديثة . أي : إن السيد قطب يرد المنهج العلمي إلى المنهج الإسلامي ، ولكنه يريد أن يبرئهما من جميع التبعات التاريخية الناتجة من قيام العلم ، وأن ينكر كل ما يلزم عن مقدمته الكبرى من نتائج . ولذلك نراه يرد على كل ما تمخض عنه المنهج العلمي من نظم ونظريات علمية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، ذلك على الرغم من يقينه أن الجذور التاريخية لكل ذلك تمتد إلى المنهج الإسلامي".

هذا ما كتبه (د. العظم) في نقده للمرحوم (سيد قطب).

فما أعجب ما اشتمل عليه كلامه من مغالطات!! هل يلزم من الاتفاق على سلوك المنهج العلمي الواحد التسليم بكل النتائج التي يتوصل إليها جميع الباحثين ؟

ألا يحتمل وجود خطأ أو نقص في البحث؟

---

[1] انظر كتاب : "مكايد يهودية عبر التاريخ"، للمؤلف .

إننا نشاهد عدداً من الباحثين يتفقون على منهج البحث ، ثم يختلفون في النتائج اختلافاً بيناً ، وقد يكون الاختلاف متناقضاً تماماً .

إذا كان الأمر كما يزعم (د. العظم) فعلينا إذن التسليم بكل النظريات المتعارضة المتناقضة التي تقول بها المدارس العلمية في العالم ، لأنها كلها تعتمد المنهج العلمي التجريبي أو النظري ، ففي الاقتصاد علينا أن نسلم بالنظريتين المتناقضتين : الرأسمالية والاشتراكية العلمية ، وفي السياسة علينا أن نسلم بالنظريتين المتناقضتين : الديمقراطية والديكتاتورية .

إن هذا هراء سخيف لا يقول به عاقل . إن عدداً من الذين يحلون مسألة رياضية قد يختلفون في النتائج ، على الرغم من أنهم يلتزمون قوانين رياضية واحدة ، وهذا يرجع إلى كبوات الخطأ التي قد يقع بعضهم فيها ، فكيف يكون الأمر في الموضوعات الاستنتاجية التي لا يملك الباحث العلمي بالنسبة إليها وسائل تجريبية ، كفرضية (داروين) بالنسبة إلى خلق الإنسان ، وكفرضية (فرويد) في مجال الدراسات النفسية ، على أنه توجد مدارس نفسية أخرى تعارض ما ذهب إليه (فرويد) فهل هذه المدارس العلمية كلها ملزمة برأي (فرويد) إكراماً لعواطف الناقد (د. العظم) نحو إمامه هذا؟ وهل المدارس الاقتصادية في العالم ملزمة بالأخذ بالاشتراكية العلمية ، إكراماً لعواطف (د. العظم) نحو إمامه في مجال الاقتصاد ، اليهودي (كارل ماركس)؟

إن هذا المنطق الإلحادي المتعصب تعصباً أعمى أصم لا يستحق عند العقلاء أكثر من السخرية . ومع ذلك فإننا نحن المسلمين لا نسلك هذا الطريق ، بل نناقش بالمنطق والعقل ولا نسخر ، ونرتقي في الجدال مع الخصوم ومع الأعداء الصرحاء إلى المستوى الجدلي العاقل الرصين ، احتراماً للحقيقة التي نبحث للوصول إليها ، ولتأييدها والتبشير بها ، واحتراماً لمفاهيمنا ومبادئنا التي لا هزل فيها ، ولا تدفع إليها أغراض شخصية ، بل هي مبادئ الحق التي تنزلت بها شريعة الله للناس .

وفيما يلي دراسة موجزة لإمامين من أئمة (العظم) الملحدين ، هما (برتراند رسل) و(فرويد).

(2)
مع برتراند رسل

اعتمد (العظم) في دعوته إلى الإلحاد على أقوال الفيلسوف الإنجليزي الملحد (برتراند رسل) الذي مات عام 1970 م ، بعد أن عاش قرابة قرن كامل .

إن هذا الفيلسوف على الرغم من سعة علمه ودراسته ، وعلى الرغم من أنه أمضى كل حياته باحثاً دارساً ، فإنه لم يهتد إلى تكوين فلسفة متكاملة كان يصبو إلى بلوغها .

وكان من الطبيعي أن لا يهتدي إلى فلسفة متكاملة بعد أن اتجه في طريق معاكس للحقيقة ، إذ اختار لنفسه طريق الإلحاد والكفر بالله . إنه لو عاش مئة قرن أو أكثر يبحث عن فلسفة متكاملة وهو ملتزم طريق الإلحاد فإنه لن يصل .

إن الباطل متاهة يضل فيها أزكى الناس وأعلمهم ، ما دام مصراً – لهوى في نفسه – أن يحيد عن الطريق التي سلكها من قبله جماهير العقلاء ، إنه لن يجد هذه الفلسفة المنشودة في المتاهة الفكرية التي سلكها بعيداً عن الطريق ، لأنه متى اهتدى فلا بد أن يعود إلى الطريق ، بيد أنه مصر على أن يظل بعيداً عنه فكيف يهتدي؟.

إنه سيستمر في المتاهة ، وسيظل باحثاً عن فلسفة متكاملة في مكان لا توجد فيه هذه الفلسفة ، شأنه في هذا كشأن من يحفر في جوانب الصخرة الصماء ليجد فيها عين ماء تُروي ظمأه ، وهذه الصخرة منقطعة عن الأرض من كل جوانبها ، فهي لا تتصل بأي عرق من عروق الماء .

ونظراً إلى واقع حال (رسل) التائه عن الحقيقة استطاع البروفسور (ألان وُود) أن يقرظه بقوله :

"برتراند رسل فيلسوف بدون فلسفة".

واقتباساً مما كتبه المفكر الإسلامي (وحيد الدين خان)[1] ، أجمع هذه الدراسة عن هذا الفيلسوف الملحد .

ذكر وحيد الدين خان أنه قرأ كل أعمال "برتراند رسل" واستطاع بعد قراءتها أن يلتقط من أقواله ما يكشف عن النهايات الفكرية التي انتهى إليها .

إنه بعد أن درس الفيزياء ، وعلم الحياة ، وعلم النفس ، والمنطق الرياضي ، انتهى إلى أن مذهب "التشكيك (في الوجود) مستحيل نفسياً" ومع ذلك فإن الإنسان عاجز عن أن يحيط إلا بأقل قدر من المعرفة ، ويقول بالنسبة إلى الفلسفة : "تدَّعي الفلسفة منذ القدم ادعاءات كبيرة ، ولكن حصيلتها أقل بكثير بالنسبة إلى العلوم الأخرى".

وما اعترف به (رسل) بعد دراسة طويلة ذكره القرآن بتعبير بسيط ، إذ قال الله تعالى في سورة (الإسراء/17 مصحف/50 نزول):

{....وَمَآ أُوتِيتُم مِّن ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}.

---

[1] في كتابه : "الدين في مواجهة العلم".

ويتضمن هذا البيان القرآني أن الإنسان لم يؤتَ من الوسائل العلمية التي يمكن أن تعرِّفه بالحقيقة إلا قدراً محدوداً جداً ، بيد أن الحقائق في الوجود كثيرة جداً ، ومن المتعذر على الوسائل المحدودة أن تدرك من الوجود الواسع إلا على مقدارها ، وكل زيادة على مقدارها دون مستند خارجي عنها يعتبر تكهناً ، وضرباً من الظن الاحتمالي الضعيف ، وهذا الظن لا يغني من الحق شيئاً .

فعجز الإنسان عن الوصول إلى معارف واسعة من حقائق الكون الباطنة يرجع إلي أن وسائله العلمية لا تستطيع أن تشاهد إلا ظواهر تأخذ منها علماً وصفياً للسطوح الظاهرة ، أما الحقائق الباطنة فلا سبيل إليها إلا عن طريق التفسير الاستدلالي أو الاستنتاجي ، وهذا التفسير الاستنتاجي لا يستطيع أن يحدد ماهية الحقيقة ، إنما قد يستطيع أن يشير إليها إلى بعض صفاتها وخصائصها .

ويقول (رسل): "إن تصورنا العملي للكون للكون لا تدعمه حواسنا التجريبية ، بل هو عالم مستنبط كلياً".

ويبلغ الأمر به إلى أن يقول : "إن أفكار الناس لا توجد إلا في مخيلاتهم فحسب" أي : إن التجربة لا تستطيع أن تثبت مطابقة هذه الأفكار للواقع .

وانتهى (رسل) أيضاً إلى أن التجربة أعطيت لها أكبر أهمية ، ولذلك يجب أن تخضع "التجريبية" كفلسفة لتحديات هامة .

يقول هذا حتى في النظريات والقوانين العلمية ، ومع ذلك فإنه يختار لنفسه مذهب الإلحاد ، ويعتمد على افتراضات لا يمكن إخضاعها للتجربة بحال من الأحوال ، وذلك بالنسبة إلى نشأة الكون والحياة ،ويرجح الداروينية مع أنها وجهة نظره فكرة استنباطية لا تدعمها التجربة ، ولا تزيد على أنها فكرة في مخيلات أصحابها .

وحين اعتمد (د. العظم) على أقوال (رسل) في نشوء الكون وتطوره ونشوء الحياة وتطورها ، إنما اعتمد على قول إنسان يرى أن ما يقوله في هذا المجال لا وجود له إلا في عالم التخيلات الإنسانية فحسب .

فكيف يصح له أن يستهين بعقول شبابنا وثقافة القارئ العربي ، فيزعم بعد أن عرض القطعة الأدبية التي كتبها "رسل" عن قصة الكون ونشأة الحياة ، أن (رسل) يلخص بكل بساطة النظرة العلمية الطبيعية للقضايا التالية: نشوء الكون وتطوره – نشوء الحياة وتطورها – أصل الإنسان ونشأته وتطوره – النهاية الحتمية لجميع الأشياء وهي العدم وأنه لا أمل لكائن بعدها بشيء؟

أهذه هي النظرة العلمية التي يعتقد المنقولة عنه أنه لا وجود لها إلا في مخيلة القائلين بها ، وليس لها مستند من الواقع يدعمها؟

ولكن هكذا راق لـ(د. العظم) أن يضلل . لقد قرر أنه لا وجود للحق والعدل والروح والجمال والخالق ، كما صرَّح بذلك في الصفحة (38) من كتابه ، لذلك فلا مانع عنده من أن ما يراه (رسل) تخيلاً يصح أن يطلق عليه عبارة النظرة العلمية المحققة ، فالقضية عنده لا تزيد على أنها وسائل دعائية جدلية لدعم مذهبه الإلحادي ، أما أن يكون الكلام حقاً أو باطلاً ، صدقاً أو كذباً ، قضية علمية أو تصوراً تخيلياً . فهذا غير مهم ألا يمكن أن يكون طرح مثل هذا التزييف وسيلة لتضليل بعض الناس؟ ألا يمكن أن يكون مثل هذا التزييف شبكة لصيد بعض المغفلين ، حتى يكونوا جنوداً مسخرين في أيدي المنظمة الإلحادية العالمية ، التي تعمل لخدمة مصالح معينة لفئة خاصة من الناس؟

لكن معظم شبابنا سيكتشفون بسرعة هذا الزيف ، وسيسخرون منه ، وسيقابلونه بالتحدي العلمي الذي تقوم عليه مبادئ الإسلام .

(3)

ويقول (رسل) أيضاً: "لقد وجدت أن معظم الفلاسفة قد أخطأوا في فهم الشيء الذي يمكن استنباطه بالتجربة فحسب ، والشيء الذي لا يمكن استنباطه بالتجربة".

ويقول أيضاً: "لسوء حظنا لم تعد الطبيعة النظرية تحدثنا اليوم بالثقة الرائعة نفسها التي كانت تحدثنا بها في القرن السابع عشر . لقد كانت لأعمال (نيوتن) أربعة تخيلات أساسية: المكان والزمان والمادة والقوة . وقد أصبحت هذه العناصر نسياً منسياً في علم الطبيعة الحديث . فقد كان الزمان والمكان من الأشياء الجامدة والمستقلة عند (نيوتن) والآن قد تم استبدالهما بما يسمى "المكان – الزمان" والذي لا يعتبر جوهرياً أساسياً ، وإنما هو نظام للروابط ، وأصبحت (المادة) شكلاً لسلسلة الوقائع ، وأصبحت (القوة) الآن (الطاقة) والطاقة نفسها شيء لا يمكن فصله عن المادة الباقية . والسبب كان هو الشكل الفلسفي لما كان يسميه علماء الطبيعة بالقوة ، وقد أصبح هذا التصور قديماً ، إن لم أقل : إنه قد مات فعلاً ، إلا أن هذه الفكرة لم تعد قوية كما كانت من قبل".

فهذا هو (برتراند رسل) يرى أن التفسيرات التي يفسر بها العلماء الماديون ظواهر الطبيعة تفسيرات لا تمثل الحقيقة الواقعة تمثيلاً يوثق به ، وهذه التفسيرات تخضع للتغير وفق اختلاف النظرات التي يراها الباحثون .

ويقول أيضاً: "إنه قد توصل بعد دراسات استنفدت كل عمره إلى أن الاستنباط الذي لا يمكن إيضاحه يعتبر أيضاً مقبولاً وجائزاً ، وعند رفض هذا

النوع من الاستنباط سوف يصاب النظام الكامل للعلوم والحياة الإنسانية بالشلل".

ويقول أيضاً: "إن العلوم تشمل كلا العالمين : الحقيقي والعالم المتخيل وجوده . وكلما تقدم العلم ازداد فيه عنصر الاعتقاد ، فبعض الأشياء في العلوم حقائق مشاهدة ، ولكن الأشياء العليا تجريدات علمية يتم استنباطها بناءً على المشاهدة . والحقيقة أنه لا يمكن رفض مذهب الشك الكلي إطلاقاً ، إلا أنه مع ذلك يصعب قبول التشكيك الكلي في نفس الوقت".

ويقول أيضاً: "إنه لا يمكن الادعاء بالقطعية (في النظريات أو الآراء) على النحو الذي سار عليه الفلاسفة المتسرعون بكثرة وبدون جدوى".

فمن هذه الأقوال المقتبسة مما كتب (رسل) نلاحظ أن فلسفته تعتمد على الاعتراف بأن العلوم متى تجاوزت منطقة المدركات الحسية فإنها لا تملك معارف يقينية ، ولكن مع ذلك لا بد من قبول هذه المعارف التي يتوصل إليها بالاستنباط وإن لم تكن يقينية ، لئلا تتعطل الحياة العلمية وتقف عن الإنجاز ، إذ لا سبيل إلى اليقين فيها .

هذا هو مذهبه الفلسفي ، فليس هو من الذين لا يقبلون إلا ما يدرك بالحس المباشر أو غير المباشر ، وإنما يجعل ما يقبله من تفسيرات علمية مقبولاً بصفة ترجيحية ، لضرورة العجز عن الوصول إلى اليقين .

فما الذي صده عن الإيمان بالله ، والأدلةُ الاستنباطية الترجيحية عليه أقوى بكثير من التخيلات الأخرى التي يفسر بها الملحدون نشأة الكون وتطوره ، ونشأة الحياة وتطورها؟

هنا تظهر عقدة الهوى والتعصب ضد الدين عند (رسل) وعند سائر الملحدين ، وهذا التعصب لا تدعمه أدلة مرجحة لقضية الإلحاد ، بل ليس للإلحاد في الحقيقة أي دليل غير مجرد سفسطات وتخيلات تقوم في رؤوس أصحابها فقط ، إن التفسير البديل لقضية الإيمان بالخلق الرباني إنما هو فرضية الارتقاء وأزلية المادة ، أما أزلية المادة فقضية مرفوضة علمياً ، وأما الارتقاء فيعبر عنه السير "آرثر كيث" من علماء هذا العصر بقوله : "الارتقاء غير ثابت ، ولا يمكن إثباته ،ونحن نؤمن بهذه النظرية لأن البديل الوحيد هو (الإيمان) بالخلق المباشر ، وهو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه".

وإذا تساءلنا لماذا لا يمكن التفكير فيه؟ كان الجواب الوحيد : لأنه لا يسمح له هواه بأن يعترف بالله الخالق ، وبأن يخضع له بعد ذلك خضوع العبادة والطاعة .

فتمرده وتمرد نظرائه تمرد المستكبرين المعاندين ، لا ضلال الجاهلين الذين لم تكشف لهم أضواء المعرفة طريق الحق .

و(د. العظم) حمّالُ أثقال في مؤخرة ركب الملحدين ، يردد ما يقولون ، وينعق بما يهرفون .

ما أعجب سلطان الهوى ، وسلطان التعصب ، وسلطان الالتزام بالمبادئ الحزبية على الناس .

إن هذه المؤثرات التي تجنح عنهم عن سواء السبيل تسوقهم إلى الشقاء الأبدي والعذاب الأليم ، وتجعلهم يؤثرون الضلال على الهدى ، والظلمات على النور .

(3)
مع فرويد

إني لأعجب أبلغ العجب حينما أجد مثقفاً عربياً يندفع في تمجيد أمثال (فرويد) وهو يعلم أنه يهودي متعصب ليهوديته ، وصديق حميم لهرتزل مؤسس الصهيونية الحديثة .

أفلا يخطر على باله ولو من قبيل الشك والحذر ، أن التحليلات النفسية التي قدمها (فرويد) تحت ستار الدراسة العلمية المتجردة ، إنما صاغها على الوجه الذي قدمها به ليخدم القضية اليهودية الصهيونية في العالم؟.

أفلا يخطر على باله أن الإلحاد الذي أعلنه لم يكن أكثر من طرح نظري جدلي ، ليفتن الناس به ، وهو في حقيقة وجداني يهودي صميم شديد التعصب ليهوديته ، يخدم عن طريق ستار العلم أغراض الصهيونية؟

وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون متهماً في كثير من تحليلاته وآرائه ، وما على الباحثين إلا أن يعيدوا النظر ألف مرة في كل رأي علمي قدَّمه .

فهل يعقل أن يكون صهيوني متعصب ذو أهداف سياسية معلومة ، وأغراض عالمية مرسومة ، تكيد لجميع الشعوب غير اليهودية بلا استثناء ، أميناً على العلم والمعرفة ، صادقاً متجرداً في كل ما يقدم للناس ، لا سيما في أمور نظرية بحتة لا يملك الباحثون فيها أدلة تجريبية تقدم نتائج يقينية؟

على أن هذا التصور الذي يتصوره أي عاقل من قبيل الشك والحذر ، قد أثبته باحثون متتبعون لحياة (فرويد) ولآرائه في مجال الدراسات النفسية وفي غيرها .

ومن الذين تتبعوه : (د. صبري جرجس)[1] وقد وضع هذا الباحث أصابعه على كثير من آراء (فرويد) المقتبسة من جذور التراث اليهودي الصهيوني ، وأوضح في كثير من المناسبات ما يجعل كثيراً من آرائه (نظرياته) محلاً للريبة أو الجزم بأنه إنما وضعها لخدمة أغراض اليهودية العالمية ، ولم يضعها على أساس دراسات علمية متجردة ، ثم حملت الدعايات اليهودية العالمية آراءه (نظرياته) وروجت لها في جميع الأوساط العلمية والثقافية . ثم وضع اليهود كل ثقلهم الكيدي لجعلها معارف علمية تدرس في الجامعات العالمية ، على أنها فتح في ميادين العلم ، وذلك ضمن الخطط اليهودية المرسومة ضد شعوب العالم ، ولمصلحة الشعب اليهودي فقط . ثم رفعت وسائل الإعلام اليهودية العالمية (فرويد) إلى منزلة غير عادية ، وحمله ملاحدة الشعوب غير اليهودية على رؤوسهم ، وداروا به في الآفاق تمجيداً وإكباراً .

مع العلم بأن الإلحاد الذي أعلنه (فرويد) لم يكن إلا خطة سياسية أخفى بها أهدافه اليهودية الصهيونية . كما فعل اليهود بنظرية (داروين) ، وكما فعل (دوركهايم) في بحوثه العلمية التي قدَّمها باسم البحث العلمي وتحت ستاره . ليخفي أغراضه اليهودية الخاضعة لخطط مرسومة من قبل القيادات اليهودية السرية في العالم .

ومن تتبعات (د. صبري جرجس) اقتبس معظم الدراسات التالية عن (فرويد):

يقول (فرويد) عن نفسه : "ولدت في 6 مايو 1856م في مدينة (فريبورج) بمقاطعة (مورافيا) بجمهورية تشيكوسلوفاكيا الحالية ، وقد كان والداي يهوديين ، وظللت يهودياً أنا نفسي".

ويعلق الكاتب على قوله : "وظللت يهودياً أنا نفسي" بأن في قوله هذا إيماءً واضحاً بأنه لم يتخل يوماً عن يهوديته ، على الرغم من إعلانه للإلحاد لأن إلحاده هذا لم يكن إلا إلحاداً ذهنياً ، لم يصل قط إلى وجدانه ، ولم يغير شيئاً من محتويات ذلك الوجدان واتجاهاته .

ونقل الكاتب عن (شويزي) – وهي محللة من خاصة (فرويد) وذات معرفة به وصلة وثيقة – أن إلحاد (فرويد) لم يكن إلا إلحاداً زائفاً ، لأنه تركه بعد ذلك متشبثاً باليهودية الصهيونية ، وفياً لها ، سائراً في طريقها ، منفذاً لمخططاتها .

وبدهي أن ندرك أمام هذا أن إلحاده المزيف إنما هو عملية من عمليات المخادعة اليهودية ، لترويج مصنوعات الفكرية في أسواق معاهد العلم والثقافة ، وأنديتها ، ونشراتها ومؤلفاتها وسائر وسائل إعلامها وهذه المصنوعات الفكرية تحمل في طياتها ألغام نسف الحقائق الفكرية الأصيلة الثابتة لدى الشعوب ، بغية خدمة المخططات اليهودية العالمية .

---

[1] في كتابه : "التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي".

وقد انخدعت بمكيدته مدارس كثيرة من مدارس التحليل النفسي ، وزعمته باحثاً حيادياً ، ومكتشفاً مبدعاً في مجال دراساته التي قدمها ، وكان للعصابة اليهودية التي انتمت إلى مدرسته أثر عظيم في الترويج لأفكاره وآرائه . وكان من ورائها أجهزة الإعلام اليهودية المنبثة في العالم .

ويؤكد الكاتب المتتبع فيقول : "وليس في حياة (فرويد) ما يومئ بأنه قد تخلى يوماً عن يهوديته ، بل إن فيها ما يؤكد تمسكه بها ، واستغراقه فيها إلى درجة غير مألوفة".

ثم عقد المشابهة بين إلحاده وإلحاد (بن غوريون) وغيرهما من اليهود الذين يعلنون عن إلحادهم ، وذكر أنه مثل إلحاد فرويد في ذاته ، ومن خصائصه أنه لا يرى حرجاً أو تناقضاً في الجمع بين إنكار الله وبين الإيمان بدعوة دينية عنصرية متعصبة تستند إلى كتاب مقدس .

ثم فرق الكاتب بين (بن غوريون) و(فرويد) ، فقال : "ولعل الفارق بينهما أن (بن غوريون) أعلن عن إلحاده ، ثم اتجه في الوقت نفسه إلى العمل السافر من أجل الدعوة العنصرية المتعصبة ، بينما جعل (فرويد) من إلحاده قناعاً يحاول أن يخفي وراءه الوجه القبيح لهذه الدعوة".

وذكر الكاتب : أن (فرويد) كان يعتز جداً بيهوديته ، وكان على معرفة متضلعة بالحياة اليهودية ، وبالجوانب العقائدية لها ، وبالطقوس الخاصة بها ، وكان يرجع إلى التوراة ويقرؤها ويعجب بما فيها من فكر وفلسفة ، وهذا على خلاف ما أعلنه من إلحاد مزيف .

ألا فليعلم (د. العظم) وسائر ملحدي العرب وغير العرب الذين يتنكرون لدينهم أمتهم هذه الحقائق عن (فرويد) وأمثاله قبل أن يتبعوهم .

وقصة التظاهر بالإلحاد من قبل المضللين اليهود وغيرهم قصة متكررة معروفة ومدروسة ، وهي خطة من خطط المكر بأبناء الأمم الأخرى .

ففي الوقت الذي يكون فيه اليهودي متعصباً شديد التعصب لدينه ، شديد الإيمان به ، والثقة بتعاليمه ، يرى من وسائل خدمة دينه وخدمة الشعب اليهودي ، وخدمة أهدافه السياسية ، أن يتظاهر بالإلحاد وإنكار الله ، وبعدم تمسكه بالدين ، ثم يقدم في أوساط أبناء الأمم الأخرى أفكاراً ومذاهب وعقائد مناقضة لما في الدين ، ويزينها بزخرف من الصياغة النظرية ، ويُلبسها أثواب البحث العلمي المتجرد ، لتفتتن بها الأجيال الناشئة ، وتتلقفها دون أن تشعر بالحذر من أغراض صاحبها ، لأن صاحبها لا ينتمي فكرياً كما أعلن إلى أي دين حتى يتعصب له ويعمل من أجله .

وهكذا تنطلي الخديعة ، ويدخل المكر على أبناء الأمم ، فيتركون أديانهم بحماسة ، ويقاومونها بشدة ، ويحملون آراء المضلل على رؤوسهم ، على أنها حقائق علمية لا تقبل النقض ولا المعارضة ، ويُضفُون عليها من القدسية العلمية ثوب إجلال وإكبار ، ويروجون لها في أسواق العلم ، وأندية الثقافة ، وأوكار الأحزاب المتصلة بواضعي الخديعة والمخططين لها ، ويكونون جنوداً صادقين في خدمة أفكار المضلل وآرائه ، مع العلم بأنه هو غير صادق فيها ، وإنما اتخذها وسيلة لخدمة غاية أخرى قد وضع عليها قناعاً كثيفاً ، ليستُرها عن جنوده وأتباعه ، ومروجي آرائه ، ومنفذي مخططاته وهم لا يعلمون ، أو هم يعلمون ولكنهم مستأجرون .

(4)

نشأ (فرويد) نشأ يهودية مغلقة ، تلقى فيها كل سمات الناشئ اليهودي ، في أسرة شديدة التمسك بيهوديتها .

يقول (د. جرجس) : "وإذا شئنا في هذا الصدد الاستعارة من الفكر الفرويدي نفسه ، وبالتحديد ما أكده من أهمية السنوات الأولى من حياة الطفل في صياغة شخصيته فيما بعد ، لكان جلياً أن المؤثرات الصهيونية التي أحاطت بفرويد منذ نشأته ، وأحاطت بأسرته لعدة قرون من قبل أن يولد ، صبغت شخصيته وفكره على نحو لم يستطع إخفاءه دائماً".

وقد لا يهمنا تطبيق آرائه ونظرياته عليه كما يقول الكاتب ، لكن حياته في الواقع قد كانت فعلاً مشحونة بالشعور بالذاتية اليهودية ، ذات السمات المعروفة في عامة اليهود .

يقرر الكاتب المتتبع أن يهودية (فرويد) قد كانت ممتدة إلى الجوانب الثقافية والوجدانية في حياته كلها ، ففضلاً عن علاقاته المهنية والشخصية الوثيقة ، التي كادت أن تكون مقصورة على أفراد من اليهود ، فقد كان أيضاً على معرفة متضلعة بالحياة وبالجوانب العقائدية وبالطقوس اليهودية ، كما كان على استيعاب شامل للتاريخ والأدب اليهودي ، ولفلسفة اليهود وعاداتهم ونكاتهم وأقوالهم المأثورة ، وأن (فرويد) على الرغم من مجاهرته بعدم الإيمان قد كان يهودياً في أعماق وجدانه ، وهذا ما جعله شديد الحساسية لأية بادرة يشتبه في اتجاهها المضاد لليهود ، وكانت استجابته لجميع هذه المواقف عنيفة أشد العنف ، وعلى الرغم من أنه لم يشاهد في حياته أي اضطهاد من أجل يهوديته ، إذ ترقى في الدراسة والوظيفة حتى حصل على منصب أستاذ مساعد في الجامعة ، إلا أنه كان يشعر بالاضطهاد في داخل نفسه من أجل يهوديته ، ولذلك كان ينطوي على نفسه وداخل دائرة من أصدقائه ، وكلهم من اليهود ، إذ إنه ما كان ليأنس إلى صديق أو يطمئن إليه إلا أن يكون يهودياً.

وكان انتماؤه ليهوديته لا للبلاد التي عاش فيها حياته ، وهذا ما صرَّح به هو عن نفسه ، فقد قال ذات مرة : "إنه يهودي ، وليس نمساوياً أو ألمانياً" . كذا نقل عنه (جونز) مؤرخ سيرته .

وذكر اليهودي (ماكس جراف) أنه كثيراً ما كان يزور (فرويد) ويدخل معه في نقاش حول ما أسماه "المسألة اليهودية" ، فكان يلاحظ دائماً اعتزاز (فرويد) بيهوديته ، وفخره بانتسابه إلى الشعب اليهودي ، الذي قدم التوراة إلى العالم .

وتساءل (ماكس جراف) ذات مرة عما إذا كان من الخير أن يوجه اليهود أبناءهم إلى اعتناق المسيحية ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، فإذا بفرويد يعترض بشدة قائلاً: "إذا لم تنشيء ابنك على أنه يهودي ، فسوف تحرمه من مصدر طاقة لا يمكن أن يعوض بشيء آخر ، إن عليه كيهودي أن يكافح ، ومن واجبك أن تنمي فيه نفسه كل الطاقة اللازمة لذلك الكفاح ، فلا تحرمه من هذه الميزة".

قال الكاتب المتتبع : "وقد كرر (فرويد) بأن اليهودية مصدر للطاقة في كثير مما كتب.

ويهودية فرويد الوجدانية والعصبية هي التي جعلت البطانة الأولى من مشايعيه كلها من اليهود ، ولما اتسع نطاق التحليل وانتشرت دائرة الملتفين حوله ظل معظم المقبلين عليه من اليهود أيضاً".

ألا فليعلم ملاحدة العرب أنهم يشايعون بإلحادهم اليهودية العالمية المعادية لهم ولأمته ، ويجندون أنفسهم في صفوف الأعداء .

(5)

كما كان (فرويد) يهودياً صهيونياً في مشاعره ووجدانه ، وصديقاً لهرتزل مؤسس الصهيونية الحديثة[1] ، فقد كان عضواً في بعض المنظمات الصهيونية العاملة .

فمن الحقائق المعروفة أنه قد انضم إلى جمعية (بناي برث) الصهيونية ، أي : جمعية أبناء العهد ، وكان انضمامه إليها في عام (1895م) وهو في التاسعة والثلاثين من عمره ، وظل يواظب على حضور اجتماعات هذه الجمعية الصهيونية ، التي كانت تعقد يوم الثلاثاء كل أسبوعين طوال عدة سنوات ، وفي هذه الجمعية ألقى (فرويد) أولى محاضراته عن تفسير الأحلام ، وكانت مساهمته في نشاط هذه الجمعية أحد وجوه النشاط القليلة جداً ، التي كان يبيح لنفسه المساهمة فيها ، لأنه كان يضن بوقته أن ينفقه في نشاط لا يلح عليه وجدانه أن يساهم فيه.

ومن المعروف أن جمعية (بناي برث) لا تقبل بين أعضائها غير اليهود ، وليست على غرار الجمعيات اليهودية الأخرى كالماسونية ، وهدف هذه الجمعية في الظاهر رعاية المصالح اليهودية الحضارية والثقافية والخيرية ، أما هدفها الحقيقي فهو العمل في خدمة الصهيونية العالمية .

[1] وكان (فرويد) يولي (تيودور هرتزل) الاحترام والتقدير ، وقد أرسل إليه أحد كتبه مع عبارة (إهداء شخصي) عليه .

وقد أنشئت هذه الجمعية أول الأمر في أمريكا ، ثم تكونت لها فروع في كثير من البلاد الأوروبية ، وكان لها نشاط قوي وملحوظ تغلغلت عن طريقه في صميم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للبلاد التي أُنشئت فيها ، لا سيما بريطانيا وأمريكا . وسارت في سبيل تحقيق المخطط الصهيوني عن طريق التحالف مع رأس المال اليهودي ، للسيطرة على أجهزة الإعلام ، وفي مقدمتها الصحافة ودور النشر ، وللقضاء على كل من تسول له نفسه أن يتصدى لها ويكشف عن خبائثها .

وتنفيذاً لهذه المهمة عملت الجمعية على إسكات الألسن ، وتحطيم الأقلام ، وهدم الجهود التي كانت تحاول الكشف عن المخططات اليهودية الصهيونية .

وصرح رئيس وفد هذه الجمعية الأمريكي ، في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عُقد بمدينة "بال" بسويسرا في عام (1897م) بقوله :"علينا أن ننشر روح الثورة بين العمال ، وهم الذين سندفع بهم إلى خطوط دفاع العدو ، موقنين بأنه لا نهاية لرغباتهم ، ونحن بأمس الحاجة إلى تذمرهم ، لأنه السبيل إلى تخريب المدنية المسيحية ، والوصول سريعاً إلى نشر الفوضى فيها . ولسوف يحين الوقت سريعاً الذي يطلب فيه المسيحيون أنفُسهم إلى اليهود أن يتسلموا السلطة".

هذا ما ذكره الكاتب المتتبع .

ومنه يتضح لنا أن (فرويد) – وهو واحد من أعضاء هذه الجمعية الصهيونية – لا بد أن يكون مسخراً لخدمة الأهداف الصهيونية عن طريق نشاطه العلمي ، كما غدا معروفاً تماماً في كل النشاطات التي يقوم بها أصحاب الغايات الخاصة ، إنهم يسخرون ما يستطيعون من نشاطهم لتحقيق غاياتهم ، والحياد العلمي المزعوم أصبح مشكوكاً فيه شكاً يرجح جانب الاتهام دائماً ، فلا ثقة بالحياد العلمي المدعى من قبل ذوي العصبيات الخاصة ، لا سيما أصحاب المكايد من اليهود ، لقد غدا معروفاً ومكشوفاً أنهم يصوغون نظريات كاملة ، ويلبسونها أثواب البحث العلمي الحيادي المتجرد ، كذباً وزوراً ، وغرضهم منها خدمة غاياتهم القريبة أو البعيدة ، علماً بأن هذه المذاهب أو النظريات التي وضعوها لا أساس لها من الصحة بصيغتها العامة ، ولكن قد يكون فيها عناصر صحيحة متفرقة ، ومع هذه العناصر الصحيحة عناصر أخرى فاسدة . تجعل النظرية فاسدة بوجهها العام ، وتكون العناصر الصحيحة فيها هي الطعم الذي يقدم فيها لقبولها جميعاً ، وبقبولها جميعاً يتحقق المطلوب من المكيدة ، ويقع الصيد فريسة صياده".

ونستطيع أن نقول بيقين : إن كل نظرية علمية تنتهي إلى إقرار الإلحاد بالله ، وبرسالاته ، مذهباً اعتقادياً ، فهي نظرية موجهة لغايات خاصة ، مهما وُجد في عناصرها الأولى من أمور صحيحة ، وعند التتبع

البصير الواعي تنكشف العناصر المزيفة الداخلية التي أفسدت الصيغة العامة للنظرية ، وجعلت النتائج التي بُنيت عليها نتائج باطلة .

وبما أن (فرويد) منفذ خطة يهودية صهيونية ، وعضو من أعضاء الصهيونية العالمية ، كان من الطبيعي أن تمجده الحركات الصهيونية ، وتعمل على نشر آرائه وما تسميه بنظرياته ، والتبشير بها بين الأميين[1] ، فهذا العمل إحدى مراحل خطتها .

أما الترويج لأفكاره فقد شهدنا آثاره بشكل منقطع النظير ، حتى أمست آراؤه وأفكاره على ألسنة معظم المثقفين ، وصارت متداولة تداول الحقائق ، وفتن بها الكثيرون ، بتأثير الدعاية اليهودية العالمية .

وأما تمجيده وتكريمه بشكل خاص فنجده فيما فعلته جمعية (بناي برث) الصهيونية ، إذ أقامت حفلاً له بمناسبة بلوغه من العمر سبعين سنة ، ولم يحضر فرويد هذا الحفل ، ولكن أناب عنه في حضوره طبيبه الخاص البروفسور (لدفيج براون) الذي ألقى كلمة فرويد فيه ، وقد جاء في كلمة (فرويد) ما يلي:

"... إن كونكم يهوداً لأمر يوافقني كل الموافقة ، لأنني أنا نفسي يهودي ، فقد بدا لي دائماً أن إنكار هذه الحقيقة ليس أمراً غير خليق بصاحبه فحسب ، بل هو عمل فيه حماقة إيجابية ، إنه لتربطني باليهودية أمور كثيرة ، تجعل إغراء اليهودية واليهود أمراً لا سبيل إلى مقاومته ، قوي انفعالية غامضة كثيرة كلما زادت قوتها تعذر التعبير عنها في كلمات ، بالإضافة إلى شعور واضح بالذاتية الداخلية...

وهكذا وجدت نفسي واحداً منكم أقوم بدوري في اهتماماتكم الإنسانية والقومية ، واكتسبت أصدقاء من بينكم ، وحثثت الأصدقاء القليلين الذين تبقَّوا لي على الانضمام إليكم"[2].

هذا هو الصهيوني (فرويد) إذ كان عمره (70) سنة.

وبالإضافة إلى كونه عضواً في جمعية (بناي برث) الصهيونية كما بيَّنَّا كان عضواً فخرياً في منظمة (كاديما) وهي منظمة صهيونية معروفة ، وإذ اكتفى بالعضوية الفخرية بالنسبة إلى هذه المنظمة فقد دفع أحد أبنائه ليكون عضواً عاملاً فيها .

ومعلوم أن الحركة الصهيونية حركة ذات طابع ديني وقومي مفرط في التعصب ضد الأمم والأديان الأخرى ، وما كان (فرويد) ليعمل فيها ويدفع إلى العمل فيها أحد أبنائه لو لم يكن مؤمناً بمبادئها ، ومن مبادئها ما أعلنه (تيودور هرتزل) لدى افتتاح المؤتمر الصهيوني الأول بقوله : إننا هنا لنضع حجر الأساس لبناء المأوى الذي يأوي الشعب اليهودي إليه ... إن

---

[1] المقصود بالأميين سائر الشعوب والأمم الأخرى غير اليهود.
[2] أخذا من تتبعات دكتور صبر جرجس في كتابه : "التراث اليهودي والفكر الفرويدي".

الصهيونية هي عودة اليهود إلى اليهودية قبل عودتهم إلى الأرض اليهودية . إن الصهيونية هي القومية الجديدة للشعب اليهودي ".

أفلا يدل هذا دلالة قاطعة على أن تظاهر (فرويد) بالإلحاد وعدم إيمانه بأي دين قد كان عملية من عمليات المكر والمخادعة ، ليضم إلى فكرة الإلحاد أنصاراً من الأمم غير اليهودية ، وبذلك يجندون أنفسهم في الكتائب المنفذة للمخططات اليهودية العالمية .

يقول الكاتب المتتبع لفرويد : "فإذا كان الأمر كذلك فقد كان شأنه فيه – كشأنه في كل المناسبات الصهيونية العنصرية التي ناصرها فعلاً – الحذرَ والبعد عن الأضواء ، حتى لا يثير الريبة فيما أحيط به من هالة الموضوعية تفكيراً ، والإلحاد عقيدة ، والحقيقة العلمية هدفاً...

وهكذا كان (فرويد) برغم كل ما تظاهر به من تفكير حر ، وبرغم كل ما أعلن من إلحاد ، غارقاً في اليهودية ، بل اليهودية الصهيونية إلى أعمق الأعماق ، وهكذا وجد "فرويد" نفسه في قمة شعوره بالذاتية اليهودية الصهيونية ، وقمة توحده مع تلك الذاتية ، مسوقاً في الطريق العلمي إلى التحليل النفسي ، ومسوقاً في الطريق السياسي إلى العمل الصهيوني ...".

(6)

استغل (فرويد) وتلاميذ مدرسته اليهود طريق التحليل النفسي لخدمة اليهودية العالمية ، والحركة الصهيونية .

من ذلك ما استغلوه في موضوع معاداة السامية ، الفكرة التي حمل اليهود رايتها في العالم الغربي ، لإسكات كل لسان يمكن أن يتحرك في انتقاد اليهود ، ولإيقاف كل مقاومة تتوجه لصد مكايدهم وتحركاتهم المريبة ، في السياسة ، أو في الاقتصاد ، أو في الإعلام ، أو في مجالات العلم والثقافة ، أو في غير ذلك من مجالات .

ومما يثير العجب في خطة العمل اليهودية أن قادة الصهيونية قد كانت لهم رغبة بتحريض الأمم الأخرى على معاداة السامية (أي: معاداة اليهود) لتستفيد الحركة الصهيونية من ذلك ، حتى قال (هرتزل) مؤسس الصهيونية الحديثة :"إن الصهيونية أحوج ما تكون إلى مبدأ معاداة السامية لكي تنتعش ".

وغدت قصة معاداة السامية هي السلاح الدعائي الذي يحمله اليهود في العالم الغربي ، لاتهام كل من يعارض يهودياً ولو كان اليهودي هو المجرم الجاني بأنه معادٍ للسامية ، باعتبار أن اليهود ساميون منبثون في شعوب غير سامية ، وبذلك يتحمل المظلوم الغربي ظلامته في نفسه ، خشية أن تلصق به تهمة التفرقة العنصرية والمعاداة على أساس عرقي .

وفي ظل هذا السلاح الدعائي نشط اليهود نشاطاً كبيراً في اغتنام خيرات البلاد التي نزلوا فهيا ، وفي صنع المكايد الكثيرة دون أن تجرؤ الأمم الأخرى على مقاومتهم ، خشية أن تلصق بها تهمة معاداة السامية ، واليهود وحدهم من دون سائر الساميين هم الذين يستفيدون من هذا السلاح ، كأنهم وحدهم هم الساميون في العالم ، أما سائر الساميين فلا بأس أن يحرضِّ اليهود الدول على استغلالهم واستعمارهم ونهب خيراتهم .

أما دور (فرويد) وتلاميذ مدرسته في هذا المجال ، فقد كان يعتمد على تسخير مبدأ التحليل النفسي لتزييف الواقع والحقيقة ، وتمجيد اليهود وخدمة الصهيونية .

ولفرويد أقوال صريحة وواضحة في هذا المجال ، وله تحليلات يزينها وفق أهوائه الخاصة ، وقد ذكرها في كتابه "موسى والتوحيد" .

وقد ذكر (فرويد) في تحليلاته أن أسباب كراهية الأمم لليهود كثيرة ، واعتبر أنها ترجع إلى صنفين:

*** الصنف الأول :**

ظاهر وليس بعميق ، وذكر من هذا الصنف سببين:

الأول : كون اليهود غرباء من الأوطان التي يقيمون فيها .

الثاني : كون اليهود أقلية ، لأن الشعور الجماعي كي يكون كاملاً فيما يُقرر يقتضي بتوجيه العداء نحو الأقلية .

*** الصنف الثاني:**

ما أسماه (فرويد) بالأسباب العميقة ، وزعم أنها ترجع إلى الماضي السحيق ، وأنها منبعثة من اللاشعور ، وهي في رأيه تتلخص فيما يلي:

1- غير الشعوب الأخرى من اليهود ، لأنهم آثرُهم عند الله ، بوصفهم أكبر أبناء الله .

2- تمسك اليهود بعادة الختان .

3- أن الشعوب غير اليهودية لما تركت وثنياتها الأولى تحت قوة الضغط حقدت على أديانها الجديدة في مستوى اللاشعور منها ، فأسقطت حقدها على اليهود ، لأنها لا تستطيع أن تكره دينها الجديد .

هذه هي التحليلات النفسية التي أرجع إليها (فرويد) كراهية الأمم غير اليهودية لليهود .

وفي اعتقادي أن أي عاقل لا يملك نفسه عن ضحكات ساخرات من هذا التحليل ، ومن هذه الأسباب التي ذكرها .

أما زعمه أن من أسباب كراهية الأمم لليهود كونهم غرباء عن الأوطان التي يقيمون فيها ، فهو مردود من وجهين:

الوجه الأول : أننا نجدهم مكروهين ولو كانوا هم الأصلاء لا الغرباء .

الوجه الثاني : أننا نجد كثيراً من الغرباء في الشعوب محبوبين محترمين غير مكروهين .

فليست الغربة إذن من أسباب كراهية الأمم لهم ، إلا أن ينضم إليها شيء آخرُ من اليهود أنفسهم ، كالاستغلال والأنانية وعقدة الاستعلاء وحقدهم هم على الأمم .

وأما زعمه أن من أسباب كراهية الأمم لليهود كونهم أقلية ، فهذا خلاف الواقع تماماً ، بل هو عكس الواقع تماماً ، إذ الواقع أن العداء يتوجه من الأقلية إلى الأكثرية بدافع الحسد ، وليس العكس .

فليست الأقلية من أسباب كراهية الأمم لهم ، إلا أن ينضم إليها شيء آخرُ من الأقلية نفسها ، كمكايد تكيدها ، واستغلالات تستأثر بها ، وعقدة استعلاء تفتخر بها .

فالكراهية سببها اليهود أنفسهم ، وأعمالهم داخل الأمم التي يعيشون بينها .

وأما ما ذكره من الأسباب العميقة فشيء مضحك جداً جداً .

أما غيرة الشعوب الأخرى من اليهود لأنهم آثرهم عند الله بوصفهم أكبر أبنائه ، فلا أحد يعترف لهم بهذه الميزة حتى يغار منهم ، ولكن الحسد والغيرة من سمات اليهود منذ تاريخهم القديم .

وأما تمسك اليهود بعادة الختان فمع بالغ السخرية نقول: إن غير اليهود يختتنون أيضاً ، والأمم الأخرى لا تكرههم لذلك .

وأما حقد الأمم على أديانها في مستوى اللاشعور ، وإسقاط حقدها على اليهود ، فتحليل خيالي خرافي لا نظير له إلا في مستشفى المجانين .

فهل يوجد سخف أكبر من هذا السخف الفرويدي باسم التحليل النفسي ، لدعم اليهودية العالمية؟!!.

(7)

ثم إذا تجاوزنا كل ما سبق ، ونظرنا إلى نظرية (فرويد) في التحليل النفسي نظرة موضوعية غير متحيزة ، فإننا لا نجد فيها ما يبرر للناقد (د. العظم) أن يمجدها ويقول عنها : إنها من أهم النتائج التي توصلت إليها البحوث العلمية في مجال الدراسات النفسية .

أما فكرة تحليل دوافع الأنفس إلى السلوك فهي فكرة إنسانية قديمة ، وليست هي بحد ذاتها من مبتكرات (فرويد) إلا أن هذا الرجل قد أفرط في السبح الخيالي في تحليل تصرفات الإنسان ، إفراطاً حشد فيه أوهاماً وفرضيات أقرب ما تكون إلى التخريف المطلق منها إلى الدراسة العلمية الموضوعية .

بيد أنه باتجاهه نبه الباحثين النفسيين على البحث الموضوعي في مجال التحليلات النفسية ، حتى تكونت مدارس التحليل النفسي في عالم العلم ، وأصبحت مدرسة فرويد اليهودية في نظر العلماء بدائية متخلفة جداً . والسر في هذا أن فرويد كان مسخراً أساساً لمحاربة الأديان ، وتهديم القيم الأخلاقية والاجتماعية ، وقد فرضت عليه الخطة اليهودية العالمية أن يضع نظرية تتستر بالعلم لتحقيق هذه الغاية ، فاستخدم التحليل النفسي طريقاً إلى ذلك ، كما استخدم غيره من اليهود طرقاً أخرى تحت ستار البحث العلمي لتحقيق الغاية نفسها ، وطبيعي أن تكون الدراسة العلمية الموجهة أساساً لإبطال حقيقة من الحقائق مُكرهة على أن تحمل في حقيبتها وعلى ظهرها أكداساً من التخيلات والأوهام والفروض التي لا سند لها من الواقع ، ومُكره على أن تصوغ نظرية تجمع في لبناتها بعض الحقائق لإقامة بعض الزوايا ، ثم تملأ سائر الثغرات بأوراق ملونة مصبوغة ، تشبه في ظاهرها صورة لبن البناء وقواعده ، وهي في حقيقتها وهم خداع تمزقه أية يد تمتد إليه بالفحص والبحث العلمي .

واقتبس هنا نقداً موضوعياً لمدرسة (فرويد) في التحليل النفسي ، مما كتبه صديقنا الدكتور عبد الحميد الهاشمي ، وهو نقد مؤلف من النقاط التالية:

1- إن آراء (فرويد) هي أولاً وقبل كل شيء نظرية افتراضية وليست من الحقائق النفسية أو المبادئ العلمية التي أثبتتها التجارب ، أو صدَّقتها الملاحظة العلمية .

فليس لآراء (فرويد) تلك الهالة التي يحاول بعض مناصريها أن يُلبسوها ثوب الحقائق العلمية ، أو كما تحاول بعض الجهات العالمية أن تحيطها بالدعاية .

2- تعتبر هذه النظرية امتداداً لفلسفة أفلاطونية ،إلا أن أفلاطون كان يحاول أن يسير بالنفس الإنسانية نحو المثالية ، أما (فرويد) فقد تشبث – كما يقول تلامذته – بالدافع الجنسي ، ليظل هو الدافع والوسيلة والغاية .

والواقع أن الصحة النفسية إذ تسعى للإشباع الشرعي المعترف به فإنها تدعو إلى الضبط والاتزان ، لأن الحقيقة الفسيولوجية والنفسية تؤكد أن الإشباع الفوضوي المطلق يزيدها تفتحاً ، وتصبح الشغل الشاغل ، ومن

أجل هذا فالصحة النفسية في مناهجها التكوينية والوقائية والعلاجية دعت إلى التسامي والإبدال ، بجانب دعوتها إلى الإشباع المشروع .

3- لقد تأثر فرويد في آرائه بالحالات الشاذة المرضية التي كان يعالجها في مرضاه ، ويكمن الخطأ العلمي في التعميم الذي أطلقه فرويد ، إذ أخذ يفسر السلوك المتزن العادي لدى الأسوياء في ضوء ما عاينه من السلوك الشاذّ لدى المصابين .

وهذه نقطة أخذها عليه زملاؤه وتلامذته في العلاج النفسي ، وانفصلوا بها عن جماعته ثم عارضوا نظريته بنظريات أقاموها وعرفوا بها .

4- تأثره واضح بالأساطير اليونانية ، كقصة أديبوس .

ويعلق علهيا (روبرت ودورث) بقوه : "ولو بحثت عن رأيي الشخصي في سيكولوجيا فرويد لكان علي أن أقول : إنني لا أؤمن بأن يكون مذهبه صحيحاً بأي معنى مطلق . ولا أن يوضع في مصاف النظريات العلمية الكبرى ، التي تربط المعرفة الراهنة . فإنها بكائناتها وثناياها تبدو متخلفة أكثر منها ناظرة إلى الأمام".

وإذا علمنا أن البروفسور (ودورث) يعتبر من رواد علم النفس الحديث فيما بعد الحرب العالمية الأولى في كتبه الكثيرة عن علم النفس التجريبي ، وعلم النفس الديناميكي . ورياسته لعلم النفس في لجنة البحث القومي الأمريكي ، ولهيئة علماء النفس الأمريكيين . إذا علمنا ذلك أدركنا أن آراء فرويد تمثل في تطور الدراسات النفسية مرحلة بدائية متخلفة لا ينبغي الوقوف عندها في مجال علم النفس الحديث .

5- إن نظرية الفرويد تعكس الحياة المتناقضة الشاذة للمجتمع الغربي (الأوروبي) بعد النهضة الصناعية المادية ، وانتشار الاختلاط المطلق ، وشيوع الإباحية بشتى أسمائها ، نتيجة الترف والغرور الأوروبي ، في عنوان العهد الاستعماري .

فكانت نظرية فرويد انعكاساً أو تبريراً للواقع الشاذ ، وليست دراسة علمية دقيقة تنظر إلى المشكلة من جميع أسسها .

6- والخطأ العلمي النفسي الكبير أن نظرية فرويد تحاول تفسير السلوك الإنساني بنظرة جانبية جزئية . وذلك حين يحاول فرويد أن يحدد السلوك الإنساني بدافع جنسي .

ولقد قام لمناهضة هذا التفسير الجانبي والمتحيز عدة علماء نفسيين لهم وزنهم العلمي حتى يومنا هذا غير من تقدم ذكرهم ، ولعل أعظمهم في ذلك (وليم مكدوجل) الذي قام لمناهضة هذا التفسير الضيق والمتحيز ، في

كتابه "تخطيط علم النفس" سنة (1923م) ، وفيه يرد على كل من فرويد ويونج وكارل لتحديدهم دوافع السلوك البشري بدافع واحد أو اثنين .

أما مكدوجل فقد ذكر عدة دوافع سماها غرائز ، وقد أوصلها بعد عدة تعديلات إلى عشرة غرائز أو تزيد . منها غريزة الأبوَّة في حماية الصغار ، وغريزة المقاتلة مع انفعال الغضب وغريزة الهروب من الخطر مع انفعال مصحوب بالخوف ، وغريزة حب الاستطلاع ، وغريزة تقدير الذات مع الشعور بالتفوق ، وغريزة البحث عن الطعام ، وغريزة التجمع مع الشعور بالعزلة ، وغيرها ...

7- في آراء فرويد المتحيزة نحو التفسير الجنسي كدافع لكل سلوك يتجلى التفكير اليهودي ، الذي اشتهر به اليهود منذ أيامهم الأولى ، وفي اتهامهم لبعض أنبيائهم ، وفي معاملتهم للأمم التي عاشوا معها ، وهو تحيز مقصود ومخطط ، خدمة للسياسة اليهودية العالمية بعيدة المدى .

فهل بعد هذا يسوغ لكاتب عربي أن يمجد آراء فرويد ونظريته ، وأن يعتبرها كما ذكر (د. العظم) من أهم النتائج التي توصلت إليها البحوث العلمية في مجال الدراسات النفسية ، إلا أن يكون أجيراً ذليلاً وخادماً مطيعاً للصهيونية العالمية؟

* * *

الفصل الثامن

صراع لنفي فرية النزاع بين الإسلام والعلم

(1)

أثار الناقد (د. العظم) ما أسماه مشكلة النزاع بين العلم والدين ، وفسر الدين بقوله: "أي: الإسلام بصورة رئيسية بالنسبة لنا".

ثم أعلن أنه يريد أن يسترسل في شرح وجهة النظر التي ترى أن الدين كما يدخل في صميم حياتنا ، وكما يؤثر في تكويننا الفكري والنفسي ، يتعارض مع العلم ومع المعرفة العلمية قلباً وقالباً روحاً ونصاً .

ثم لوَّح بأن هذا الخط المحارب للدين الإسلامي سينتصر كما انتصر على العقلية الدينية التي كانت سائدة في أوروبا . بعد مرور قرنين ونصف من الحرب الطويلة بين العلم والدين هناك ، فقال في الصفحة (21) من كتابه:

"يجب أن لا يغيب عن بالنا أنه مرت على أوروبا فترة تتجاوز القرنين ونصف القرن ، قبل أن يتمكن العلم من الانتصار انتصاراً حاسماً في حربه الطويلة ضد العقلية الدينية الي كانت سائدة في تلك القارة ، وقبل أن يثبت نفسه تثبيتاً نهائياً في تراثها الحضاري ، ولا يزال العلم يحارب معركة مماثلة في معظم البلدان النامية ، بما فيها الوطن العربي ، علماً بأنها معركة تدور رحاها في الخفاء ، ولا تظهر معالمه ا للجميع إلا بين الفينة والأخرى".

هذا ما قاله (د. العظم) بلسانه عن نفسه ، وعن سائر كتائب ملحدي هذا العصر ، ونحن نقول : لا ضير ولا خوف على الدين الإسلامي من هذه الحرب الشعواء التي يشنها الملاحدة المتسترون بالعلمانية ، فالدين الإسلامي بمفاهيمه الصحيحة الثابتة ، وأصوله الفكرية الراسخة لا يخشى العلم الصحيح الذي يستطيع أن يثبت نفسه بالأدلة الصحيحة عبر الزمان ، وستسفر المعركة إن وجدت بين الإسلام والعلم عن التقاء تام على خط واحد بين الصحيح مما نسب إلى الدين ، والصحيح مما نسب إلى العلم ، وانتصار الإسلام والمفاهيم الإسلامي على النظريات والفرضيات الباطلة المنسوبة إلى العلم ، ولا ضير من تصحيح المفاهيم الاجتهادية التي فهمها بعض العلماء المسلمين في عصور مختلفة ، إذا استطاع العلم أن يثبت صحة نظرياته المخالفة لهذه المفاهيم .

وليس هذا تراجعاً في الدين ، وإنما هو تصحيح لأخطاء المجتهدين في تحديد بعض مفاهيمه ، بما يتوصل إليه العلم من حقائق ، ويظل الإسلام هو الدين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو لا يتحمل بحال من الأحوال جريرة أخطاء المفسرين لنصوصه ،والمجتهدين في استخراج مفاهيمه .

ومما لا شك فيه أن المسلمين يتعرضون في هذا لأخطر حرب تعرضوا لها في تاريخهم الطويل ، إنها حرب قائمة على التضليل الفكري الذي يلبس أثواب العلمانية ، وتقودها أجهزة شديدة الحذق في صناعة المكايد ، وفي تزوير الحقائق العلمية ، وتزييف مستنداتها ، وفي يدها المال الكثير ، والأجهزة العسكرية العظيمة ، والمراكز التعليمية الكبرى في العالم ، والتنظيمات الحزبية المنبثة في كل قطر ، وهي لا تهدف إلى مجرد الاحتلال العسكري في خطة غزوها ، ولكن تهدف أيضاً إلى احتلال الأفكار ومراكز العقائد ، واحتلال النفوس ومراكز العواطف ، وتشتري من داخل كل أمة صنائع وأجراء لها ، ببذل المال ، والوعود والإغراءات ومرضيات الشهوات الفاجرة .

ومع كل هذه الأثقال العتادية التي تحملها هذه الحرب ضد الإسلام والمسلمين فإننا واثقون من أن العقيدة الإسلامية والمفاهيم الإسلامية الصحيحة ستنتصر أخيراً ، على كل الحملات الغازية ، لأن الحق مؤهل بطبيعته لأن يكون هو المنتصر في آخر الأمر ، وإن أصابته أثناء معاركه مع الباطل متاعب ومشقات ، وإن سقط من جنوده شهداء كثيرون ، ومهما بدا في أول الأمر ظهور مزيف للباطل ، إن هذا الظهور زَبَدٌ لا قيمة له ، وسيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض مع مكث الحقائق واستقرارها .

والتاريخ يشهد لهذه الحقيقة ، فقد جاءت من قبل جيوش غازية إلى بلاد المسلمين ، ففتكت فتكاً ذريعاً ، ودمرت تدميراً منكراً ، ولكنها رجعت في آخر الأمر تحمل الإسلام في قلوبهم وفي سلوكها وأعمالها ، لقد غزا الحق الرباني قلوبها ونفوسها وأفكارها ، بعد أن دخلت غازية له تريد تحطيمه وتدمير كل ما يتصل به .

وكم من رجال مفكرين كانوا ملحدين بالله ، تأثراً في مطلع حياتهم بأفكار الإلحاد ، وبتضليلات المؤسسات الإلحادية في العالم ، التي تلبس العلمانية ، وتحمل أسلحة التقدم العلمي والصناعي ، وشعارات الثورية والتغيير الاقتصادي والاجتماعي ، ثم اتجه هؤلاء المفكرون نحو الإسلام لنقده واقتلاعه من جذوره ، لكنهم كانوا في الواقع طلاب حقيقة ، خدعوا بتزييفات المضللين ، فلما درسوا الإسلام ، وأمعنوا النظر في كتاب الله القرآن ، ليستخرجوا منه ما يحاربونه به ، إذا بهم يشهدون الحق فيخشعون لله وإذا بهم يجندون أنفسهم وعلومهم وفلسفاتهم للدفاع عن الإسلام ، ولإعلاء كلمة الله بين الناس ، وإذا بهم يتحولون إلى دعاة هدى وإيمان ، بعد أن كانوا قد تجندوا فعلاً في جيش دعاة الضلالة والإلحاد .

وأما تلويح (د. العظم) بانتصار الإلحاد تحت ستار العلم ، وقياسه الدين الإسلامي على غيره ، وقياسه المسلمين على الشعوب الأوروبية ، فهو تنبؤٌ منه يحمل تفاؤلاً مفرطاً لقضية الإلحاد ونشره في الأرض ، واكتساحه للعقائد الإيمانية ، وهذا الإفراط في التفاؤل يطمعه به بعض

الانتصارات الزمنية التي حققها اليهود على الجيوش العربية ، إذ استطاعت دسائسهم أن تعزل الإسلام والمسلمين الواعين عن المعركة .

وأما ما يسمى بالنظريات العلمية التي وضعت خصيصاً لدعم قضية الإلحاد في الأرض فهي نظريات زمنية ، لا تلبث طويلاً حتى تأتي كشوفات علمية جديدة ، ترافقها أوراق نظريات جديدة تلغيها إلغاءً تاماً ، وتقترب النظريات الجديدة من مواقع الإيمان خطوات علمية سليمة ، وتخسر قضية الإلحاد كثيراً من أسلحتها التي تلبس رداء التقدم العلمي والصناعي زوراً وبهتاناً ، كما قال الله تعالى سورة (الصف/61 مصحف/109 نزول):

{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ}

وأما انتصار قضية الإلحاد في أوروبا فقد شرح أسبابه (وولتر أوسكار لندبرج) عميد معهد هورمل منذ سنة (1919م) ، وخص بالذكر سببين:

الأول : ما تتبعه بعض الجماعات أو المنظمات الإلحادية ، أو الدولة ، من سياسة معينة ترمي إلى شيوع الإلحاد .

الثاني : المعتقدات الفاسدة التي تجعل الناس منذ الطفولة يعتقدون بإله على صورة الإنسان .

وطبيعي أن هذا السبب الثاني غير موجود في العقائد الإسلامية ، لأنها قائمة على الحق الموافق للبراهين العقلية والأدلة العلمية .

ألا فليخفف (د. العظم) وسائر الملحدين من تفاؤلاتهم بانتصار قضية الإلحاد في دنيا المسلمين ، فالله من ورائهم محيط ، وليمت الملحدون بغيظهم إن شاؤوا ، فالله متمٌّ ولو كرهوا.

(2)

بكل مجازفة مشحونة بالمغالطة زعم الناقد (د. العظم) – لسان طائفة من ملحدي هذا العصر – أن الإسلام والعلم يختلفان ويتنازعان في المنهج الذي يجب اعتماده في الوصول إلى المعارف والعلوم ، وفي البحث عن الحقائق .

وقد غدا واضحاً أن سبيله وسبيل سائر الملحدين في مغالطاتهم ، أن يقرروا من عندهم أموراً ينسبونها إلى الإسلام ، وما هي بالمفهوم الصحيح له ، ليغالطوا الناس بها .

وقد أحصيت في الفصل الأول من هذا الكتاب أصول مغالطاتهم ، وهي ترجع إلى تعميم أمر خاص ، أو تخصيص أمر عام ، أو ضم زيادات

وإضافات ليست في الأصل ، أو حذف قيود وشروط لازمة ، أو التلاعب في معاني النصوص ، أو طرح فكرة مختلقة من أساسها ، أو تصيد بعض الاجتهادات الضعيفة لبعض العلماء وجعلها هي الإسلام ، أو التقاط مفاهيم شاذة موجودة عند بعض الفرق التي تنتسب إلى الإسلام ، أو نسبة أقوال إلى غير قائليها أو إلى غير رواتها ، أو كتمان أقوال صحيحة وعدم التعرض إليها مع العلم بها وشهرتها ، أو نحو ذلك مما يتصل بهذا التضليل القائم على التلاعب بالحقائق ، بغية تهديم الإسلام وعقيدة الإيمان بالله ، ودعم قضية الإلحاد ونشر الكفر والفساد في الأرض ، وهم يخدمون في كل ذلك مصالح شياطين الإنس ، مقابل أجر يدفع لهم من دمائهم ودماء أمتهم ، كالهر الذي يلعق المبرد ليجزيه المبرد من قطرات الدم ، وليست هذه القطرات إلا من دماء اللاعق ، والتخدير الذي يحقن العدو به أعصابهم كفيل بأن يلغي الإحساس بالأمل ، ريثما تتم عملية الاستنزاف .

ولبيان فساد فرية النزاع بين الإسلام والعلم نذكر القارئ بما جاء في الفصل الثاني من هذا الكتاب "الحقيقة بين الدين والعلم" ونزيده هنا بعض تفصيلات تستدعيها طبيعة الجدال والمناظرة .

لقد وضح لدينا بالبيان التحليلي التفصيلي أن الإسلام والعلم لا يختلفان ولا يتنازعان في المنهج الذي يجب اعتماده في الوصول إلى المعارف والعلوم ، وفي البحث عن الحقائق ، على خلاف ما افتراه الناقد (د. العظم).

إن الإسلام والعلم الصحيح يسيران على منهج واحد في الوصول إلى المعارف والبحث عن الحقائق ، حتى يصل البحث إلى منطقة عالم الغيب ، فإذا وصل البحث إلى هذه المنطقة توقفت الوسائل الحسية وبقي المنهج الاستدلالي ، وضمن المنهج الاستدلالي يبحثان وفق منهج واحد ، وعند الخلاف المحتمل يبدو الفكر الإسلامي هو المرجح بأدلته الاستدلالية ، وبمفاهيم نصوصه الآتية من عالم الغيب نفسه ، ولا بد من مراعاة الأصول المنطقية العامة لدى فهم دلالات هذه النصوص .

ويظل حال التوافق بين الإسلام والعلم على المنهج الاستدلالي في مسيرة البحث عما في عالم الغيب من حقائق ، حتى تنقطع الوسائل الاستدلالية ، عندئذٍ يقول العلم : لقد انتهت رسائلي ، ولكني لا أمانع احتمال وجود وسائل أخرى قد يأتي عن طريقها معارف وحقائق داخلة في عالم الغيب ، وقد عجزت وسائلي الحسية والاستدلالية عن إدراكها ، والحكم عليها بإثبات أو نفي .

وهنا يأتي الدين فيقدم ماعني بالإرشاد إليه والتعريف به . مما هو داخل في عالم الغيب ، ولا تملك الوسائل الحسية والاستدلالية إدراكه ولا الحكم عليه بإثبات أو نفي ، ولا يملك العلم الإنساني هنا إلا أن يذعن للدين ، أو يقول : لا أدري ، لكني علمت أن ما جاء به الدين مما علمته بوسائلي قد كان حقاً .

أما منطقة التكاليف الدينية والتعـاليم الشـرعية فهـي أوامـر قيـادة ، يقصد منها بالدرجة الأولى امتحـان الإرادة فـي مجـال الطاعـة والمعصـية ، ويكفي فيها باعتبار الأصل أن تكون كيفية تتبع ما تراه القيادة دون مناقشة ، إلا أن الإسلام كان في أوامره القيادية حكيماً ، إذ راعى فيها مصالح الأفـراد والجماعات ، وما يحقق لهم سعادة الحياة الدنيا ، إضافة إلى ما وعـدهم بـه من أجر عظيم ينالونه في الآخرة ، إذا هم رعوها حق رعايتهـا . وامتثلـوا مـا جاء فيها .

لكن الناقد (د. العظم) يقول لنا : هذا كلام تقريـري منكـم ، ولا ينفـع في إثبات الحقائق مجرد إيراد أقـوال تقريريـة خطابيـة عامـة ، غيـر مؤيـدة بدلائل واقعية ، وإذ يقول هذا الكلام يصـر علـى طـرح دعـوى التنـاقض بيـن الإسلام والعلم في المنهج الذي يجب اعتماده فـي الوصـول إلـى القناعـات والمعارف والعلوم .

وحين نتابع كلامه نجده يفتري على الإسلام بمجرد الدعوى فقط ، ولا يقدم غير كلام تقريري غير مدعم بأي دليل واقعي ، وحينما يأتي بكلام يـراه دليلاً نجده في الحقيقة تقريراً جديداً كذباً ، أو مغلفاً بمغالطة من مغالطاته .

هذه هي خطته العامة كما رأينا ، ولكن سنكشف كذبه وافـتراءه فـي قوله لنا : هذا كلام تقريري منكم للتوفيق بين الإسلام والعلم ، وفي دعـواه وجود التناقض بيـن الإسـلام والعلـم فـي المنهـج الـذي يجـب اعتمـاده فـي الوصول إلى القناعات والمعارف والعلوم .

يقول في الصفحة (22) من كتابه:

"فبالنسبة للدين الإسلامي ، إن المنهج القويم للوصول إلى مثل هذه المعارف والقناعات هو الرجوع إلى نصوص معينة تعتبر مقدسة أو منزلـة ، أو الرجـوع إلـى كتابـات الحكمـاء والعلمـاء الـذين درسـوا وشـرحوا هـذه النصوص ، أما تبرير العلمية بأسرها فيستند إلى الإيمـان ، أو الثقـة العميـاء بحكمة مصدر هذه النصوص ، وعصمته عـن الخطـأ ، ومـن نافـل القـول أن نردد أن الطريقة العلمية فـي الوصـول إلـى معارفنـا وقناعاتنـا عـن طبيعـة الكـون ونشـأته ، وعـن الإنسـان وتـاريخه ، تتنـافى تمامـاً مـع هـذا المنهـج الاتبـاعي السـائد فـي الـدين ، لأن المنهـج العلمـي قـائم علـى الملاحظـة والاستدلال ، ولأن التبرير الوحيد لصحة النتائج التي يصل إليهـا هـذا المنهـج هو مدى اتساقها مع بعضها ، ومدى انطباقها على الواقع".

كلام (د. العظم) هذا مشحون بالمغالطات والأكاذيب .

لقد بدأ كلامه عن المنهج العلمي للوصول إلى قناعات ومعـارف عـن نشوء الكون وتركيبـه وطـبيعته ، وعـن تاريـخ الإنسـان وأصـله وحياته خلال العصور ، ثم ادعـى أن منهـج الإسـلام القـويم فـي كـل هـذه المواضـيع هـو

الرجوع فقط إلى نصوص معينة تعتبر مقدَّسة أو منزَّلة ، وأوهم في سرد كلامه بعد ذلك أنه لم يكن لعلماء المسلمين في هذا المجالات عمل علمي إلا درس النصوص الدينية وشرحها .

فهل هذه الدعوى تنطبق على الواقع؟ أم هي فرية ومغالطة قائمة على التعميم؟

لو كان هذا الكلام صحيحاً بالنسبة إلى تركيب الكون وطبيعته ، وتاريخ الإنسان وحياته خلال العصور ، فمن أين نشأت الثروة العلمية العظيمة في هذه المجالات عند المسلمين ، والتي كانت مصدر انطلاق الحضارة الحديثة في علومها وبحوثها وكشوفها ومنهجها ، باعتراف كبار علماء هذه الحضارة نفسها ، وباعتراف كبار مؤرخيها .

هل كانت كل ثروات المسلمين العلمية في هذه المجالات تفسيراً لنصوص دينية ؟

إن أصغر دارس لعلوم المسلمين يكذب هذه الفرية ، قد نجد في مقدمة كل علم شواهد دينية تحث على دراسة الكون ، واكتشاف صفاته وخصائصه وسُننه ، وقد نجد في ثناياه نصوصاً دينية تشير إلى بعض المعارف التي اشتمل عليها ، باعتبارها أحد وسائل المعرفة ، ولكن ليس معنى هذا انحصار منهج المعرفة عند المسلمين بتفسير النصوص الدينية وشرحها .

هل علم الكيمياء الذي شق المسلمون طريقه قد كان تفسيراً لنصوص قرآنية أو نبوية؟ ومعلوم أن هذا العلم من دراسة طبيعة الكون .

هل علم الفيزياء الذي صحح المسلمون كثيراً من نظريات الفلاسفة فيه قد كان تفسيراً لنصوص دينية ؟ وعلم الفيزياء من دراسة طبيعة الكون .

هل علم الفلك الذي برز فيه المسلمون قد كان مجرد تفسير لنصوص دينية؟ وهذا العلم من دراسة طبيعة الكون .

هل علم التاريخ والجغرافيا لم يكونا غير تفسير لنصوص دينية ؟ وهما من دراسة طبيعة الأرض وتاريخ الإنسان .

هل علما الطب الذي أبدع فيه المسلمون قد كان مجرد تفسيرات لنصوص دينية؟ وهو من دراسة طبيعة الإنسان وحياته.

هل علم الرياضيات العقلية(الحساب – الجبر – الهندسة) وغيره من العلوم التجريبية والاستدلالية والخبرية والعقلية البحتة قد كانت عند المسلمين مجرد تفسيرات لنصوص دينية واردة في مجالاتها؟

لو أن المسلمين اقتصروا في كل هذه العلوم على مجرد تفسير النصوص الدينية – كما زعم الناقد في فريته – لما تجاوزت معارفهم فيها بعض القواعد الكلية العامة جداً ، ولا شك أن ما تدل عليه النصوص الدينية يمثل لدى المسلمين مصدراً من مصادر المعرفة ، ولكنه ليس كل مصادر المعرفة ، لأن النصوص الدينية في هذه المجالات قد أرشدت ووجهت للبحث ، وقدمت بعض قواعد هذه المعرفة ، لكنها لم تتبنَّ التعريف المباشر بكل قواعد هذه العلوم ، أما المهمة الأولى والأساسية للنصوص الدينية فهي التعريف بالدين ، مبادئه وعقائده وتشريعاته للسلوك الإنساني الفردي والجماعي .

ولما وجد المسلمون الدفع الإسلامي إلى دراسة الكون ، واستنباط المعارف والعلوم عن طريق الملاحظة والتجربة والاستدلال ، انطلقوا باحثين في شتى مجالات المعرفة التي تيسرت لهم إبان نهضتهم ، قبل أن تثبطهم فترة الركود التي أصابتهم بهجرهم لتعاليم الإسلام ، وإخلادهم إلى الراحة والكسل ، والاستغراق في الشهوات , ورضاهم بأمجاد الماضي ، إضافة إلى عوامل أخرى خارجية عنهم ، أوقفت عجلة تقدمهم .

فما افتراه (د. العظم) على المنهج الإسلامي هراء ظاهر صنعته المغالطة التعميمية ، ولكشف زيفه وافتراءاته نفصل منهج الإسلام للوصول إلى المعرفة .

(3)
منهج الإسلام للوصول إلى المعرفة

إن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى معرفة حقائق الأمور هو المنهج الأمثل في تاريخ الفكر الإنساني ، بتحديد أصوله وقواعده العامة .

وقد كانت أسس النهضة العلمية عند المسلمين هي المرشد والباعث للنهضة العلمية الأوروبية الحديثة ، لسنا نقول هذا على سبيل التفاخر ، وإنما نقوله تبياناً للحق الذي اعترف به وأعلنه مؤرخو الحضارات الإنسانية من غير المسلمين ، لا سيما بعد أن وجد من أبناء جلدتنا أجراءُ لأعداء الإسلام ، يحاولون بالمغالطة والتزوير طمس الحقائق ، والقيام في العالم العربي بعملية زلزال فكري ، يقصد منه خلط المعارف الثابتة ، وتشويه صُورها ، وتقويض أبنيتها ، وإقامة أبنية جديدة مكانها ، ولكنها في هذه المرة لن تكون صالحة لأهلها ، وإنما تكون للشياطين ومعهم القردة والخنازير .

يقوم الفكر الإسلامي أساساً على أن المعرفة الصحيحة هي ما كان مطابقاً للواقع والحقيقة ، فما كان مطابقاً للواقع والحقيقة فهو حق ، وما لم يكن مطابقاً للواقع والحقيقة فهو باطل . وقد تكون الصورة الفكرية أو القولية مطابقة للواقع والحقيقة من بعض الوجوه ،ومخالفة لها من بعض

الوجوه ،فيكون فيها من الحق على مقدار المطابقة ومن الباطل على مقدار المخالفة .

هذا هو الأساس الأول للمعرفة في الفكر الإسلامي .

وبعد هذا الأساس الأول تأتي قاعدة كلية وراءه ، وهي أن كل وسيلة صحيحة تعطينا صورة صادقة عن الواقع والحقيقة هي وسيلة يجب الاعتماد عليها ، والثقة بها في تحصيل المعرفة ، وإذا لم تستطع الوسائل أن تعطينا صورة صادقة عن الواقع والحقيقة بشكل قطعي ، فإن الضرورة تدعونا في الواقع الإنساني إلى قبول الصور التي ترجح مطابقتها للواقع بصورة ظنية ، وذلك ريثما يأتي ما هو أقوى ، أو تأتي الصورة المطابقة للواقع بيقين . والمرجح الأول والأخير دائماً هو الواقع والحقيقة ، وبهما تقاس النتائج .

ونجد هذا في أوائل متون العلوم التي كتبها المسلمون ، إذ يقررون أن العلم هو الصورة الذهنية المطابقة للواقع ، أو هو الإدراك المطابق للواقع ، وإذ يقررون أن الصدق هو الكلام المطابق للواقع ، وإذ يقرون جواز العلم بالاحتمال الراجح إذا لم يتوافر لنا اليقين .

ومن هذا يتبين لنا أن الواقع على ما هو عليه في حقيقة أمره هو المرجع الأول والأخير للمعرفة في الفكر الإسلامي ، وما عدا ذلك مما له صلة باكتساب المعرفة فلا يعدو أنه من قبيل الوسائل التي قد توصل إليها .

وهذا من الأوليات المنطقية في الفكر الإسلامي ، المبينة في متون العلوم الإسلامية ، والمنصوص عليها في مصادر الشريعة الإسلامية ، والمهتدى بهديها فيما استخرجه المسلمون من معارف ،وفيما كتبوا فيه من علوم .

*** وسائل المعرفة :**

أما وسائل التي وضعها الإسلام في منهجه للوصول إلى المعارف فبيانها فيما يلي :

الوسيلة الأولى : هي وسيلة الإدراك الحسي المباشر أو عن طريق الأجهزة ،وذلك متى شهد العقل بصحة هذا الإدراك وسلامته من الخلل ، فحينما تشهد الحواس الإنسانية ظاهرة كونية وتتوافق الحواس السليمة في إدراكها ، تغدو الصورة التي قدمتها صورة علمية مقبولة ضمن الحدود التي قدمتها ، وضمن الصورة التي نقلتها .

وباستخدام هذه الوسيلة قرر المسلمون في علومهم حقائق كثيرة لم تأتِ بها نصوص شرعية ، ولا رجعوا فيها إلى تفسيرات نصوص شرعية وشروح لدلالتها ، كما زعم الناقد (د. العظم) في نقده القائم على المغالطات والأكاذيب .

وهل الملاحظة التي يُعتمد عليها في مناهج البحث العلمي إلا تتبع الظواهر بالإدراك الحسي ، ورصدها ومحاولة تفسيرها؟

أفلا يحق لنا أن نقول : إن مناهج العلوم الحديثة قد اقتبسها من مناهج البحث عن المسلمين ، الذين أخذوا بها إذ حثهم الإسلام على استخدامها ، للتعرف على الظواهر الكونية ، وما في عالم الحس من حقائق ،ولتكون مادة يستدل منها على قوانين الكون وسننه وخفاياه؟

ولئن أنكر (د. العظم) هذه الحقيقة فقد اعترف بها كتّاب كبار من مؤرِّخي الحضارة الأوروبية الحديثة وعلمائها ، وأعلنوا فضل حضارة المسلمين على الحضارة الحديثة ، في مناهجها وفي نتائجها[1].

الوسيلة الثانية : هي وسيلة الاستدلال العقلي ، وللاستدلال العقلي أصول وضوابط معروفة مدروسة في الفكر الإسلامي ، ومعطيات هذا الاستدلال لا تكون علوماً مقطوعاً بها ما لم تكن يقينية غير قابلة لاحتمال النقض ، وإلا كانت درجة قبولها مناسبة لدرجة قوة الاحتمال الذي رجحه الاستدلال .

ويعتمد الاستدلال العقلي على التجربة والاستقرار والتأمل العقلي المجرد ،الذي يعطي أحكاماً منطقية جازمة ، أو أحكاماً منطقية راجحة .

وإذا لم نقل : إن هذه الوسيلة قد اقتبسها علماء النهضة الحضارية الحديثة من المسلمين ، فلا أقل من أن نقول بالاتفاق في المنهج ، ومعلوم أن المسلمين كانوا هم الأسبق في الواقع التاريخي .

وكان لاستخدام هاتين الوسيلتين : (الإدراك الحسي ، والاستدلال العقلي) في الفكر الإسلامي معطيات علمية واسعة ، في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والإنسانية ، فالإدراك الحسي يحدد الملاحظة ومع الملاحظة أو بعدها أو قبلها أحياناً تستخدم التجربة ، ومن ورائهما ينشط الاستدلال العقلي .

وبذلك دوَّن علماء المسلمين في علوم الكيمياء ، والفيزياء والطب والفلك والرياضيات (الحساب والجبر والهندسة) والجغرافيا ، والتاريخ مدونات كبيرة وكثيرة ، أثبتوا فيها معطيات منهجهم العلمي ،إضافة إلى ما نقلوه عن غيرهم من منجزات الحضارات السابقة في هذه المجالات .

إن عرض هذه الحقيقة وحدها عن الفكر الإسلامي كافٍ لكشف التزييف الحقير الذي صنعه الناقد (د. العظم) العميل لمنظمات عالمية تخدم الصهيونية في الوطن العربي ، إذ زعم أن منهج الفكر الإسلامي للوصول إلى القناعات والمعارف عن طبيعة الكون وتركيبه ونشوئه ، وعن

---

[1] انظر كتاب "أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها" ، للمؤلف .

تاريخ الإنسان وأصله وحياته خلال العصور ، هو الرجـوع فقـط إلـى نصـوص معينة تعتبر مقدسـة أو منزَّلـة ، أو الرجـوع إلـى كتابـات الحكمـاء والعلمـاء الذين درسوا وشرحوا هذه النصوص .

والغريب في أمره – وهو لسـان مـن ألسـنة كتـائب الملحـدين – أنـه يصنع التزييف ، ويغالط به ، ثم يقرره حقيقة واقعة ، ثم يـوجه الإدانـة علـى أساسه ، ثم يُصدر حكمه القاطع الـذي لا اسـتئناف فيـه ، وينهـي المحاكمـة هكذا بكل بساطة .

وطـبيعي أن يتخـذ الملحـدون هـذه الخطـة ، إذ لا ديـن يردعهـم ، ولا أخلاق تضبطهم ، وخطتهم هذه ينطبق عليها المثل "زنَّاه فحدَّه" أي : اتهمـه بالزنى كذباً وزوراً ، فأقام عليه الحد مباشرة دون بيِّنات .

فلما قرر (د. العظم) فريته عـن الفكـر الإسـلامي وعـن منهجـه فـي تحصيل المعارف ، وصنع المغالطة كما راق له ، قال في الصفحة (22) وما بعدها من كتابه:

"لذلك نجد أنظار المؤمنين دائماً موجهة إلى الوراء ، إلى تلك الفـترة التي يعتقدون أنه تم فيها كشف هذه الحقائق والمعارف من قبل اللـه ،عـن طريـق الملائكـة والرسـل ، وينتـج عـن ذلـك أن وظيفـة المـؤمن والحكيـم والفيلسوف والعالم ليست اكتشـاف حقـائق جوهريـة جديـدة ، أو اكتشـاف معارف هامة لم تكن معروفة من قبل ، وإنمـا العمـل للوصـول إلـى نظـرة أعمق ،وفهم أشـمل للنصـوص المنزلـة ، والعمـل للربـط بيـن أجـزاء هـذه النصوص وتأويلها ،ومن ثم تأويل التأولايات ، حتى تستنبط معانيها الدفينـة ، ويتوصـل إلـى الحقـائق والمعـارف الكامنـة فيهـا منـذ الأزل ، وهـذا العمـل ضروري وجوهري استناداً إلى الآية القرآنية: {وما فرطنـا فـي الكتـاب مـن شيء}، فلا عجب إذن إذا وجـدنا التاريـخ الفكـري للـدين يتـألف دائمـاً مـن تفاسير وشروح ، وشروح لشروح الشروح".
هذا ما قاله حرفياً ، فهل ينطبق على واقع العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية الـتي دوَّنهـا المسـلمون ، واكتشـفوا فيهـا وأبـدعوا . وكـانوا رادَةَ الفكر الأوروبي الحديث في هذا المضمار؟!

إنه كلام لا يقبله أصغر طلبة العلوم الإسـلامية ، أمـا أن يعـرض علـى العالم الإسلامي في كتاب مطبـوع فـذلك هـو البهتـان المـبين ، والاسـتهانة بعلماء المسلمين ، والاستخفاف بالأجيال الحديثـة الـتي يتصـور الناقـد أنهـا غدت تتقبل كل زيف وكذب ومغالطات ، دون تحرير ولا تمحيص ، ألا فليعلم أن في الأجيال المسلمة الحديثة مؤمنين مفكرين ، قادرين على أن يكشفوا الزيف المقنع بالأقنعة الكثيرة ، فضلاً عن الزيف المكشوف .

الوسيلة الثالثة : هي وسيلة الأخبار الصادقة ، وهذه الوسيلة ركن من أركان وسائل اكتساب المعارف الإنسـانية ، ومعلـوم أن الإنسـان ملجـأ بالضرورة إلى الاعتماد على الوسيلة الإخبارية ، في كل أمـر لا يسـتطيع أن

يصل إلى معرفته بنفسه عن طريق الإدراك الحسي أو الاستدلال العقلي ، إن العلوم التاريخية تعتمد على المستندات الإخبارية ، بوصفها وسيلتها الكبرى ، وكل تدوين لأية حقيقة علمية توصل إليها الإنسان إنا هو حكاية خبرية لما توصل إليه ، ورواد الفضاء حينما وصلوا إلى القمر وعادوا نقلوا إلينا مشاهداتهم وملاحظاتهم نقلاً خبرياً ، وقد يدعمون أخبارهم بالمصورات ، وقد لا يدعمون ، والمدرس حينما يلقي على طلابه في معاهد العلم سلسلة المعارف ، إنما ينقلها إليهم نقلاً خبرياً ، وكل الناس يتعاملون فيما بينهم ويكون العنصر الإخباري أهم عنصر في تعاملهم .

وهذه الوسيلة الإخبارية هي الوسيلة التي اعتمد عليها الدين ، في نقل الشرائع الربانية للناس ، وفي نقل سائر التعاليم والبيانات الدينية ، والمعارف الغيبية ، عن طريق الرسل والأنبياء المؤيدين بالمعجزات وخوارق العادات ، شهادة من الله لهم بأنهم صادقون فيما يبلغون ربهم ، وكذلك وجه الإسلام للاعتماد عليها في تحصيل كثير من المعار التي توصل إليها العلماء بمسالكهم ، وأمر بسؤال أهل الذكر .

ولما كانت الوسيلة الإخبارية وسيلة قد يدخلها الكذب[1] أو الوهم في نقل الخبر ، إذا كان المخبر إنساناً عادياً غير مؤيد بالمعجزة ، أي : غير معصوم عن الكذب أو الخطأ ، وضع الإسلام منهجاً دقيقاً جداً في تحري الأخبار ، وفي تمييز مستوياتها – ثقة وضبطاً وفي اتخاذ ما يجب اتخاذه من احتياطات وتحفظات- ، ونهض علماء المسلمين بالتحرير والتمحيص ، وكان لهم في هذا المجال أدق الضوابط ، وأكثرها سلامة وإتقاناً ، لا سيما ما يتعلق منها بنقل النصوص الدينية ، وأعرض فيما يلي فكرة وجيزة عن منهج الإسلام بالنسبة إلى المستندات الإخبارية . ليكشف القارئ مدى مغالطات الناقد (د. العظم) حول منهج الإسلام.

يتلخص المنهج الإسلامي بالنسبة إلى المستندات الإخبارية بتقسيم الخبر إلى خمسة أقسام رئيسية:

* **القسم الأول :** الخبر المقطوع بصدقه .
* **القسم الثاني :** الخبر الذي يترجح جانب احتمال الصدق فيه على جانب احتمال الكذب .
* **القسم الثالث :** الخبر الذي يترجح جانب احتمال الكذب فيه على جانب احتمال الصدق .
* **القسم الرابع :** الخبر المقطوع بكذبه .
* **القسم الخامس :** الخبر المشكوك فيه .

أما القسم الأول وهو الخبر المقطوع بصدقه فيجب قبوله عقلاً وشرعاً ، لأنه خبر لا يخالطه احتمال الخطأ أو الكذب عقلاً ، وقد أوضح الإسلام أنه لا بد أن يأتي عن أحد مسلكين:

---

[1] كما يصنع (العظم) فيما ينقل من أخبار .

الأول : أن يخبر بالخبر جمع من الناس يستحيل في مقياس العقل السليم اتفاقهم على الكذب فيه ، ويكون ذلك حينما يروي الخبر جمع غفير من الناس تباينت أغراضهم ، وافترقت مصالحهم وكانوا بحالة لا يجمعهم فيها على الكذب جامع .

ويحلق به ما تواردت عليه مجموعة من شواهد النقول الإخبارية ، ودلائل الآثار الأرضية والكتابية ، والمصورات والتسجيلات الصوتية ، وبعض الاستدلالات والاستنتاجات العقلية ، حتى يصبح التسليم بمضمون الخبر أمراً حتمياً لا شك فيه لدى العقلاء المنصفين ، وحتى يصل في نفوسهم إلى درجة اليقين .

والاعتماد على مجموعة الدلائل المختلفة يجب أن يكون مصحوباً بالتبصر العقلي ، وبالتمحيص الكامل والاحتياط التام ، حتى يشهد العقل بنفي احتمال التزوير في الوثائق ، أو الخطأ أو الكذب في الإخبار .

وبهذا المسلك المقطوع به شرعاً وعقلاً حفظ الله القرآن الكريم من التحريف والتبديل ، إذ تكفل بحفظه فأعلن في سورة (الحجر/15 مصحف/54 نزول): قوله :

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}

الثاني : أن يرد الخبر على لسان نبي من أنبياء الله تعالى أو رسوله من رسله ، وقد أحاط الله الأنبياء والرسل الذين يبلغون عنه بوضع يجعل التسليم بنقولهم وأخبارهم عن الله قضية مقطوعاً بها عند كل المنصفين من العقلاء ، ذلك بسبب ما صانهم به من العصمة عن الكذب وسائر المعاصي ، وبسبب ما أيدهم به من المعجزات الباهرات التي لا يأتي بها أو بمثلها إلا رسول مؤيد من عند الله ، ومصدق من قبله بلسان حال المعجزات ، فالمعجزات التي يجريها الله على أيدي رسله وأنبيائه دليل قاطع على صدق رسالاتهم ، وصدق أخبارهم التي يخبرون بها عن ربهم .

فمتى ورد الخبر عن طريق أحد هذين المسلكين كان مقطوعاً به ووجب تصديقه .

ولكن لا بد من التمييز بين لفظ الخبر وبين مضمون الخبر ، فإذا أثبت المستند الخبري قطعية الصدق في لفظ الخبر فليس معنى ذلك أن تحديد معنى اللفظ أمر مقطوع به أيضاً ، إن تحديد المعنى قضية ثانية ،لا بد لها من مستند آخر يحدد المعنى بصفة قطعية غير قابلة لاحتمال التأويل ، فإذا تم تحديد المعنى بصفة قطعية وجب حينئذ التسليم به عقلاً ، كما وجب التسليم بصحة نقل لفظ الخبر قطعاً ، وهذا ما يطلق عليه علماء أصول الفقه الإسلامي عبارتي : "قطعي الثبوت ، قطعي الدلالة".

أما إذا كان تحديد المعنى غير مقطوع به فإنهم يطلقون عبارتي "قطعي الثبوت ، ظني الدلالة" ، وفي هذه الحالة يجب التسليم عقلاً

وشرعاً بصحة نقل لفظ الخبر ، وتبقى الدلالة في مستوى الرجحان ، أو قيد الدراسة والبحث لتحديد المعنى .

وقد تكون دلالة النص المقطوع بثبوته مبهمة غير واضحة أصلاً.

فلا تلازم بين كون النص قطعياً وكون معناه قطعياً أيضاً ، بل لا بد في ذلك من اتباع منهج علمي دقيق أوضحه علماء المسلمين في علم أصول الفقه الإسلامي .

من أجل ذلك ليس لأحد أن يغالط في دلالات النصوص القاطعة ، اعتماداً على ثبوت لفظها ثبوتاً قطعياً ، إن لفهم النصوص منهجاً دقيقاً وضع له علماء المسلمين علماً قائماً بذاته ، إنه علم أصول الفقه .

وتظل المفاهيم الاجتهادية المأخوذة من دلالات النصوص مفاهيم احتمالية راجحة ، قابلة للنقض أو التعديل بأدلة أقوى من أدلتها ، حتى تتوافر الأدلة التي تفيد القطع بصحة هذه المفاهيم ، وعدم قابليتها للنقض أو التعديل بحال من الأحوال ، عندئذٍ يغدو معنى النص قطعياً ، وعندئذٍ يصح أن يوصف بأنه قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، أو قطعي اللفظ قطعي المعنى .

وربما يتوافر المستند الإخباري القاطع بتحديد فكرة من الأفكار ، أو معنى من المعاني ، دون أن تأتي هذه الفكرة أو المعنى بلفظ واحد قطعي الثبوت ، وعندئذٍ تكون القطعية للمعنى أو للفكرة لا للنص اللفظي ، وهذا ما يسمونه المتواتر بالمعنى ، إذ يرد الخبر بعد ألفاظ كل واحد منها خبر راجح لا قطعي ، إلا أن معناها بالمعنى ، إذ يرد الخبر بعدة ألفاظ كل واحد منها خبر راجح لا قطعي ، إلا أن معناها جميعاً واحداً ، فإذا كانت عدة هذه الأخبار من قبيل المتواتر الذي يستحيل اتفاق المخبرين فيها على الكذب كان المعنى الذي دلت عليه مقطوعاً به ، لأنه خبر متواتر بالمعنى .

وأما القسم الثاني وهو الخبر الذي يترجح صدقه على كذبه فهو خبر يوثق به في منهج الإسلام وثوقاً ترجيحياً ، قابلاً لاحتمال النقض أو التعديل بدليل أقوى منه ، ولا يوثق به وثوقاً إلزامياً قاطعاً ، لاحتمال الخطأ أو الكذب فيه ، وإن كان بحسب الظاهر احتمالاً ضعيفاً.

وأما القسم الثالث : وهو الخبر الذي يترجح احتمال كذبه على احتمال صدقه ، فهو خبر معزول عن الثقة به عزلاً ترجيحياً قابلاً لاحتمال التوثيق بمعاضدة أدلة أخرى ، ولا يرفض رفضاً نهائياً مبتوتاً به ، لاحتمال براءته من الكذب أو الخطأ ، وإن كان بحسب الظاهر احتمالاً ضعيفاً .

وهذا القسم يقابل تماماً القسم الثاني في كل أحكامه .

وأما القسم الرابع وهو الخبر المقطوع بكذبه حساً أو عقلاً فهـو خـبر مرفوض بصفة قطعية .

ولكن قد يكون الكذب في روايـة اللفـظ فقـط ، مـع صـحة المعنـى ، وفي هذه الحالة لا نرفض المعنى من أجـل ثبـوت الكـذب فـي اللفـظ ، بـل نقتصر على رفض اللفظ فقط ، وننظر إلـى المعنـى مـن خلال أدلـة أخـرى خبرية أو حسية أو استدلالية .

وأما القسم الخامس وهو الخبر المشكوك فيه ، أي : ما اسـتوى فيـه طرفا التصديق والتكذيب من غير رجحان لأحدهما على الآخـر ، فهـو خـبر لا يحكم عليه بإثبات ولا بنفي ويوضع قيد الدراسة والبحث ، حتى يرد ما يرجح تصديقه أو تكذيبه .

ومنهج الإسلام فـي الاعتمـاد علـى المسـتندات الإخباريـة يبتـدئ بمـا يمكن أن نسميه بالوحدة الإخبارية .

والوحدة الإخبارية هي الراوي الواحد حينما ينقل لنا خبراً من الأخبــار . ولهذه الوحدة الإخبارية في منهج الإسلام شروط لا بـد مـن توافرهـا حـتى تكون أنباؤها مؤهلة لتجريـح صـدق الخـبر ، وحـتى تكـون مائلـة إلـى جـانب القبول ، وهي ثلاثة شروط:

1- العدالة ، وهي أن لا يعهد على الراوي الكذب أو المعصية الظاهرة .

2- الأهلية الفكرية لتحمل الأخبار ونقلها كما حُملت ، دون نسيان أو اضطراب ، أو زيادة أو نقص .

3- اتصال الراوي بمصدر الخبر أو بمن وراه له .

وهذه الشروط تستدعي الملاحظـة الدقيقـة لـرواة الأخبـار ، والنظـر في أحوالهم الفكرية والخلقية والسلوكية ، للتأكـد مـن أن أخبـارهم صـالحة للقبول ، وتستدعي أيضاً النظر في صلتهم بمصدر الخبر ، أو بمن رواه لهـم ،وهنا تتسع مشـكلة البحـث العلمـي فـي تراجـم الرجـال ، وتتبُّـع أحـوالهم ، وتمحيصـهم ، لكشـف الموثـوقين الـذين تقبـل أخبـارهم ، وتمييـز الضـعفاء والوضاعين ، وتحديد درجة كل منهم في القبول أو الرفض ، ونحو ذلـك مـن البحوث .

وهذا عمل يحتاج إلى جهود مضنية وتحريات واسـعة ، وقـد تضـافرت فعلاً جهود علماء المسلمين المضنية ، للاضطلاع بهذه المهمة الكبيرة علـى أحسن وجه عرفه التاريخ ، فحرروا ما نقل عن الرسول صـلوات اللـه عليـه تحريراً لم يسبقوا إلى مثله ، وتفوقوا في أعمالهم من أجـل تحريـر الأخبـار وتنقيحها وتصنيفها على كل أمة نقلت أخبارها ، واعتنت بتحريرها ، لذلك فلا نجد لدى أية أمة من الأمـم ولا شـعب مـن الشـعوب ذخـائر علميـة منقولـة بالأخبار الصحيحة الموثوقة مثلما نجد لدى علماء المسلمين ، وذلـك بسـبب

وضوح المنهج الذي اتبعوه في التثبت من صحة الأخبار ، أو الحكم بأرجحية صدقها .

وقد تكفل علم مصطلح الحديث بتحديد هذا المنهج وتحريره وبيانه ، وتفصيل مسالكه على أحسن وجه ، كما تكفَّلت كتب تراجم الرجال ببيان أحوالهم وأوضاعهم ، ودرجة الثقة برواية كل منهم ، والعصر الذي عاش فيه ، إلى غير ذلك مما تستدعيه أصول البحث السليم .

ومما هو طريق في هذا الموضوع أن العلماء الغربيين في هذا العصر قد وجدوا أنفسهم مضطرين للاهتداء بهدي المنهج الإسلامي في تحرير الأخبار وتنقيحها ، واتباع الأصول الإسلامية المقررة فيه ، إلا أنهم لا يستطيعون استيفاء الشروط الإسلامية في بحث عدالة الرواة لدى التطبيق العملي ، لأنه ليس لديهم أي مستند يكشف لهم أحوال رجالهم الغابرين ، حتى يرجعوا إليه في تمحيص صادق الأخبار من كاذبها ، وصادقي الرجال من كاذبيهم .

والمنهج الإسلامي لا يكتفي في كل الموضوعات بالوحدة الإخبارية الواحدة المقبولة للحكم برجحان صدق الخبر والعمل بموجبه ، ولكن القضية في منهج الإسلام تتبع الموضوع الذي يتناوله الخبر ، فما كل خبر يترجح صدقه يصلح لأن يعتمد عليه وحده في كل موضوع من موضوعات العلم أو موضوعات الحياة ، بل لا بد من نسب في الأرجحية تتفاوت بحسب أهمية الموضوعات ، وبحسب النتائج التي تترتب على قبول الأخبار فيها .

فما يقبل في رواية خبر تاريخي عادي لا يقبل في إثبات حق أو إدانة بجريمة ، وما يقبل في إثبات حق مالي لا يقبل في الاتهام بالزنى ، وما يقبل في رواية حديث نبوي وتصحيحه لا يقبل في إثبات آية قرآنية .

فالموضوعات تختلف فيما بينها ، وتتفاوت في نسبة ما تحتاجه من قوة الترجيح التي يقدمها المستند الخبري .

إن بعض الموضوعات تحتاج إلى قوة في المستند الخبري ترتقي إلى مرتبة اليقين الذي لا يقبل احتمال الخطأ ، وبعضها يكفي فيه دون ذلك .

1- فالنقل المباشر عن الوحي شرطه النبوة المستجمعة لصفتي العصمة والتأييد بالمعجزة .

2- والمستند الإخباري الذي ينقل لنا نص آية قرآنية ، أو يثبت لنا عقيدة من عقائد الدين ، أو أصلاً من أصوله الأولى مما يكفر جاحده يشترط فيه التواتر ، أي يشترط فيه القطعية التي لا تتعرض لاحتمال الخطأ أو الكذب .

فإذا لم ينقل النص القرآني بمستند إخباري قطعي لـم يثبـت قرآنـاً ، وإذا لم تنقل عقائد الدين وأصوله بمستند إخباري قطعي لم يكفر جاحـدها ، ما لم يكن لها دليل قاطع آخر .

3- وإثبات الاتهام بالزنى يحتاج في أدنى الحدود إلى قوة ترجيـح فـي المستند الإخباري تتألف من أربع وحدات إخبارية صحيحة .

4- وإثبات الحقوق بين الناس يحتـاج إلـى قـوة ترجيـح فـي المسـتند الإخباري تتألف من وحدتين إخباريتين صحيحتين .

5- والأخبار العادية التي تتضمن أخبـاراً علميـة أو تاريخيـة أو تتضـمن رواية لحديث نبوي تحتاج إلـى قـوة ترجيـح فـي المسـتند الإخبـاري قوامهـا وحدة إخبارية صحيحة .

6- والأخبار التي تتضمن مصلحة الشخص الـذي يـرد إليـه الخـبر فـي أمر من أموره الخاصة فـي حيـاته ، دون أن تتضـمن هضـماً لحـق آخـر ، أو اتهاماً له ، أو إساءة لأحـد ، أو مخالفـة لأمـر مـن أمـور الـدين ،يكفـي فيهـا انفتاح النفس لقبول صحة الخبر ، والاقتناع به ، دون النظر في حالة المخبر وصـفته ، لأن موضـوعه لا يتطلـب أكـثر مـن اتخـاذ الاحتياطـات والأسـباب اللازمة لدفع الخطر أو القرار منه ، أو اقتناص المنفعة المرتقبة .

فهل يجد الناقد (د. العظم) أو غيره من أعداء الإسلام في هذا المنهج الذي أبدع فيه الفكر الإسلامي أيما إبداع ثغرة يعلق عليها بانتقاد؟ علماً بأننا لم نرسم في بياننا هذا غير الخطوط العريضة له .

منهج الإسلام عند اختلاف وسائل المعرفة في النتائج

سبق في الفصل الثاني (الحقيقة بين الدين والعلم) ، بيان منهج الإسلام عندما تختلف وسائل المعرفة في النتائج التي يتوصل كل منها إليهـا ، حول موضوع واحد ، أو حول نقطة في موضـوع واحـد ، فلا داعـي لإعـادة تفصيل هذا المنهج .

وخلاصته أن وسائل المعرفة لا تختلف في النتائج الـتي تتوصـل إليهـا حول موضـوع واحـد أو حـول نقطـة فـي موضـوع واحـد اختلاف تنـاقض إلا وبعضها أو جميعها قد دخل إليه الخلل ، وعلى الباحثين أن يعيدوا النظر فيما توصلوا إليه من نتائج ، واليقيني منها الـذي غـدا مقطوعـاً بـه نهائيـاً ، وغيـر قابل للنقض أو التعديل بحال من الأحوال هـو الـذي يفـرض نفسـه علميـاً ، سواء أكان نتيجة إدراك حسي ، أو استدلال عقلي ، أو نتيجة فهم لنص ديني يقيني الثبوت يقيني الدلالة .

أما النظريات والفرضيات والاجتهادات والإدراكـات الحسـية ، الـتي لا تقدم يقيناً فهـذه قـد تختلـف فيمـا بينهـا وقـد تتنـاقض ، وقـد يكـون الواقـع

بخلافها جميعاً ، والأخذ بالراجح منها أمر تفرضه الضرورة الإنسانية ، ولا يكون بعضها حجة على بعض ، أو له القداسة المطلقة ،لن الحق منها هو ما طابق الواقع والحقيقة ، ومادامت نتائجها جميعاً غير يقينية فإن هذه المطابقة تظل مجهولة ، أو مشكوكاً بها ، أو في مستوى الرجحان فقط ، لا في مستوى اليقين المقطوع به .

فليس لأحد أن يأتي بنظرية قابلة للتعديل ، أو بفرضية من الفرضيات ، ويجعلها علماً مقطوعاً به ، ثم يعيب بها ما يفهم من النصوص الدينية ، ويزعم بذلك أن الإسلام يخالف العلم ، وليس لأحد أن يأتي بفهم اجتهادي في النصوص الدينية ، وهو محتمل للخطأ أو التعديل ، ثم يجعل هذا الفهم الاجتهادي أمراً مقطوعاً به في الدين ، ثم يرد به ما أثبتته الوسائل العلمية الإنسانية إثباتاً نهائياً مقطوعاً به ، أو يرد به رداً قطعياً نظريات أو فرضيات من المحتمل أن يكون الواقع مطابقاً لها ، فالفهم الاجتهادي في النص الديني أخذ بما ترجح لدى المجتهد من دلالته ، مع احتمال أن يكون الواقع بخلافه ، والنظرية العلمية فهم اجتهادي في تفسير الظواهر الكونية بما ترجح لدى الباحث من دلالاتها . ويظل العقل في كل منهما يفرض احتمال أن يكون الواقع بخلاف هذا أو بخلاف هذا ، أو بخلافهما جميعاً ، فليس أحدهما حجة على الآخر ، إلا أن تكون أدلة ترجيحه أقوى ، فيتقوى بأدلته دون أن يعطي قطعاً وجزماً بنتائجه .
وتنفرد النصوص الدينية ببياناتها عن أمور الغيب التي تعجز الوسائل الإنسانية عن إدراكها حساً أو استدلالاً .

ولدى اختلاف نتائج وسائل المعرفة حول فكرة واحدة ، أو اختلاف نتائج الباحثين في حدود وسيلة واحدة ، يجب التوقف عن الجزم والقطع ، ويقضي المنهج الأمثل بمتابعة البحث في كل الوسائل الممكنة للظفر باليقين العلمي ، ولا يمنع هذا من العمل في تطبيقات الحياة بمقتضى النتائج ، ولكل باحث أن يعمل بما ترجح لديه ، دون أن يُنحي باللائمة على من خالفه ، لاحتمال أن يكون هو المخطئ لا من خالفه فيما توصل إليه ، ما لم يظهر فساد الرأي المخالف بيقين ، أو برجحان شبيه اليقين ، وعند الظفر باليقين العلمي عن طريق أية وسيلة من وسائل المعرفة يتبين فساد كل الآراء المخالفة له ، ويحكم عليها عندئذٍ بالمحو من ديوان المعرفة ، وبالعزل عن مجالات النظر .

ولهذا أمثلة في الواقع العلمي ، لقد سبق في تاريخ المعرفة الإنسانية أن دليل الحس البصري قدم لنا صورة حسية عن شروق الشمس وغروبها ، فقرر المشاهدون المبصرون أن الشمس هي التي تتحرك وتسير في السماء من الشرق إلى الغرب ،وأن الأرض ثابتة .

ثم انفتحت للإنسان دلائل الاستدلال العقلي اعتماداً على أمارات كثيرة ، فغيرت نظرته إلى هذه الحقيقة ، وجعلته يفسر مشاهدات الحس تفسيراً آخر ، خلاصته أن الأرض هي التي تدور حول نفسها ، فتشرق الشمس على قسم منها بهذا الدوران ،وتغرب عن قسم آخر ، ويتوهم

الحس البصري أن الشمس هي التي تسير هذا السير ، باعتبار اتحاد النسبة من جهة ، وعدم شعور ركاب الأرض بحركتها من جهة أخرى .

وهنا نلاحظ وجود التناقض بين النتيجة التي قدمها الحس البصري والنتيجة الأخرى التي قدمها الاستدلال العقلي ، وقام الجدل بين أنصار شهادة الحس البصري ، وأنصار شهادة الاستدلال العقلي .
وكان على الإنسان أمام هذا التناقض في النتائج أن يعيد النظر لاستبانة المخطئ من الوسيلتين للظفر باليقين العلمي ، نظراً إلى أن أمارات العقل لم تقدم في حدودها الأولى يقيناً .

ولدى إعادة النظر تبين للإنسان وجود احتمال كون الحس البصري هو المخطئ ، وذلك حين دخل محطة انطلاق قطارات سكة الحديد ،وركب في أحدها ، وكان في جواره قطار ساكن ،ولما انطق القطار الذي هو فيه خدعه حسه البصري فحسب أن القطار المجاور له هو الذي انطلق، وكان هذا من الحس البصري شهادة مخطئة ، ثم لما انطلق القطار بعيداً تبين له أن الحقيقة بخلاف ما حسبه من قبل .

وبهذه المراجعة الأولى بدأ الإنسان يشك بشهادة حسه البصري عن الحركة ، وبدأ يترجح لديه جانب الاستدلال العقلي في هذا الموضوع ،دون أن يستطيع كثير من الباحثين تقديم يقين كامل في أول الأمر يثبت أن الأرض هي التي تدور حول نفسها ، وأن الشمس بالنسبة إلى هذه الحركة بالذات ثابتة .

وتابع البحث العملي خطواته ، وصعد الإنسان إلى الأجواء العليا ، وتحرر من سلطان خداع الحسب البصري على سطح الأرض ، وتحقق بالمشاهدة البصرية النتيجة التي قدمها الاستدلال العقلي ، وأثبت بيقين علمي أن الأرض هي التي تدور حول نفسها في كل يوم مرة ، وبذلك تفسر ظاهرة الليل والنهار ، وأنها تدور حول الشمس في كل عام شمسي ، وهو السبب في كثير من الظواهر التي تحدث في الأرض .

وهكذا لما برئت شهادة الحس البصري من علة الخطأ التي كانت واقعة فيها اتحدت النتيجة ، فكان ما أثبته الحس عين ما أثبته الاستدلال العقلي ، ووصل الإنسان إلى معرفة هذه الحقيقة إلى مرتبة اليقين .

أما النصوص الدينية في هذا المجال فلا نجد فيها نصاً ثابتاً قاطع الدلالة على ما يخالف هذه الحقيقة التي أثبتها الاستدلال العقلي ، ثم شهدها الحس لما تحرر من منطقة الخداع البصري ، بل نجد في النصوص الدينية ما يفهم من عمومها دلالات توافق ما انتهى إليه دليل العقل ثم دليل الحس ، وحين نجد بعض العلماء السابقين قد فهموا من هذه النصوص فهماً مخالفاً لهذه الحقيقة فما علينا إلا أن نصحح فهمهم ، ونعيد النظر في اجتهادهم ، لأن النصوص الدينية المبلغة عن الله بطرق ثابتة يقينية لا يمكن أن تكون دلالاتها الصحيحة مناقضة للحقيقة والواقع ، وعملية المراجعة هذه

لا تمس النصوص الدينية ذاتها ، وإنما تمس المفاهيم الاجتهادية التي فهمها مجتهدون ليسوا بمعصومين عن الخطأ ، على أن كثيراً من العلماء المسلمين السابقين قد فهموا من هذه النصوص الدينية مفاهيم تتفق مع النتيجة العلمية التي انتهت إلهيا وسائل الاستدلال العقلي والإدراك الحسي .

والواقع في كل الأحوال هو الحَكَم على كل وسائل الاستدلال .

(5)

بعد أن أوضحت لنا الخطوط الكلية العامة للمنهج العلمي الإسلامي ، ظهر لنا تماماً زيف ادعاءات الناقد (د. العظم) إذ صور المنهج الإسلامي كما يشتهي أن يصوره للناس ، لتنفيرهم من الإسلام ، وأخذ يغالط في الأمور بناءً على ادعاءاته الكاذبة ، ثم أخذ يصدر بناء على مغالطاته وأكاذيبه أحكاماً تقريرية من عند نفسه يتهم بها الإسلام ومنهجه للوصول إلى المعرفة .

وما أعتقد أنه يجهل هذه الحقائق كلها أو بعضها عن الإسلام ومنهجه العلمي ، ولكن المبطلين كثيراً ما يعرفون الحق إلا أنهم يراوغون عنه ، ويحاولون طمس وجهه المشرق الجميل ، لأنه يخالف أهواءهم ولا يحقق لهم ما يشتهون ، وهذه هي علتهم النفسية .

أما الشاكون الباحثون عن الحقيقة بإخلاص فإنهم لا يغالطون ولا يكذبون ولا يتلاعبون بالحقائق، ومتى وصلوا إلى إدراك الحقيقة بأنفسهم ، أو عُرِّفوا بها عن طريق المناظرة ، فإنهم يستمسكون بها كما لو ظفروا بكنز عظيم ، ويسهل عليهم الاعتراف والتراجع عن آرائهم السابقة التي كانوا يتصورونها حقاً أو أموراً مرجحة ، لأن معرفة الحق هو الأمر العظيم الذي ينشدونه ويبحثون عنه بإخلاص , ولا يبحثون عن مجرد مبررات يصنعونها بأنفسهم ، لتدعيم ما تميل إليه أهواؤهم وشهواتهم ، ومصالحهم السياسية أو الحزبية ، بخلاف المبطلين في كل ذلك ، لا سيما الملاحدة ذوو الأهداف الحزبية السياسية .

لما زعم الناقد (د. العظم) أن المنهج الذي اعتمده الإسلام للوصول إل المعارف والعلوم والقناعات عن الكون وتركيبه وطبيعته ، وعن تاريخ الإنسان وأصله وحياته خلال العصور هو الرجوع فقط إلى نصوص دينية معينة تعتبر مقدسة أو منزلة ، ورتب فريته كما اشتهى ، وخالف فيما ادعاه حقيقة المنهج الإسلامي الذي وضحت لنا خطوطه الكلية العامة ، وأدخل في كلامه مغالطات مكشوفة ، أورد تعليقة التالي فقال في الصفحة (23) من كتابه:

"إن الروح العلمية بعيدة كل البعد عن هذا المنطق ، وهذه النظرة الدينية".

إن أي ناظر في أصول المنهج الإسلامي الذي عرضنا خطوطه الكلية العامة يكتشف بنفسه افتراءات الناقد (د. العظم) وأكاذيبه ومغالطاته ،ويرى أنها مرفوضة من أساسها .

إن ما أوضحناه من منهج الإسلام في هذا المجال يقنع – بحمد الله – كل ناظر ، ويسكت بالحق كل مناظر ، ونضيف هنا شواهد من النصوص القرآنية، تدل على مبلغ الدفع الإسلامي للبحث عن حقائق الكون وحقائق الإنسان ، عن طريق النظر في الكون نفسه ، وفي الإنسان نفسه ، وهذا النظر إنما يتم بوسائل البحث الإنساني ، وهي وسائل الإدراك الحسي ، ووسائل الاستدلال العقلي .

فمن هذه الشواهد القرآنية ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (يونس/10 مصحف/51 نزول):

{قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ...}.

ففي هذا النص القرآني دعوة آمرة للبحث العملي في السماوات والأرض عن طريق النظر ، لا عن طريق تفسير النصوص .

(ب) وقول الله تعالى في سورة (الذاريات/51 مصحف/67 نزول):

{وَفِي ٱلأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ}.

في هذا النص دعوة إلى البحث العلمي في الأرض وفي النفس الإنسانية للتعرف على آيات الله فيهما ، وهذا البحث العلمي لا بد أن يعتمد على وسائل الإدراك الحسي والاستدلال العقلي .

(ج) وقول الله تعالى في سورة (العنكبوت/29 مصحف/85 نزول):

{أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِيءُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِىءُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

ففي هذا النص دعوة للنظر في ظاهرة التكوين عن طريق البحث العلمي ، الذي يعتمد الوسائل الحسية والوسائل العقلية ، لا على مجرد تفسير النصوص وفهم دلالاتها ، كما زعم الناقد (د. العظم) في ادعاءاته وافتراءاته ومغالطاته .

وقد اندفع المسلمون فعلاً يطبقون منهج النظر العلمي في أنفسهم وفي الكون من حولهم ، للوصول إلى معرفة حقائق الأمور ، عن الكون والإنسان والحياة ، وسر المبدأ ومفاهيم النشأة ، وهذا البحث هداهم إلى تطبيق المنهج التجريبي ، في العلوم التي تخضع موضوعاتها للملاحظة

والتجربة ، الأمر الذي دفع العالم الأوروبـي المشـهور (جـب) إلـى أن يقـول في كتابه "الاتجاهت الحديثة في الإسلام"[1]:

"أعتقد من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة ، وأنه عن طريـق هـذه الملاحظـات وصـل المنهـج التجريـبي إلـى أوروبا في العصور الوسطى".

فهل بعد هذا تبقى أية قيمة لافتراءات الناقد (د. العظم) ؟

إن أي ناظر منصف يعرف هذه الحقيقة عن الإسلام لا يمكن أن يلتفت إلى افتراءاته وافتراءات أمثاله ، أو يتأثر بها ، ولا بد أن يعلـم أن مـن الهراء الذي ليس له قيمة فكرية قوله في الصفحة (23) من كتابه:

"أما الدين فبطبيعة عقائده المحددة ثابت ساكن يعيش في الحقــائق الأزلية ، وينظر إلى الوراء ليستلهم مهده".

يقصـد بهـذا الكلام أن الـدين لا يسـمح بـالبحث والاكتشـاف ، وإنمـا يفرض على المسلمين أن يقفوا في معارفهم عنـد حـدود النصـوص الدينيـة وتفسيراتها ، دون أن ينظروا فـي الكـون ويبحثـوا فيـه بوسـائلهم الإنسـانية الحسية والعقلية .

إن مثل هذا الافتراء لا يدخل إلى على الجـاهلين بالإسـلام ، والأغـرار المضللين ، أما من قرأ شيئاً عن الإسلام مما كتبه كتاب مسـلمون ، أو مـن المصادر الإسلامية المعتمـدة فـإنه يسـتطيع بسـرعة أن يكشـف زيـف هـذا الكلام وما فيه من أباطيل .

(6)

يقول الناقد (د. العظم) في الصفحة (24) من كتابه:

"هناك تشابه بين الدين والعلم في أن كليهما يحاول أن يفسر الأحداث ، وأن يحدد الأسباب .إن الدين بديل خيالي عن العلم ، ولكـن تنشـأ المشكلة عندما يدعي الدين لنفسه ولمعتقداته نوعـاً مـن الصـدق لا يمكـن لأي بديل خيالي أن يتصف به".

إن أي ناظر في هذا الكلام (العظمي) لا يرى فيه أي شيء من النقـد العلمي ، وما زعمه دليلاً فيما كتبه حول هذا الموضوع سبق أن كشفنا زيفه .

[1] نقلاً من كتاب "منهج التربية الإسلامية" للأستاذ محمد قطب .

إذا كان يريد نقداً علمياً صيحاً فما باله يعطي من عنده تقريراً يلقيه جزافاً من غير أي دليل صحيح ، ويتهم فيه الدين بأنه بديل خيالي عن العلم؟

باستطاعة أي جاهل أن يقدم تقريراً لأتباعه من العميان يقول لهم فيه : إن الشمس التي يزعمها المبصرون ليست سوى بديل خيالي عن الشعلات البترولية التي يوقدها الذين اكتشفوا البترول واستخرجوه من أعماق الأرض .

ليس هذا في الحقيقة سوى شتائم باستطاعة أي إنسان محروم من الأخلاق العلمية أن يكيلها ، فيسمي الحق باطلاً دون أن يقدم أي برهان ، ويتهم الجميل بالقبح ، ويصم العالم بالجهل ، ويجعل الفضيلة رذيلة ، وهكذا بلا ضابط فكري ولا ضابط أخلاقي ، ولسنا نريد أن تكون معركتنا مع الملاحدة معركة شتائم ، فلنقتسم معهم خطتي رشد وسفاهة ، فنأخذ نحن خطة الرشد ، ويأخذون هم خطة السفاهة . وخطة الرشد لا بد أن تنتصر في آخر الأمر على خطة السفاهة ، لأن للحق قوة وسلطاناً على العقول ، ولأن للرشد قوة وسلطاناً على القلوب . وخطة السفاهة ترغي وتزبد ولا حق يدعمها ، ولا فضيلة تزينها ، أو إلى القلوب تقرِّبها .

إنه لأمر طبيعي في الملاحدة – بعد أن جحدوا وجود الله تبارك وتعالى وهو مصدر الدين والمنزل لتعاليمه- أن يعتبروا ما جاء في الدين من أخبار صادقة أموراً خيالية ، وأن يتهموا الدين بأنه بديل خيالي عن العلم ، لكن البراهين العلمية نفسها تلزمهم بالإيمان بالله لو كانوا مخلصين حقيقة للعلم ، إنهم يهربون من الدين إلى التذرع بالعلم ، وحينما تردهم البراهين العلمية إلى الدين يراوغون ويخادعون ، فيترددون في منطقة مظلمة لا تشرق عليها أنوار الدين ولا تشرق عليها أنوار العلم ، ويعصبون أعينهم عن الحقيقة وينادون بالإنكار ، والإنكار موقف سلبي تجاه الحقيقة ، لا يكلف صاحبه أكثر من كلمة : لا أعترف ، أو أنكر ، أو أجحد ، أو هذا غير صحيح ، أو العلم لا يقبله ، أو العقل لا يقبله ، أو نحو ذلك ، وكلما جئته بدليل عقلي أو علمي قال : لا أسلم ، أو هذا دليل غير كافٍ ، أو لم يعطني قناعة كافية .

ولكن إذا لم يكلفه الإنكار غير مثل هذه الأقوال عند المناظرة فسيكلفه الكثير عند الجزاء العادل ، وسيكلفه خسارة سعادته الأبدية ، وحمل ثقل الشقاء الخالد مع العذاب الأليم ، دون أن يحقق لنفسه أي كسب في الحياة الدنيا من موقفه السلبي الإنكاري .

وإن أقول له ما قال الله في سورة (الزمر/39 مصحف/59 نزول):

{قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ }.

لقد كان من الأهون عليه يوم الجزاء لو آمن وعصى ، وعرَّض نفسه لعقاب العصيان فقط ، وحَمَى نفسه من عقاب الكفر الذي لا نهاية له ، هذا إذا كان الدافع له إلى سبيل الكفر رغبته بالفجور ، والانطلاق في تلبية أهوائه وشهواته . أما إذا كان العناد والكبر هما الدافع له إلى الإلحاد والكفر فهذا شيء آخر لا دواء له إلا التنازل عن الكبر والعناد ، أو ليتحمل نتيجة كبره وعناده .

وحين قال (د. العظم): "إن الدين بديل خيالي عن العلم ، ولكن تنشأ المشكلة عندما يدَّعي الدين لنفسه ولمعتقداته نوعاً من الصدق لا يمن لأي بديل خيالي أن يتصف به".

فقد اعترف ضمناً بأنه لا يمكن لأي بديل خيالي أن يظفر بالثقة التي يظفر بها الدين ، بما في ذلك الآراء الإلحادية التي يجهد الملحدون بزخرفتها وتزيينها ، ومد الأصبغة والطلاءات عليها .

والسر في ذلك أن الدين حق ، ولا يستطيع الباطل أن يظفر بما يظفر به الحق .

وأما كون الدين يدعي لنفسه ولمعتقداته الصدق فهذه قضية خاضعة للقياس البرهاني ، إذا كانت المعارف الديِّنة مما تستطيع الوسائل الإنسانية الحسية أو الاستدلالية أو العقلية المجردة التوصل إليها . وهنا نجد التلاقي التام بين الثابت من العلم والثابت من الدين . أما غير الثابت من هذا أو ذاك فليس صالحاً من أساسه لأن يقف موقف اليقين والمعارضة ، بل هو احتمال قد يكون راجحاً وقد يكون غير راجح .

وحينما يخبر الدين بأخبار صحيحة ثابتة يقينية عن أمور غيبية لا تستطيع الوسائل الإنسانية التوصل إليها بإثبات أو نفي ، فهي أخبار ليس من حق العلم الإنساني أن ينفيها ، ولكن لما ثبت أن الدين من عند الله ،وثبت ببرهان المعجزات صدق الرسول ، ورأينا صدق الأخبار الدينية الثابتة في كل الأمور التي استطاع العلم بوسائله الإنسانية التوصل إليها ، كان كل ذلك شهادة بأن الأخبار الأخرى عن أمور الغيب حق وصدق ، ويجب الإيمان والتسليم بها .

ويتابع الناقد (د. العظم) بإصرار دعائي كاذب ، فيقول:

"إن محاولة طمس معالم النزاع بين الدين والعلم ليست إلا محاولة يائسة للدفاع عن الدين ، يلجأ إليها كلما اضطر الدين أن يتنازل عن موقع من مواقعه التقليدية ، أو كلما اضطر لأن ينسحب من مركز كان يشغله في السابق".

ما هذا الكذب العظيم الذي لجأ إليه في هذا الافتراء؟! ألا أخبرنا عن قضية واحدة مما تنازل عنه الدين للعلم؟ وما هي المواقع التي تنازل عنها الدين وانسحب منها أو تراجع فيها؟

هل تراجع الإسلام عن عقيدة من عقائده .

هل تراجع الإسلام عن حقيقة ثابتة بنص يقين؟

إذا كان يريد تصحيح اجتهادات بعض المجتهدين من المسلمين فليست هذه الاجتهادات جزءاً من نصوص الدين ، حتى يعتبر الدين مسؤولاً عنها ، وحتى يعتبر تصحيحها تراجعاً في الدين . إن الخلافات في فهم النصوص الإسلامية ما زالت ولن تزال قوة حركة علمية بين علماء المسلمين .

فدعواه التراجع وتصويره له بالصورة التي راقت له قضية مفتراة لا أساس لها من الصحة ، وليأتنا بواحدة منها حتى نناقشه فيها .

إنه لن يستطيع إلا بالمغالطة والتضليل ، بيد أن التراجع مشاهد في النظريات العلمية لصالح الدين ، وسنعقد لهذا بحثاً منفصلاً.

(7)

بإصرار مستميت حاول النقد (د. العظم) إثبات ما ادعاه من وجود التناقض بين الدين والعلم ، رغبةً بدعم الإلحاد التي يبشر بها في الوطن العربي ، خدمة للمنظمة الإلحادية العالمية ، ومن ورائها اليهودية العالمية ذات المصالح الخاصة التي تتحقق لها متى انتشر الإلحاد في الأرض وعمَّ الفساد في الشعوب .

ولذلك فهو يصطنع أسساً وهمية لما يريد أن يثبته ، ثم يبني عليها أبنية خيالية لا وجود لها إلا في رؤوس أصحابها ، أو في رؤوس الذين ينخدعون بأقوالهم ، ويسلمون بها دون محاكمة علمية منطقية رصينة .

قال في الصفحة (27) من كتابه:

"فهل من عجب إذن أن نسمع نيتشه يعلن في القرن الماضي أن الله قد مات؟ وهل باستطاعتنا أن ننكر أن الإله الذي مات في أوروبا بدأ يحتضر في كل مكان تحت تأثير المعرفة العلمية ،والتقدم الصناعي والمناهج العقلية في تقصي المعرفة ، والاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد؟....".

ثم قال في الصفحة (28):

"إن قولنا باحتضار الله في المجتمعات المتخلفة يشكل تمثيلاً رمزياً لحالة الثوران والفوران ، وفقدان الجذور التي تعانيها هذه المجتمعات ، في محاولاتها الوصول إلى التعايش المرحلي بين الأفكار العلمية الجديدة وتطبيقاتها العملية ،وبين تراثها الديني السحيق ، دون أن تتنازل كلياً ومرة واحدة عما في ماضيها من قيم غيبية".

يا عجباً ، وأية علاقة للتقدم الصناعي بموضوع إثبات الله أو نفيه؟ وأية علاقة أيضاً للاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد بهذا الموضوع نفسه؟

لكنه صاحب مذهب معين أعماه التعصب لمذهبه ، فصار يحشر كل العبارات التي يرددها رفاقه في كل مكان ، ولو لم يكن لها أدنى علاقة بالموضوع ، حتى لو رأى العالم الطبيب الجراح في غرفة العمليات يجري عملية خطيرة في القلب لقال له : ما هذه العملية الرجعية ؟ إن الاتجاهات الثورية ف ي المجتمع والاقتصاد تتطلب الرجوع قبل إجراء العملية إلى مفاهيم الحزب الثوري الذي بنى على المعرفة العملية والمناهج الثورية في تقصي المعرفة . ولو رأى الأم ترضع ولدها وتحنو عليه وكان هو لا يرغب بذلك لأطلق العبارات نفسها ، فق ال لها : ما هذا التخلف؟ إن الاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد المبنية على المعرفة العلمية والمناهج الثورية في تقصي المعرفة تتناقض مع هذه العملية الرجعية السحيقة في القدم تناقضاً كليا ، فعملية إرضاع الأمهات أطفالهن تطبيق مناقض للعلم والاتجاهات الثورية ، وهي قائمة على تصور باطل للكون والحياة والإنسان ، لا سيما نظرية التطور ، والثورة الفرنسية ، والحقائق العلمية التي اشتمل عليها كتاب "أصل الأنواع" لداروين ، وكتاب "رأس المال" لكارل ماركس.

فهو كلما رأى شيئاً يخالف مذهبه الباطل أو يخالف هواه جاء بهذه العبارات نفسها فرددها دون وعي لمضمونها ، ودون ملاحظة أية مناسبة بينها وبين الموضوع الذي يستعملها فيه.

وقد ذكرني هذا بقصة الثري الغبي وبائع الببغاء ، قالوا : مرَّ ثريٌ غبي على بائع الطيور النادرة فوجده يعرض للبيع ببغاء تتكلم كل شيء ، حتى إنها تتكلم بمختلف اللغات ، فتعلقت نفس الثري الغبي بشرائها ، ولكنه أراد أن يستوثق من البائع عن صحة دعواه ، فقال له البائع الخبيث سل الببغاء فإنها تجيبك . فقال الثري لها : يا ببغاء أحقاً أنك تتكمين كل اللغات؟ فأجابته الببغاء: وهل أنت في شك من ذلك؟ فقال لها : فهل تتكلمين الفرنسية فقالت له : وهل أنت في شك من ذلك؟ فقال لها : والإنكليزية؟ فقالت له: وهل أنت في شك من ذلك؟ فانخدع بالأمر فاشتراها بثمن عظيم إذ استغل البائع الخبيث غفلته . ولما انصرف إلى بيته دعا أقرانه من الوجهاء والأعيان ليطلعهم على تحفته الجديدة ، وأخرجها إليهم وقال لهم : كلموها تجبكم بكل شيء ، فجعلوا يكلمونها فلا تجيب إلا بقولها : وهل أنت في شك من ذلك؟ عندئذٍ قال لها الثري : لقد كنتُ غبياً جداً بل حماراً إذ اشتريتك أليس كذلك؟ فقالت له: وهل أنت في شك من ذلك؟

وهذا هو الجواب الوحيد الذي صدقت به ، وما كان لها أن تصدق بغيره ، لأن بائعها لم يُعلمها غير هذه العبارة .

وكم نشاهد في الحزبين المتعصبين ببغاوات ، لا يفقهون إلا عبارات محفوظة يرددونها بمناسبة وبغير مناسبة ، حتى ولو كان أحدهم من الطلائع

المثقفة التي تحمل شهادات كبيرة ، فالتعصب الحزبي المذهبي أخطر عمىً فكري تصاب به المجتمعات الإنسانية .

لذلك فلا عجب أن نجد من نحن في صدده متهافتاً في كلامه ، متخبطاً في أفكاره ، يلبس بنطاله من يديه ، ويلبس معطفه من رجليه ، ويجري التبادل المضحك بين ألبسة الرؤوس والأقدام .

ومن تمويهاته التي أراد أن يجعل منها مشكلة خاصة من مشكلات النزاع بين الدين والعلم قوله في الصفحة (29) من كتابه:

"بعد أن عالجنا بشيء من التفصيل مشكلة الثقافة العلمية والاعتقاد الديني ، على مستوى النزاع بين الدين والعلم ننتقل الآن إلى معالجة الموضوع على صعيد ما أسميناه بالمشكلة الخاصة . والسؤال الذي سيدور بحثنا حوله يتلخص بما يلي: كيف يكون موقف الإنسان الذي تعرض للثقافة العلمية ، وتأثر بها تأثراً جذرياً من المعتقدات الدينية التقليدية والمؤسسات التي تتجسد فيها؟ أيستطيع هذا الإنسان أن يستمر في الاعتقاد بآدم وحواء ، وبالجحيم والنعيم ، وبأن موسى شق البحر الأحمر وحوّل عصاه حيَّة تسعى؟ كيف يكون موقف الإنسان الذي نشأ نشأة دينية وتقبلها جملة وتفصيلاً من النظرة العلمية الطبيعية للحياة والكون والإنسان؟ من العسير أن نجد بيننا شخصاً يتمتع بشيء من الحس المرهف وبقسط ولو متواضع من الذكاء والثقافة العلمية لم يعانِ التوتر الذي تنطوي عليه هذه الأسئلة ، والقلق الذي تثيره في إحدى مراحل حياته ونموِّه".

أكل المشكلة الخاصة التي زعم سيادة الناقد أنها تحدث القلق والتوتر هي أن يعتقد المثقف العصري بآدم وحواء ، وبالجحيم والنعيم ، أي بقانون الجزاء الرباني ، وبالمعجزات التي يجريها الله على أيدي رسله ليشهد لهم بصدقهم فيما يبلغون عنه؟

ما هو مدى تأثير هذه العقائد على أي تقدم في الصناعة أو في الفيزياء ، أو في الكيمياء أو في الطب والزراعة ، أو في الفلك والرياضيات أو في التكنولوجيا أو في أي مجال نافع من مجالات الحياة؟

هل إنكار آدم وحواء يمثل قاعدة الارتقاء في المعرفة ، فمن آمن بهما توقف ومن أنكرهما وارتقى؟

هل تنحل مشكلة القلق والتوتر إذا هو آمن بجدٍّ من القرود بدل آدم ، وبجدة قردة بدل حواء؟

هل الإيمان بالآخرة وقانون الجزاء الرباني لالتزام فعل الخير وترك الشر يعتبر معوقاً من معوقات التقدم العلمي والصناعي؟ وهل الكفر بهما يعطي شحنة دافعة للتقدم العلمي والصناعي ؟

ما هذا الكلام الهراء الذي لا يقوله ولا يقبله إلا السخفاء؟

أيها الملحدون ارفعوا عن قرون الجهل الفاضح والحماقة السخيفة الحجرية أقنعة العلمانية ، إن العلم الصحيح الثابت لا يخدم قضيتكم الباطلة ، إن العلم الصحيح بعيد عن دعوتكم ومذهبكم كبعدكم عن الله الذي تجحدونه ، وعن آياته وبياناته التي تنكرونها ، وعن أخباره التي تسخرون منها .

إن ما زعمه الناقد (د. العظم) فيما أسماه بالمشكلة الخاصة التي تحدث في نفس المثقف ثقافة علمية توتراً وقلقاً ، حينما يحاول التوفيق بين عقائده الدينية ومعارفه العلمية يشبه مشكلة المدينة التي داهمت الجيوش الغازية أسوارها ، وأهلها لا يخرجون للدفاع وصد الغزاة ؛ لأنهم يعانون توتراً فكرياً وقلقاً خطيراً حول السؤال التالي : هل وجود الدجاجة كان سابقاً لوجود البيضة؟ أم وجود البيضة كان سابقاً لوجود الدجاجة؟

الحقيقة أن الملحدين هم الذين يعانون من القلق والتوتر ، ويقعون تحت وطأة التناقض بين الحقيقة وبين ما اختاروا لأنفسهم من مذهب باطل من جهة ، وبين العناد والخوف من المصير من جهة أخرى ، وهذا يظهر في حالات العنف الذي يبدو في تصرفاتهم ، والاضطراب الشديد الذي تعاني نفوسهم منه ، لأن عقولهم الباطنة وجذور ضمائهم لا تستطيع أن تنكر الحقيقة ، بينما لا تستطيع نفوسهم المجرمة وشهواتهم العارمة أن تسلِّم بها ، فهم بذلك يقعون في حالات الصراع الداخلي العنيف ، الذي لا يحلُّه إلا العناد والإمعان في الجريمة ، وتجاهل المصير الخطير المؤلم الذي يقذفون بأنفسهم إليه ، ويبدو بعد ذلك صفرة كالحة في وجوههم ، وحقداً على الناس في معاملاته ، ووحشية عجيبة حين يظفرون .

أما المؤمنون فهم – على العكس من كل ذلك- يظلون مطمئنين في كل أحوالهم ، ولا يوجد في داخلهم تناقض بين الحقيقة وما يعتقدون ، ويشعرون دائماً بالأمن تجاه مصيرهم ، لأن الله قد ضمن لهم الجنة بإيمانهم ، وحينما يقلقون بعض القلق من المعاصي التي قد يفعلونها تأتي مفاهيم التوبة ورجاء الغفران فتمسح عن نفوسهم القلق ، وتعيد لها طمأنينتها ثقة برحمة الله وعفوه ، ومشاعرهم نحو الناس تتدفق بالمحبة والرحمة وإرادة الخير والهداية للناس كل الناس . وحينما يجدون خلافاً بين ما يقوله واضعو النظريات العلمية وما يقوله المجتهدون في فهم النصوص الدينية فإنهم يقولون : إن الحقيقة واحدة ، لا تتعدد ، والدين لا يلزمنا باعتقاد غير الحقيقة . فلا بد أن يكون الخطأ فيما سمي نظرية علمية ونسب إلى الحقيقة العلمية نسبة غير صحيحة ، أو فيما نسب إلى الدين وهو في الواقع اجتهاد خاطئ في فهم النصوص ، أما ما هو يقيني في الدين وما هو يقيني في العلم فإنه لا يوجد فيه خلاف مطلقاً ، ومعظم الأمور الطبيعية الكونية سكت عنها الدين ، لأن البحث الإنساني سيصل إليها بنفسه ، وكثير من الأمور الغيبية الكبرى لا يستطيع البحث العلمي أن يصل إليها بنفسه ، أو أن يحدد صفاتها وخصائصها ، لذلك فهو يعتمد فيها على الدين ولا يستطيع أن يحكم عليها بإثبات أو نفي .

وحينما يتجاوز العلم الإنساني حدوده ، ويحاول أن يصدر أحكاماً بإثبات أشياء أو نفيها لا تملك وسائله إثباتها أو نفيها ، فإن المؤمنين بالدين يقولون للبحث العلمي : قف ولا تتعد حدودك . لذلك فحينما يأتي باحث إنساني فيحكم على تاريخ الإنسان حكماً يغلي فيه آدم وحواء وقصتهما في نشأة هذه السلالة البشرية فإن المؤمنين بالدين يقولون له: لقد تجاوزت حدود وسائلك التي تكسبك المعارف الصحيحة ، ووقعت في التخيلات الذهنية التي ليس باستطاعتها أن تقدم حقائق علمية .

لست أدري ما هي الحقائق العلمية الثابتة القائمة على أدلة يقينية والتي تستطيع أن تلغي فكرة آدم وحواء وقصتهما الواردة في النصوص الدينية؟ أما الافتراضات والتخيلات والاحتمالات الذهنية فليس من شأنها أن تثبت حقائق علمية ، ما دام يوجد ما يناظرها ويكافئها في عالم الافتراضات والتخيلات والاحتمالات الذهنية .

الواقع أنه لا توجد حقائق علمية تنفي آدم وحواء وقصتهما ، أما الداروينية فإنها فرضية لا تمثل الحقيقة من جهة ، ولا تملك أدلة إثبات صحيحة ، ولا تستطيع أن تنقض خبراً دينياً ، أو تقوى على ما يفهم من ظاهره حتى نلجأ إلى تأويله بما يتفق مع الحقيقة العلمية ، لذلك فإن المؤمنين بالدين لا يعانون تناقضاً في هذه المسألة بين عقيدتهم الدينية ومفاهيمهم العلمي ، إنهم يقولون للعم : تابع بحثك حتى تصل إلى اليقين العلمي ، الذي لا يرتبط بتقدم في المعرفة أو في الصناعة ، أو في الاختراع والإبداع ، أو في الحضارة وسعادة الإنسان ، وليس من شأن الخلاف العلمي فيها أن يحدث قلقاً وتوتراً ، حتى يعطيه سيادة الناقد كل هذه الأهمية .

ولكن كيف يجد الملاحدة مشكلات يهزون بها واقع الصدقة المتينة بين الإسلام والعلم؟ إنهم إذا لم يجدوها في الواقع فلا بد أن يصطنعوها بالتزوير والكذب ، وبإيجاد النظريات التي ينسبونها إلى العلم ، والعلم منها بريء ، ويسخِّرون لترويجها عناصر كثيرة يشترونها بوسائلهم المختلفة .

وأما اعتقاد المؤمنين بالجحيم والنعيم فهو موضوع يتصل الإيمان باليوم الآخر ، وقد شرحنا هذا الموضوع سابقاً شرحاً كشفنا فيه زيف جحود الملحدين ، وأوضحنا فيه أن الملحدين لا يملكون أي دليل عقلي أو علمي يستطيعون أن ينفوا به الحياة الأخرى وما فيها من جزاء ، بيد أن المؤمنين هم الذين يملكون الأدلة لما يؤمنون به .

فلا نزاع بين العلم والدين ، ولكن النزاع بين الإيمان العلمي وبين الكفر الجاهل المخادع الذي يلبس أثواب العلم زوراً وبهتاناً .

وأما معجزات الرسل فقضية تتصل بقدرة الله الخالق القادر على تغيير ما يشاء من أنظمة كونه ، لإثبات قضية الإيمان لعباده وتصديق رسله فيما يبلغون عنه ، وهذه قضية لا تتعارض مع العقل ولا مع العلم الصحيح .

يتابع الناقد (العظم) إصراره المستميت على ادعاء وجود التناقض بين الإسلام والعلم ، فنجده يعرض أقوال بعض الباحثين المسلمين الذين يوضحون أنه لا نزاع ولا تناقض بينهما ، ثم يعلق عليها بأنها توفيقات خطابية ، أي : لا تعتمد على أدلة علمية ، بينما لا يأتي هو بأي دليل علمي أو منطقي يثبت فيه ادعاءاته الباطلة ، ويكتفي بالخطابيات والتقريرات ، والأكاذيب والمغالطات .

إنه حينما أراد التعليق على كلام جيد للدكتور الشهيد صبحي الصالح لم يجد إلا دليلاً سفسطياً أضعف من الدليل الخطابي بكثير .

يقول في الصفحة (34) من كتابه تعقيباً على ما قاله الدكتور الشيخ صبحي الصالح:

"إذا صح قول الدكتور الصالح بأن الباحث يجد في الإسلام ما يريح قلبه وأعصابه ، ويرضي فكره وفلسفته ، حول الإنسان وطبيعة الحياة وحرية الإرادة ضمن المشيئة الإلهية ، تكون المشكلة قد انحلت أصلاً وسلفاً ، ولا داعي لكل هذا الضجيج حول انسجام الإسلام مع العلم الحديث ، وكل هذا الهجوم على الإلحاد والملحدين ، وكل هذا الاهتمام والجدل والنقاش حول مشاكل الشباب المسلم ، أمام تحديات الحياة العصرية والقرن العشرين".

لا يخفى على أي ناظر ما في هذا الكلام من سفسطة واضحة ، ومغالطة مكشوفة .

إن الضجيج يأتي من غوغائية الملحدين ، الذين يحاولون أن يقيموا الحرب بين الإسلام والعلم ، ليفتنوا الشاب المسلم عن دينهم ولا يأتي من قبل الباحثين الإسلاميين ضد العلم الصحيح ، ولئن وجد شيء من الضجيج من قبل بعض المسلمين فهو ضد النظريات المدسوسة على العلم ، وهي تخالف العقائد والمفاهيم الإسلامية ، على أن هذه النظريات لا يتحمل العلم اليقيني وزرها .

ومن هنا تأتي سفسطة (العظم) فبينما يكون البحث في دائرة التحليل للحقائق على مستوى النظرة المجردة ، البعيدة عن الحدود الضيقة لآراء الناس ، إذا به يستدل بآراء الناس المختلفة ، لإثبات ما ادعاه حول طريقين من طرق المعرفة ، ومغالطته هنا تقوم على أساس التعميم العجيب بين الدين ومفاهيم المجتهدين على اختلافهم وجماهير المتدينين من جهة ، ويجعل كل أولئك حزباً متكافلاً متضامناً ، وبين العلم اليقيني والنظريات والفرضيات المنسوبة إلى العلم بغير حق ، وجماهير الماديين والملاحدة من جهة أخرى ، ويجعل كل هذه حزباً متكافلاً متضامناً .

والنتيجة التي يريد أن يستنتجها بهذه السفسطة هي ما يلي:

إذا حصل خلاف بين جزء من الحزب الأول ، وجزء من الحزب الثـاني فمعنى ذلك أن كل الحزب الأول مناقض للحزب الثاني .

فهل يقبل هذا الكلام الهراء من لديه مُسكة من عقل سوي؟

إنه رفض الكلام الذي سماه كلاماً خطابياً وقـدَّم فـي اسـتدلاله هـذه المغالطة المكشوفة ، والسفسطة السخيفة .

مع أن حقائق العلم هي التي تقـارن بهـا حقـائق الإسـلام ، ولا تقـارن حقـائق الإسـلام بالنظريـات والفرضـيات ومـذاهب المـاديين غيـر الثابتـة ، وأهواء الملاحدة الذين يحاولون أن يتخذوا من العلـم دريئـة لهـم ، فلا يقـدم لهم غير فرضيات احتماليـة لا دليـل عليهـا . هـذه ليسـت بعلـم وإن سـماها أصحابها علماً ، وحينما يوجد بينها وبيـن حقـائق الـدين تنـاقض فهـو تنـاقض يشرف الدين ويرفع من قيمته ، ويجعله مزيجاً من حقائق وظنون وأوهام.

وفي مقابل كل هذا فإن حقائق الإسلام هي الـتي تقـارن بهـا حقـائق العلم ، ولا تقارن حقائق العلم بظنـون المجتهـدين ، أو بـأغلاط المخرفيـن ، على أنها من جوهر الدين ، ولا تقارن أيضاً بأهواء أصـحاب الضـلالات الـذين ينتسبون إلى الدين ، ويحاولون أن يتخذوا منه دريئة لهـم ، ليحمـوا أنفسـهم ومصالحهم ويبرروا ضلالاتهم .

إن قضية البحث العلمي ليست بمثل السـهولة الـتي أراد أن يصـورها (د. العظم) بها ، فيتخذ من التعميم الفاسد أحكاماً وهمية باطلة ، إن البحث العلمي يحتاج إلى تحليل عناصر الموضوع المطـروح للبحـث ، وبعـد تحليـل العناصر يحكم على كل جزء مهما صغر بالحكم الملائم له.

إن العلـم لا يحمـل أباطيـل الملحـدين ولا يُعتـبر مسـؤولاً عنهـا ، ولا يحمل ظنون المخطئين ولا يُعتبر مسؤولاً عنها . وكذلك الدين فإنه لا يحمـل أباطيل المخرِّفين ، ولا يعتبر مسؤولاً عنها ، ولا يحمل أخطاء المجتهدين ولا يعتبر مسؤولاً عنها .

فحينما يقام جدل بين جبهة المتـدينين وجبهـة غيـر المتـدينين فـإنه لا يمثل جدلاً ونزاعاً بين الدين والعلم ، وإنما يمثل جدلاً ونزاعـاً بيـن منتسـب إلى العلم بالباطل وبين منتسب إلى الدين بغير حـق ، أو بيـن منتسـب إلـى العلم بالباطل وبين الدين الحق ، أو بين منتسب إلى الدين بغير الحق وبيـن العلم الحق . أما الدين الحـق والعلـم الحـق فلا نـزاع بينهمـا ولا جـدال فـي الحقيقة .

وباستطاعتنا أن نؤيد هذا المنهج التحليلي المفصل بالأدلـة والـبراهين القاطعة .

أما من يلجأ إلى التعميمات السوفسطائية بقصد التضليل والمغالطة ، فإننا نلجمه بلجام المنطق السديد ، ونقول له : عـد إلـى رشـد المعرفـة ، وإياك ومراوغة المضلين .

وباستطاعنا أن نقرر القانون التالي:

1- كل حقيقة من حقائق العلم الثابتة لا يمكن أن تنـاقض أيـة حقيقـة من الحقائق الثابتة في الدين الصحيح .

2- كل حقيقة من حقائق الدين الحق لا يمكن أن تناقض أية حقيقة من الحقائق الثابتة في العلم الصحيح .

3- ما يبدو من تناقض بين ما ينسب إلى الدين وما ينسب إلى العلم ، فإنه لا يخلو إما أن ما نسب إلى العلم أمر باطل أو ما نسب إلى الدين أمــر باطل أو فهم خاطئ ،أو كلٌّ مما نسـب إليهمـا فاسـد النسـبة غيـر صـحيح ، وفي هذه الأحوال يجب متابعة البحث لتصحيح الخطأ فيما نسب إلـى العلـم أو فيما نسب إلى الدين .

هذه هي قواعد الإيمان ، وهذه هي مناهج المؤمنين ، أما الملحد فـإنه يريد أن يبحث الأمور على المستوى الذي لا تضبطه قاعة عقلية أو علميــة ، مستوى المغالطات والأكاذيب والافتراءات . على هذا المسـتوى يسـير فـي جدلياته ومناقشاته ، ويتصور أنه بحيله وألاعيبـه يسـتطيع أن يخـدع الطلائـع المثقفة من أبناء المسلمين ، هـذا هـو وضعه فـي كـل مناقشـاته وجـدلياته وتقريراته ، في الوقت الذي يطـالب فيـه البـاحثين مـن المسـلمين بـالتزام قواعد (ديكارت) في منهج البحث السليم!!

أين التزام قواعد ديكارت في جدلياته ومناقشاته؟! بل في أي مقطع من كلامه نجد هذا الالتزام ؟!

إنها لمفارقة عجيبة ، بل إنها لوقاحة عجيبة!! وهذه الوقاحة سمة كل المبطلين المصرين على باطلهم ولو عرفوا أنه باطل .

يقول في الصفحة (35) وما بعدها ما يلي:

"واضح أن كلام المُوفِّقِين الخطابيين يبقى دوماً (عن سـابق إصـرار) على مستوى التعميمات الفضفاضة الـتي لا تزعـج أحـداً ولا تحـرج مواقـف إنسان ، إذ هل يعقل أن يكون أحد ضد (الحق) و(العلـم) و(المعرفـة)؟. إنـه منطق المجاملات وجـبر الخـواطر الـذي يرضـي جميـع الأطـراف ولا يزعـج أحداً ، لذلك يبتعد هؤلاء الموفِّقُون عن بحث أية مشكلة ذات طابع محدد قد تضطرهم إلى الخروج من مجال المفاخرة بمزايا الدين الإسلامي وحسـناته العملية للدخول في مجال التحليل الدقيق للمشكلة المطروحة .

"في الواقع يفتقر كلامهم حتى لأكثر أدوات التحليل الفكـري بدائيـة ، كما يفتقر إلى أبسط القواعـد المنهجيـة فـي التمحيـص والتفكيـر العلمـي ، حتى قواعد (ديكارت) فـي منهـج البحـث السـليم الـتي وضـعها فـي القـرن السابع عشر وأصبحت أموراً بدائية وفجة جداً في عصرنا لا نجد لهـا أي أثـر في أبحاث الموفقين الخطابيين . مـن قواعـد (ديكـارت) الأساسـية : طـرح المشكلة المراد حلها بالتحديد ، ومن ثم تقسيمها بصورة منتظمة إلـى عـدد من القضايا الجزئية التي تتكـون منهـا ، ومـن ثـم معالجـة الأجـزاء الأبسـط استعداداً للانتقال إلـى المسـألة الأكـثر تعقيـداً وتركيبـاً ، إلـى آخـر القصـة الديكارتية المعروفة حتى في المدارس الثانوية".

هذا كلام الناقد (د. العظم) عن المنهج الديكارتي ، والذي أصـبح فـي نظره من الأمور البدائية والفجة ، وجاء بعده ما هو أدق منه وأكمل .

ولكن ما باله في جدلياته ومناقشاته لا يطبق أدنى مسـتويات المنهـج الديكارتي الذي يعرفه؟!

هل يقبـل المنهـج الـديكارتي هـذه التعميمـات الـتي يسـلكها؟ وهـذه المغالطات التي يصطنعها؟ وهذه المفتريات التي يفتريها على الحقيقة؟

إن مناقشاته لتفتقر إلى أبسط أصول الفكر الإنساني الموجودة عنـد الشعوب البدائية فضلاً عن الشعوب المتقدمة حضـارياً، فضـلاً عـن معاهـد العلم والدراسة ، فضلاً عن المستوى الأكاديمي ، فـأين هـو مـن تطـبيق مـا يعرف؟.

لكن التعصب للباطل والإصرار عليه يجعلان الإنسان يخرج حتماً عـن دائـرة المنهـج السـوي ، ويجعلانـه متخبطـاً فـي مناقشـاته ، سـاقطاً فـي مناظراته ، متهافتاً في كلامه . إن المنهج السـوي لا يقـدم لأقـواله الباطلـة أدلة إثبات ، لذلك فهو مضطر إلى أن يلجأ إلى المراوغة والحيلـة والكـذب ، وهذه لا تقع ضمن خريطـة المناهـج الفكريـة السـليمة ، ولا تسـتقيم مـع أي منطق عقلي . أين التحليل؟ وأين تجزئـة المشـكلة إلـى عـدد مـن القضـايا الجزئية التي تتكون منها؟ مـا أصـدق تطـبيق المثـل العربـي عليـه "رمتنـي بدائها وانسلت"!فما يرتكبه هو من الخروج عـن منهجـه المعرفـة الصـحيحة والمناقشة السليمة ، يقذفه على أنصار الحق الذين يعلنون مفاهيمهم علـى الجمـاهير ، بالأسـاليب الـتي تفهمهـا هـذه الجمـاهير ، إذ ليـس باسـتطاعة الجماهير أن تشارك في مناقشة القضايا الجزئية مناقشة البحـث العلمـي ، وإنما تُطلب من الباحثين تقديم نتائج بحوثهم .

لكن العجب كل العجـب أن يـأتي الناقـد (د. العظـم) ومـن هـو علـى شـاكلته فيتصـدى للجـدل النقـدي ، ثـم لا يجـادل إلا مـن مواقـع الانحـراف الخطير عن المنهج الذي يدعو خصومه لالتزامه ، ينهي خصومه عن مستوى التعميمات الخطابيـة ، ويسـتخدم تعميمـات المغالطـة!!! يطـالب بالتحليـل الدقيق للمشكلة وبتقسيمها إلى عدد من القضايا الجزئية التي تتكون منها ، ثم يأتي هو إلى قضايا متعددة في أصلها ، فيضمها في قضية واحدة ويصـدر

عليها حكماً واحداً . يطالب بالتزام قواعد ديكارت التي أصبحت في نطره أموراً بدائية وفجة جداً في عرنا ، ثم يرمي في مناقشاته بكل قواعد ديكارت وبكل القواعد المنطقية رمي النواة ، فلا يلتزم شيئاً ، ولا يأخذ بأي واجب من واجباتها ، ويتظاهر مع كل ذلك بالغيرة على الحقيقة والأمانة العلمية ، أهذه هي الأمانة العلمية لديه؟ أفلا يكون منسجماً مع نفسه ومع قواعد البحث العلمي السليم ، قبل أن يدعو خصومه لالتزام قواعد البحث العلمي السليم ، على أنهم في أغلب أحوالهم ملتزمون ، وحينما يبصرون بالخطأ يتراجعون .

أيها الملحدون لا تلبسوا أثواب العلم فإن العلم الصحيح لن ينصر إلحادكم وكفركم بخالقكم وإنكاركم لليوم الآخر ، وإنكاركم لنشأتكم الأولى ، وجحودكم لمصدر وجودكم ، واستهانتكم بمسؤولياتكم في حياتكم الدنيا ، إن العلم الحق نصير لقضية الإيمان لا لقضية الكفر ، وأما الفرضيات التي تعتمدون عليها فأبعدوها عن مستوى الحقائق العلمية ، ولا تحشروها فيها كذباً وزوراً وبهتاناً ، إن العلم الحق سيطردها من قصره مهما حاولتم إدخالها فيه .

أيها الملحدون لا تصطنعوا الضجيج للإيهام بوجود النزاع بين الإسلام والعلم فالواقع الحق لا يؤيدكم .

(9)

يقول الناقد (د. العظم) في الصفحة (36) من كتابه ما يلي:
"يشدِّد القائلون بالتوافق التام بين الإسلام والعلم على أن الإسلام دين خال من الخرافات والأساطير ؛ باعتبار أنه هو والعلم واحد في النهاية . لنمحص هذا الادعاء التوفيقي بشيء من الدقة بإحالته إلى مسألة محددة تماماً . جاء في القرآن مثلاً: أن الله خلق آدم منطين ، ثم أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس ؛ مما دعا الله إلى طرده من الجنة . هل تشكله هذه القصة أسطورة أم لا؟ نريد جواباً محدداً وحاسماً من الموفقين وليس خطابة . هل يفترض في المسلم أن يعتقد في النصف الثاني من القرن العشرين بأن مثل هذه الحادثة وقعت فعلاً في تاريخ الكون؟ إن كانت هذه القصة القرآنية صادقة صدقاً تماماً وتنطبق على واقع الكون وتاريخه فلا بد من القول : إنها تتناقض تناقضاً صريحاً مع كل معارفنا العلمية ، ولا مهرب عندئذٍ من الاستنتاج بأن العلم الحديث على ضلال في هذه القضية ، وإن لم تنطبق القصة القرآنية على الواقع فماذا تكون إذن (في نظر الموفقين) إن لم تكن أسطورة جميلة؟".

يا عجباً كل العجب ، وهل كل معارفه العلمية منحصرة في الفرضية الداروينية ، المناقضة للحقيقة الدينية التي قص الله علينا قصتها وفق علمه ، حتى يقول : لا بد من القول : بأنها تتناقض تناقضاً صريحاً مع كل معارفنا العلمية؟

لكننا نقول له : إن الحق ما قصةُ الله علينا في كتابه ، ولو تناقض مع الفرضية الداروينية ، وليس هذا تناقضاً بين الدين والعلم وإنما هو تناقض بين الحق الديني وبين ما نسب إلى العلم ، وهذا لا يؤثر في جوهر الموضوع .

فالداروينية ليست حقيقة علمية بشهادة العلماء أنفسهم ، لأنها لا تملك أدلة إثبات يقينية فيما يتعلق بتاريخ الإنسان ونشأته الأولى ، ولأن العلم لا يملك أدلة تنفي وجود الجن والملائكة .

وباستطاعتنا أن نعكس السؤال عليه فنقول له : هل باستطاعة العلم المادي الحديث أن يقدم لنا أدلة يقينية قاطعة تثبت ما يدعيه حول نشأة الإنسان الأولى وتاريخه؟ إن ما يقولونه هو مجرد احتمال افتراضي لو لم يقولوا به لما وجدوا أمامهم إلا ما يقرره الدين من قضية الخلق الرباني ، وهذا ما يتهرب الماديون الملحدون منه من غير دليل . حتى كتب (سير آرثر كيث) يقول:

"إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر ، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه"[1].

لماذا لا يمكن قبوله من وجهة نظره ولا التفكير فيه؟

لأنه اتخذ لنفسه الإلحاد مذهباً ، فهو لا يريد أن ينقض مذهبه ، تعصباً له وإنكاراً للحقيقة الإلهية . وهكذا سائر الملحدين .

إذا حققنا في الأمر وجدنا أن الخرافة والأسطورة تتمثل في بعض المواقف من النظرية الداروينية ، وهي المواقف التي تتناقض مع صريح ما جاء في القرآن عن خلق آدم ، لأن الفرضية الداروينية في هذه المواقف لا تملك أي دليل غير مجرد الاحتمال الافتراضي ، وهذا لا يقدم أية حقيقة علمية .

فادعاؤه التناقض بين الدين والحقائق العلمية في هذه القضية الخاصة ادعاء مخالف لكل القواعد المنطقية والأسس العلمية ، ألا فليراجع مفاهيمه مراجعة منطقية قبل أن يتصدى لعمليات نقد كبرى .

ثم قال بعد أن عرض هذه المسألة المحددة كما زعم:

"هل يفترض في المسلم في هذا العصر أن يعتقد بوجود كائنات مثل الجن والملائكة وإبليس ، وهاروت وماروت ، ويأجوج ومأجوج ، وجوداً حقيقياً غير مرئي باعتبارها مذكورة كلها في القرآن ، أم يحق له أن يعتبرها كائنات أسطورية ، مثلها مثل آلهة اليونانية وعروس البحر والغول والعنقاء؟ يا حبذا لو عالج الموفقون بين الإسلام والعلم مثل هذه القضايا المحددة

---

[1] اقتباساً من كتاب "الإسلام يتحدى".

وأعطونا رأيهم فيها بصراحة ووضوح بدلاً من الخطابة حول الانسجام الكامل بين العلم والإسلام".

يا سبحان الله!! يبدو أن الناقد (د. العظم) عالي الثقافة؟! فهولا يفقه معظم هذه الأسماء التي يغري أبناء المسلمين بأن يجحدوها ، عن طريق تساؤلاته الاستنكارية ، والظاهر أنه أخذها عن مكتوبات الماركسيين غير المسلمين ، ونقلها نقلاً ببغاوياً بالترجمة الحرفية ، دون أن يرجع إلى المصادر الإسلامية ويعرف دلالاتها منها ، ففي إيراده لهاروت وماروت ويأجوج ومأجوج على أنها كائنات غير مرئية كالجن والملائكة وإبليس جهل فاضح جداً ، فمن هذا الذي قال : إن هاروت وماروت ويأجوج ومأجوج مخلوقات غير مرئية كالجن والملائكة؟

إن التخبط الفكري عند الملاحدة الذين يتصدون لمعارضة الحقائق الإلهية يجعلهم يرتكسون ارتكاساً فكرياً شائناً جداً ، ومن شأن الباطل أن يتخلى عن أنصاره ، ويسبب لهم الهزيمة الفكرية الفاضحة ، والحق لابد أن يعلو عليهم ويجعلهم هم وباطلهم زاهقين .

نحن نعلم أن يأجوج ومأجوج[1] من القبائل البشرية الجاهلة المفسدة في الأرض ، وهم من سكان الشرق الأقصى وراء سد الصين . وكان سكان غرب الصين قد اشتكوا أمر إغارة قبائل يأجوج ومأجوج عليهم لذي القرنين ، الفاتح المؤمن العادل ، وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبين قبائل يأجوج ومأجوج المفسدة في الأرض سداً عظيماً ، يحجز عن سكان غرب الصين غارات سكان شرقها ، مقابل خَرج يدفعونه له ، فوافق ذو القرنين على ذلك ، وطلب منهم أن يعينوه على ذلك بقوة رجالهم الكثيرين ، وبالمواد الموجودة في بلادهم ، وفعلاً أقام ذو القرنين لذلك السد العظيم , وحجز قبائل يأجوج ومأجوج ، وتعذر عليهم الظهور عليه واستئناف غارات الإفساد التي كانوا يغيرونها .

فما علاقة هذه القبائل البشرية التاريخية بالغيبيات وبالكائنات غير المرئية؟.

لو أنه قرأ سورة (الكهف) أو سمعها من المذياع ، أو لم يرد التضليل الديماغوجي لما سقط في هذه الفضيحة التي تعبر عن جهل كبير ، في موضوع يتصدى لنقده ومهاجمته ، بغية التبشير بمذهبه الإلحادي الكافر بكل القيم .

أو لعله استغرب اسمي يأجوج ومأجوج فاعتبرهما كائنات غير مرئية كالجن والملائكة؟ إذا كان الأمر كذلك فالأسماء الغريبة عليه كثيرة في عالم الناس ، وفي عالم العلم ، فليجعلها كلها أسماء لكائنات غيبية غير مرئية كالجن والملائكة .

---

[1] (يا غوغا ماغوغا) من القبائل المعروفة عند مؤرخي بلاد الصين.

ولكن هكذا يخبط خبط عشواء ، ويخلـط خلـط عميـاء ، دون الرجـوع إلى مصادر الدين الإسلامي ومعرفة المراد منها؟

أهذه هـي القواعـد المنهجيـة فـي التمحيـص والتفكيـر العلمـي الـتي يطالب المؤمنين بها؟

إذا كـانت هـذه هـي قواعـده فهيهـات أن يصـل إلـى أيـة حقيقـة مـن الحقائق ، وعليه أن يرتطم دائماً في حفر الجهالـة والضـلالة ، ومـا دام هـذا مستواه فلا بد أن يسقط في حبائل المؤسسات الإلحادية في العالم ، وهـي المؤسسات التي ترعاها وتديرها من وراء الأستار اليهودية العالميـة ، لغايـة في نفوس اليهود يريدون تحقيقها في شعوب الأرض .

ونظير سقوطه في مسألة يأجوج ومأجوج فـي حفـر الجهـل الفاضـح سقوطه أيضاً في مسألة هاروت وماروت.

إن هاروت وماروت اسمان لشخصين وجـدا قـديماً فـي بابـل ، وكانـا على صورة آدمين يخاطبان الناس ، ويعلمـانهم السـحر الـذي علمهمـا اللـه إياه ، ويأمران الناس بأن لا يكفروا بالله عن طريق تعلمهم السحر ، وعنهما توارث الناس علم السحر ، وقد أخبرنا اللـه فـي القـرآن أنهمـا فـي حقيقـة حالهما ملكان ظهرا على صورة آدميين ، على أن في كونهمـا ملكيـن وفـي تعليمهما الناس السحر خلافاً عن المفسرين ، ومهما يكـن مـن أمـر فليسـا كما زعم (العظم) نقلاً عن كتب الماركسيين أنهما من الكائنات غير المرئية ، بل كانا شخصيتين مرئيتين ،وكانت لهما قصة مشهورة في تاريـخ النـاس ، وتوارث الناس عنهما أو عن غيرهما علماً ما زالت له رواسب معروفة عنـد بعض المخصصين بعلم السحر ، وإذا كان يجهل ذلك فليسأل سـحرة اليهـود فإنهم يخبرونهم .

وقد تعرض القرآن لقصتهما في معرض الكلام على بني إسرائيل في سورة (البقرة/2 مصحف/87 نزول): فقال تعالى :
{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}

وهكذا ظهر لنا جهل (د. العظم) الفاضح في المسألة الثانية التي يردد ألفاظها ، وهو لا يعلم مضمونها ، ثم يتصدى لنقدها وفق تصـور خيـالي لديه .

أما تساؤلها عن الملائكة والجن وإبليس فهذه فعلاً كائنات غير مرئية بالنسبة إلى مستواك إدراك الناس ، والملحد بالله وبالدين وبالأخبار الواردة في الدين الحق ينكر هذه الكائنات لأن العلم الحديث لا يملك حتى الآن أدلة إثبات لها .

ولكن هل استقصى العلم المادي الحديث كل ما في الوجود من كائنات وأسرار ، حتى يدعي نفي وجود ما لم يشاهده بوسائله؟

لو كان الأمر كذلك لكان على العلماء الباحثين أن يتوقفوا عن متابعة البحث ، الذي يضنون أنفسهم فيه لاكتشاف مجاهيل من الطاقات والكائنات الكونية التي يدركون أنهم ما يزالون يجهلونها ، لكنَّ هذا لا يدعيه عالم يقدر العلم ويحترم نفسه .

إن العلوم الحديثة لا تملك حتى الآن أي دليل تستطيع أن تنفي به وجود الجن أو الملائكة ، بيد أن كثيراً من التجارب الإنسانية تثبت وجود كائنات خفية روحية غير مدركة بالحس ، وغير مدركة بالأجهزة العلمية ، على أن إنكار المنكرين لها لا يؤثر على وجودها شيئاً ، كما أن إنكار المنكرين لعالم الجراثيم والميكروبات المرئية وغير المرئية لا يؤثر على وجودها في العالم شيئاً .

إن دليل المؤمنين على وجود الملائكة ، ووجود الجن مؤمنيهم وكافريهم وشياطينهم ومردته أخبار صادقة جاءت عن الله ، بطريق الوحي ، وبلّغها الرسل الصادقون المؤيدون بالمعجزات ، كما شاهدوهم واتصلوا بهم بتجاربهم الخاصة ، فالمؤمنون بهم إنما يؤمنون تصديقاً لخبر الله الصادق ، ولأخبار الرسل الصادقين ، والقضية من أساسها تقع في دائرة الممكنات العقلية لا المستحيلات ، فالعمدة فيها الخبر الصادق ، على أن للناس تجارب كثيرة من هذا القبيل ، ولكن هذه التجارب ليست هي عمدة المؤمنين ، لأنها لم تصل إلى مستوى البرهان العلمي .

(10)

يقول الناقد (د. العظم) في الصفحة (39) والتي تليها من كتابه:

"من الآيات القرآنية التي يحب الموفقون ترديدها في معرض كلامهم عن انسجام الإسلام والعلم الحديث : الوصف القرآني التالي لأصل الإنسان وتكوينه : {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة * فخلقنا العلقة مضغة * فخلقنا المضغة عظاماً * فكسونا العظام لحماً * ثم أنشأناه خلقاً آخر * فتبارك الله أحسن الخالقين}".
[سورة المؤمنون: الآيات 12 -14]

ثم قال تعليقاً على هذا النص القرآني ما يلي:

"من الجلي أن عملية نمو الخلية البشرية بالنسبة إلى هذا الوصف القرآني تعتمد على التدخل المباشر والمستمر من قبل الله لنقلها من طور آخر ، أي إن نقلها من نطفة إلى علقة يحتاج إلى عملية خلق جديدة ، كما أن نقلها من طور العلقة إلى طور المضغة يحتاج كذلك إلى عملية خلق أخرى ...إلخ .

وخلاصة القول هو أن نمو الخلية البشرية يشكل معجزة إلهية لا تعليل لها سوى قدرته المطلقة على الخلق ، وتدخله المباشر في سير أمور الكون . هل يتفق هذا الوصف والتعليل مع معارفنا العلمية عن الموضوع ، ومع ما يبينه لنا علم الأجنَّة حول تطور الخلية البشرية في مراحلها الأولى ؟ الجواب حتماً بالنفي ، لأن علم الأجنة لا يدع مجالاً للشك في أن الخلية تنمو بالتطور العضوي من طور إلى آخر ، وفقاً لقوانين طبيعية معينة ، بحيث تنمو المرحلة المتأخرة من صلب المرحلة السابقة عليها ، وعلى أساس معيطاتها الأولية ، كل ذلك بصورة تسمح لنا بالتنبؤ بتطور الخلية ، وبالمراحل المستقبلة التي ستمر بها ، وتمكننا من التحكم بنموها ، بحيث نستطيع تأخيره أو إسراعه أو تشويهه (إن شئنا ذلك) بتعريضها لمواد كيماوية معينة ، أو لأنواع محددة من الأشعة ، وكم كنت أود لو لم يكتفِ الموفقون الدينيون العمليون بمجرد الاستشهاد بالوصف القرآني لنمو الخلية ، وتعدوا ذلك لإيضاح رأيهم في كيفية انسجام هذا الوصف ، مع معارفنا العلمية الثابتة عن هذه الظاهرة الطبيعية".

يبدو أن سيادة الناقد ومعه سائر الملحدين الماديين محرومون من منطق التطور العلمي الذي يمكن أن يهدم جميع قواعد إلحادهم ، ومحرومون أيضاً من المنطق العقلاني المتجرد الباحث عن الحقيقة .

فحينما يكتشف العلماء ارتباط الظواهر الطبيعية بأسبابها الطبيعية التي تحتاج هي أيضاً إلى تفسير ، فهل يعني هذا إلغاء حقيقة الخلق الرباني الكامن وراء الأسباب الطبيعية؟ وحينما يقرر القرآن أن لله تبارك وتعالى هو الذي يخلق الأحداث الكونية ، فهل معنى ذلك أن عملية الخلق تأتي بشكل مباشر ، دون توسط قوانين وعلل وأسباب أوجدها الله في نظام الطبيعة ، واختار أن يكون أسلوبه في عملية الخلق كذلك . إن من يرفع الشيء بيده مباشرة يقال عنه : قد رفعه ، ومن يرفعه بوساطة حبل يقال : قد رفعه ، ومن يرفعه بوساطة سبب غير مرئي كقوة كهربائية أو مغناطيسية يقال : قد رفعه ، والخلق يكون بشكل مباشر ، ويكون عن طريق القوانين والأسباب والعلل غير الفاعلة بذاتها .

فكلام (العظم) القائم على تصور أن النص القرآني لا يعترف بنظام الأسباب والعلل والقونين الطبيعية كلام فاسد من الوجهة العقلية البحتة ، لأن الخلق لا يقتضي دائماً أن يكون عملية مباشرة ، دون أن توجد أسباب اختارها الخالق ليتم عن طريقها أسلوبه في الخلق .

فليكتشف الباحثون ما شاءوا أن يكتشفوه من قوانين وعلل طبيعية وأسباب ، فإن هذه كلها لا تملك الفعل الذاتي ، وهي بحد ذاتها تحتاج إلى تفسير ، والخالق العظيم القادر العليم الحكيم هو القوة الحقيقية الكامنة وراء جميع الأحداث الطبيعية ، وإن أراد الملاحدة الماديون الوقوف عند الأسباب ، وإقفال عيونهم عما وراء الأسباب التي اكتشفوها ، وإن أرادوا جحود الخالق العظيم .

وبهذا يظهر لنا ما في كلامه من مغالطة وتضليل وتفسير غير صحيح للنص القرآني ، وهذا من وجهة نظر المنطق العقلاني المجرد .

ثم نقول من ناحية أخرى : لقد توصل العلم الحديث إلى أن القوانين العلمية لا تملك التفسير الكامل للأحداث الكونية ، وإنما تكشف عن حلقة من الحلقات السببية لا غير ، وهي بحد ذاتها بحاجة إلى تفسير .

يقول العلامة الفلكي الرياضي البريطاني السير (جيمس جينز) كلاماً يعلن فيه هذه الحقيقة ، وهذه مقتطفات من أقواله:

"إن الكون كون فكري . الكون لا يقبل التفسير المادي في ضوء علم الطبيعة الجديدة ، وسببه – في نظري – أن التفسير المادي قد أصبح الآن فكرة ذهنية .

من الصحيح أن نهر العلم قد تحول إلى مجرى جديد في الأعوام الأخيرة ...

لقد كنا نظن قبل ثلاثين سنة – ونحن ننظر إلى الكون – أننا أمام حقيقة من النوع الميكانيكي .

إن العلم الجديد يفرض علينا أن نعيد النظر في أفكارنا عن العالم ، تلك التي كنا أقمناها على عجل . لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوة منظمة".

ألا فليعد (العظم) دراسته ، وليراجع أفكاره وفق ما تطور إليه العلم الحديث ، وحسبه تجديفاً في المستنقعات النتنة القذرة .

أما قوله : "إن نمو الخلية يخضع لقوانين تمكننا من التحكم بنموها ، بتأخيره أو إسراعه أو تشويهه" فهو لا يتعارض بحال من الأحوال مع العقيدة الإيمانية ، لأننا جميعاً في حياتنا على وجه الأرض لا في عالم الأجنة نخضع لقوانين ربانية تمكننا من التحكم بعض الشيء بنمو أجسادنا أو تشويهها أو إتلافها ، نظير تحكمنا بالأجنة ، والإنسان القديم يعلم هذا كل العلم ، ولا يجد فيه معارضة لنظام الخلق الرباني ولا لقاعدته العامة . فالمؤمن يعلم أن لكل ظاهرة سبباً يخضع لسنَّة الله في كونه ، ويعلم أن الخلاق الحقيقي من وراء الأسباب هو الله تعالى ، إن القضية في نظره تشبه عملية إدارة زر الكهرباء التي يضيء المصباحُ بسببها ، ولكن السبب الحقيقي في الإضاءة

هي القوة الكهرباء التي يضيء المصباحُ بسببها ، ولكن السبب الحقيقي في الإضاءة هي القوة الكهربائية السارية ، ومن ورائها المولد الكهربائي ، ومن ورائه صانع هذا المولد ومديره ، ولو شاء لقطع التيار الكهربائي من عنده فلم يكن لإدارة الزر الكهربائي الفرعي أي أثر ، ولانعدمت بذلك كل الظواهر ، ولم يكن للأسباب الوسيطة أية قيمة .

هذا هو منطق المؤمنين ، وذلك هو سخف الملحدين .

(11)

من العجيب أن نجد الناقد (د. العظم) ينكر على الباحثين الإسلاميين دعوتهم المسلمين إلى الأخذ بأسباب العلم في كل مجال من مجالات المعرفة ، ويرى أن الإسلام يدعو فقط إلى تعلم علوم الدين ،أما العلوم الأخرى فإنه لا يهتم بها ولا يشجع عليها ، ويرى أن الذين يقولون: إن الإسلام يحث على تعلم كل العلوم النافعة موفقون خطابيون ، يحاولون أن يثبتوا الانسجام بين الإسلام والعلم بوسائلهم الخطابية ، دون براهين صحيحة ، ثم يزعم أن كل النصوص الإسلامية التي دعت إلى العلم والعقل والتفكر موجهة فقط إلى العلوم الدينية والشرعية وما يتعلق بها ويتفرع عنها ، لا إلى الفيزياء والكيمياء وغيرهما من العلوم الطبيعية.

يقول في الصفحة (40) والتي بعدها من كتابه:

"من الأقوال التي يرددها الموفقون الخطابيون لإثبات دعواهم الحديث النبوي القائل : "اطلب العلم ولو في الصين" والآيات القرآنية العديدة التي تحث الإنسان على التعقل والتأمل في الأشياء وطلب العلم والمعرفة ، إلى آخره مما هو معروف ، كل ذلك ليبينوا مدى اهتمام الإسلام بالعلم والعقل منذ القدم .بطبيعة الحال يعطي هؤلاء المفكرون معنى مطلقاً لهذه العبارات الإسلامية ، وكأنها لا تنتمي إلى أي زمان ومكان ، منفصلة عن الظروف التاريخية التي قيلت فيها ، والمناسبات التي حددت معناها ومغزاها وقتئذٍ . من ضمن هذا الاعتبار يتضح لنا أن العلم الذي حث على طلبه الإسلام هو في جوهره العلوم الدينية والشرعية وما يتعلق بها ويتفرع عنها ، وليس الفيزياء والكيمياء مثلاً (راجع كتاب العلم في الجزء الأول من "إحياء علوم الدين")، والعقل الذي طلب الإسلام من الإنسان استخدامه كان الغرض منه التوصل إلى معرفة الله من تأمل صنعته وخلقته ، كما فعل حي بن يقظان في قصة ابن طفيل ، وليس الغرض منه صياغة نظرية المادية الجدلية ، أو نظرية دوركهايم في الطقوس والعبادات الدينية ، أو نظرية الكون المحدب".

لست أدري أي شيء يزعجه إذا كان الإسلام فعلاً يحث على تعلم كل العلوم الدينية والطبيعية والعقلية؟

لكن يبدو أن هذه الحقيقة تؤثر جذرياً على دعوة الإلحاد التي تحاول أن تتخذ من العلم دريئة لها ، وتحاول أن تقنع الأجيال بأن الدين والحقائق العلمية على طرفي نقيض ، لتصرفهم عن الدين وتضمهم إلى جيوش الملحدين ،يضاف إلى ذلك أن الملحدين يخشون أيضاً من دخول الإسلام والمسلمين إلى معاقل العلم الصحيح ، لأن هذا الدخول يشكل خطراً حقيقياً على قضية الإلحاد من أساسها ، إذ يكشف الباحثون المسلمون عن طريق العلم الصحيح زيف المادية الإلحادية التي تتستر بالعلم ، وتزييف ما يستطيع تزييفه لدعم مذهبها الذي ليس له سند صحيح من علم صحيح ، ولا من واقع مشهود .

وفي مناقشة كلامه القائم على المغالطة التضليلية نقول:

أما كون الإسلام قد جعل أشرف العلوم ما يصلح حياة الإنسان ويقوِّم سلوكه ، ويقصره على طريق الخير مبتعداً عن طريق الشر لاغتنام أعظم قدر يستطاع اغتنامه من سعادة الحياة الدنيا ، وما يُعدُّه أحسن إعداد لسعادة الحياة الأخرى ، فهذا حق .

وأما كون الإسلام لم يحث على تعلم العلوم الطبيعية المادية ، التي من شأنها أن تحقق المنافع الحسنة للناس ، وتخدم قضايا الرفاهية والجمال والقوة والراحة واختصار الزمن وتنظيم الحياة ، فهذا باطل .

فمنذ النهضة الفقهية عند علماء المسلمين قرر الفقهاء أنه يجب على جماعة المسلمين تعلم جميع العلوم النافعة للناس ، بما في ذلك العلوم الصناعية ،فضلاً عن العلوم الضرورية كالطب والزراعة ، والعلوم المتصلة بإعداد المستطاع من القوة ، وقرروا أن هذا واجب على الكفاية ، تقع فيه المسؤولية على جماعة المسلمين عامة ، فإذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، وإذا لم يقوموا به أثموا جميعاً ، واستنبطوا حكمهم هذا من مصادر التشريع الإسلامي ، ونصوصه الرئيسية ، والإمام الغزالي من الذين قالوا بهذا وقرروه على خلاف ما أوحى به (العظم) إذ قال في غضون ما غالط به : (راجع كتاب العلم في الجزء الأول من "إحياء علوم الدين"، للإمام الغزالي).

فدعوى (العظم) باطلة في نظر فقهاء المسلمين ، والإمام الغزالي في الإحياء قد وجه إلى أشرف العلوم ، ولم يقل : إن طلب العلم الذي حثَّ عليه الإسلام منحصر في العلوم الدينية والشرعية ، والغزالي نفسه تتبع معظم العلوم المعروفة في عصره فدرسها ، وكتب في كثير منها ، وواقع حال علماء المسلمين في عصورهم الأولى يكذِّب هذه الدعوى التي طرحها ، فقد كانوا بحق طلائع النهضة العلمية الحضارية ، بشهادة أساطين علماء الحضارة الحديثة ، وما أظن (العظم) أكثر فهماً منهم لنصوص الإسلام وما يستنبط منها من أحكام دينية ومفاهيم إسلامية!!.

أما كون دراسة مختلف العلوم الطبيعية هادية لهم إلى معرفة الله وعظيم قدرته وبديع صنعته فهو يمثل النظر البعيد إلى آخر حلقة في

سلسلة المعارف الطبيعية ، ولكن هذا النظر البعيد يجعلهم يتابعون حلقات السلسلة حتى غايتها ، ضمن حدود الاستطاعة الإنسانية التي تتهيأ لهم ، وليس من شأنه أن يقف بهم عند الحلقات الأولى ، لأن الإسلام يحثهم على المتابعة والنظر في كل مراحل الطريق ، وبذلك يستطيعون استخراج كل ما ينفع من حقائق علمية .

ومعلوم أن الإسلام يحرص دائماً على الربط بين العلم والإيمان ، بين العلم والغاية المثلى منه ،كما يحرص على الربط بين الدنيا والآخرة ، بين العمل وغاية الخير منه ، بين اللذة والمنعم بها وغاية الخير من ورائها ،وبذلك يظهر كمال الإنسان .

ولست الآن في صدد إيراد النصوص الدينية ، التي تثبت أن الإسلام يدفعنا بقوة إلى البحث العلمي في الكون ، للتعرف على كل حقيقة علمية ، لذلك أكتفي بعرض طائفة يسيرة منها .

(أ) قال الله تعالى في سورة (البقرة/2 مصحف/87 نزول):
{هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً ...}.

(ب) وقال في سورة (الجاثية/45 مصحف/65 نزول):
{ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.

(ج) وقال في سورة (الحديد/57 مصحف/94 نزول):
{وَأَنزْلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}.

أليس في هذه النصوص دعوة إلى التعرف على خصائص الأشياء للانتفاع منها؟ وهل يمكن التعرف على خصائصها إلا بالبحث العملي ، عن طريق الملاحظة والتجربة والاستنباط وكل الوسائل التي تتيسر للإنسان؟[1]

ولكن الملحدون يريدون أن يخترعوا للإسلام صورة من عند أنفسهم ، لينفروا الناس منه ، وليشوهوا جماله وكماله وتقدميته الرائعة ، ولن يظفروا .

(12)
حول المعجزات

أثار الناقد (العظم) أكثر من مرة موضوع المعجزات الربانية التي أجراها الله على أيدي رسله وأثبتتها الأديان السماوية ، بوصفها حادثات تاريخية جرت في تاريخ الكون ، وباعتبارها بعض مظاهر قدرة الله المخالفة بصفة استثنائية لمظاهر قدرته في سننه وقوانينه الدائمة .

---

[1] انظر لاستكمال هذا الموضوع كتاب "أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها" ، للمؤلف .

وزعم أن الحديث عن هذه المعجزات حديث لا يقبله العلم وأن العلماء الماديين لا يرتاحون من وجهة نظرهم إلى الآيات القرآنية التي تروي كيف شق موسى البحر بعصاه ، وكيف تحولت النار فجأة إلى برد وسلام على إبراهيم ، ونحو ذلك من معجزات ربانية .

الواقع أن مشكلة (العظم) في هذا ومعه سائر الملحدين الماديين مرتبطة أساساً بقاعدة الإيمان الأولى ، وبما أنهم أنكروا الحقيقة الكبرى وهي حقيقة وجود الله فلا بد أن ينكروا كل ما يستند إليها وخرق قوانين الكون وسننه لا يتم إلا بقدرة الخالق الذي وضع هذه السنن والقوانين ، وبإراداته التي تقتضيها حكمته ، لكن الفرضية التي أقام الملحدون عليها عقيدتهم هي إنكار وجود الخالق ، واعتبار هذا الكون عملاً مادياً آلياً أنتجته الصدفة التي لا تفسير لها ، ولذلك فهم يرون قصة المعجزات المخالفة لنظام الكون وقوانينه الثابتة من قبيل الأساطير ، وليست من قبيل الحقائق التاريخية الثابتة.

لأجل هذا فإن معالجتنا لهم يجب أن تبدأ من مستوى القاعدة الإيمانية الأولى ، وهي الإيمان بالله وبكمال صفاته ، وبقدرته على خلق ما يشاء ، وبقدرته على خرق السنن التي جعلها هو ثابتة في كونه ، ولو أنه شاء أن يجعلها على خلاف ذلك لجعلها ، ولكن أسلوبه في الخلق كان على هذا الوضع القائم على نظام الترابط السببي بين الأشياء ، وبين الأحداث والتغيرات فيها .

وهنا تكمن فضيلة الإيمان بالغيب القائم على الاستدلال العقلي ، والانتقال من السبب الذي لا يملك تعليلاً عقلياً ، إلى مسبب الأسباب كلها الذي تنحصر فيه كل التعليلات العقلية الصحيحة ، والمفسرة لكل الظواهر الكونية ، بعد تجاوز سلسلة الأسباب مهما كثرت حلقاتها .

وهنا أيضاً تكمن رذيلة جحود الحقيقة الغيبية الكبرى ، لأن هذا الجحود القائم على طرح الأدلة العقلية الاستدلالية والأدلة الفطرية الوجدانية ، والتشبث ببعض حلقات السلسلة السببية ، مع أنها لا تملك في الحقيقة أي دليل يصح أن تفسر به الظاهرة الكونية ، إلا أن الملاحظة كشفت عن ارتباط الظاهرة الكونية بها ، كارتباط رأس الحمار بسلسلة رسنه المعقود بذيل آخر جمل في قافلة طويلة تسير في ليل دامس ، والغبي أو الأحمق أو المعاند المكابر هو الذي يقف تفكيره عند رأس الحمار ، أو عند بعض حلقات السلسلة التي في رسنه ، أو عند ذيل البعير .

فالنقاش المنطقي حول هذه النطقة يدعونا إلى الرجوع إلى قضية الإيمان بالله ، وقد سبق أن عالجناها ببيان كاف فإليها نحيل القارئ .

على أننا نقول هنا : إن الملحدين قد جعلوا معجزة الخلق كلها ظاهرة طبيعية ، وقطعوا الصلة بينها وبين الخالق ، أفيقبلون فكرة خرق

قوانين الكون وسننه بفعل الخالق لحكمة يريدها ، وقد رفضوا الاعتراف بوجود خالق أصلاً؟

ونقول أيضاً : باستطاعتنا أن نناقش قضية المعجزات مناقشة عقلية وعلمية ، لإثبات خطأ الملحدين في رفضها بوصفها ظاهرة من الظواهر التي جرت أحداثها في تاريخ الكون ، مهما يكن تفسيرهم للظواهر الكونية خاضعاً لقواعد الفكر المادي .

إن إنكار الأحداث التي جرت فعلاً في تاريخ الكون لا يسوغ من وجهة نظر العلم أو من وجهة نظر العقل لمجرد كونها مخالفة في مفاهيمنا للقوانين التي استخرجناها من مشاهدات الطبيعة وأحداثها ، وإنما يجب بعد ثبوتها في الواقع محاولة استنباط تفسير وتعليل لها . أما مجرد الرفض والإنكار فليس عملاً علمياً ولا عقلياً .

إن كل ما نشاهده في الكون من أحداث وظواهر لو دققنا النظر فيه ورفعنا عنه ستار الرؤية المتكررة له لكان في مفاهيم العقلاء معجزة من المعجزات ، وعجيبة من العجائب ، ولكن تكرر الرؤية له جعله أمراً معتاداً ، واتخذ في مفاهيمنا صفة قوانين طبيعية ، وسنن لا غرابة فيها ، وذلك لأنه ليس بين معظم الأحداث والظواهر الطبيعية وبين أسبابها وقوانينها روابط عقلية ، وحينما ندرس أنظمتها كما هي في الواقع ، ولا نستطيع أن نجد في العقل مقتضيات لها ، غير أن نظام الكون سار على هذا الأسلوب ، وكان من الممكن عقلاً أ، يسير على أسلوب آخر ضمن سُلّم احتمالات لا نهاية لها ، وتخصيص هذا النظام دون غيره ليس أمراً يقتضيه العقل .

ولو كان نظام الكون سائراً في متكرر العادة على أن الصخور متى نضجت في أشهر معينة ، وبطرق معينة ، تحوَّلت نوقاً وأبقاراً وزرافات وشياهاً بحسب اختلاف أنواع الصخور ، لكان ذلك هو السنَّة الثابتة في نظرنا ، ولكان خلاف ذلك هو المعجزة .

ولو كان نظام الكون سائراً في متكرر العادة على أن الماء يجري من أسفل الوادي إلى أعلى الجبل بنفسه ، من غير أن تكون له حافات تسنده ، ولا روافع ترفعه ، لكان ذلك هو قانون الماء الثابت في نظرنا ، ولكان خلاف ذلك هو المعجزة التي يتشكك بها ويطلب إثابتها بالدليل .

وهذا الإمكان التصوري يدلنا على أن النظام الحالي ليس نظاماً فرضته الضرورة العقلية ، والارتباطات الفكرية ، ولكن أوجدته السلطات ذات الإرادة المختارة ، ومهما يكن من أمر فإن الإمكان العقلي الذي لا يرى مانعاً من قبول نظام آخر لو كان هو السائد في نظام الطبيعة ، هو نفسه دليل كافٍ عل أنه ليس بين القوانين الطبيعية وأحداثها الظاهرة ارتباط عقلي يوجبها وحدها ، ولا يسمح بمخالفتها ، فقبول احتمال التغيير لا يتوقف إلا على ثبات وقوع الحادثة التي كان التغيير فيها ، وإلا كان رفضاً للإمكان العقلي بدون سند من العقل ، ورفضاً للواقع بدون سند من الواقع .

لو أخذنا منطق الأحياء البحرية لكانت الحياة بنظام غير نظامها معجزة من المعجزات ، ولو أخذنا معتاد الحياة الأرضية لكانت الحياة بغير إمداد بالنظام الغذائي المعروف أمراً من المعجزات ، مع أنه ليس في أي شيء من ذلك ارتباط عقلي يوجه العقل ، ولكن هذا هو الأسلوب الذي جرى عليه نظام الكون ، ولو جرى أسلوب الكون على غير هذا النظام لما وجد العقل مانعاً من ذلك ، ولما وجد أنه يتنافى مع أي أصل عقلي منطقي أو رياضي ، وهذا البرهان يثبت لنا أن رفض المعجزات بدليل من واقع القوانين والسنن الطبيعية رفض فاسد عقلياً وعلمياً ، ولا سند له ، وتبقى قضية المعجزات من وجهة نظر العلم والعقل احتمالاً إمكانياً بالإمكان العقلي ، ولكنه لا يسلم به واقعياً إلا أن يقترن بأدلة إثبات يقبلها العلم والعقل .

وأدلة الإثبات في هذا المجال منحصرة في الأدلة الحسية والأدلة الخبرية .

وقد توافر للذين عاصروا الرسالات دليل المشاهدة الحسية لمعجزات الرسل ، فكان ذلك بالنسبة إليهم برهاناً حسياً ، وأما بالنسبة إلى غيرهم فعمدتهم في إثبات المعجزات دليل الأخبار الإنسانية المتواترة عند جميع أمم الأديان السماوية ، وهذه الأخبار تقطع بوجود معجزات أو آيات من خوارق العادات قد أجراها الله على أيدي رسله ، منها معجزات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم ، وكذلك سائر النبيين ، وجحود الأخبار المتواترة الصادقة مع وجود الإمكان العقلي ، ومع وجود المبرر العقلي لها ، ضرب من العناد الذي لا يفعله باحث عالم يدرس الظواهر ويحاول تفسيرها .

والتفسير العلمي للمعجزات الربانية ظاهر فيما يوضحه للدين ، من أنها أدلة ربانية يصدِّق الله بها رسله فيما يبلغون عنه .

ومن العجيب أن الملحدين الماديين يقبلون معجزات الطفرة الوحيدة التي تقول بها الداروينية ، ولا سند لها إلا الحدس والخيال ، ويرفضون المعجزات الربانية التي يجريها الله على أيدي رسله ، وهي معجزات ثابتة تاريخياً بشهادة الأخبار المتواترة المقطوع بها ، مضافاً إليها الشواهد العقلية والأثرية المؤيدة لها!!

لكن هذا هو شأن الملحدين ، إنهم يتناقضون بين ما يقبلون وبين ما يرفضون ، تعصباً لإلحادهم ، ومعاندة لخالقهم ومكابرة على الباطل .

(13)
حول الشهب

قال (د. العظم) (52) من كتابه:

"كما أن علماء الفلك (وليس التنجيم) سوف يجدون بعض الصـعوبة ، لا شك ، في التوفيق بين معلوماتهم العلمية عن النيازك والشهب من ناحية وبين الآيات القرآنية التي تعلمنا أن الشهب هـي لرجـم الشـياطين والجـن ، حيـن تحـاول الصـعود إلـى السـماء واسـتراق السـمع (أي: الاسـتماع إلـى أحاديث الملائكة) من ناحيـة ثانيـة . لكـن أصـحاب الفكـر التـوفيقي عودونـا دومـاً علـى إطلاق الأحكـام الشـاملة والتعميمـات البديعـة بـدون التـدقيق بالمسائل المحددة التي تحرجهم وتحرج دعواهم".

تعليقاً على هذه الفقرة من كلامه نرى أنه من المستبعد جداً أنـه لـم يطَّلع بعدُ على مكتوبات الباحثين المسلمين المؤمنين بـالله وكتـابه ، الـذين لم يقتروا على مجرد إطلاق التعميمات الشاملة البديعة ، الـتي تعلـن وجـود التوافق التام بيـن الصـحيح الثـابت مـن المفـاهيم الإسـلامية ، وبيـن الحـق الثابت من النظريات العلمية ، بل تابعوا معظم المسائل بالدراسـة والبحـث والمناقشة للموضوعات بشكل موضوعي محدد .

ولكن شـأن الآخـذين بالمـذهب الإلحـادي محاولـة طمـس الحقـائق ، وطرح المغالطات والمفتريات ، واستغلال أقوال بعض أصـحاب المقـالات ، والأقـوال العامـة الـتي يطلقهـا البـاحثين المسـلمين بصـفة عرضـية غيـر مقصودة ، وإلقاء الستور على سائر البحوث العلميـة الرصـينة الـتي تتنـاول كل جزئية بالبحث والدرس والتحقيق ، بغية إيهام الأجيال الناشئة مـن أبنـاء المسـلمين أن المسـلمين لا يملكـون غيـر إصـدار الأحكـام التقريريـة والتعميمات الخطابية .

أما ما أثاره حول موضوع الشهب فإننا نجد أنفسنا بالنسبة إليـه أمـام قضيتين:

القضية الأولى : تتناول الجانب المادي المدروس من الشهب .

القضية الثانية : تتنـاول الجـانب الـذي لـم يصـل العلـم بعـد إلـى اكتشافه ودرسه .

وكل من هاتين القضيتين تتطلب نظراً خاصاً .

أما القضية الأولى التي تتناول الجانب المدروس من الشهب فلا يبدو فيها تناقض بين ما أعلنه أو أشار إليه القرآن ، وبين مـا توصـل إلهـي العلـم بالبحث المادي والدراسة النظرية ، وليتبين لنا هـذا الأمـر لا بـد مـن عـرض النصوص القرآنية في هذا الموضوع ، ومقارنة ما جاء فيها بما يقوله العلماء الماديون ذوو الاختصاص في هذا الموضوع أيضاً .

فمن النصوص القرآنية في هذا الموضوع قول الله تعالى فـي سـورة (الحجر/15 مصحف/54 نزول):

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُل شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ}

ومنها قول الله تعالى في سورة (الصافات/37 مصحف/56 نزول):
{ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَىٰ ٱلْمَلإِ ٱلأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}

ومنها قوله تعالى في سورة (الملك/67 مصحف/77 نزول):
{وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ}

ومنها قوله تعالى في سورة (الجن/72 مصحف/40 نزول):
{وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً }.

فهذه نصوص قرآنية تحدثت عن الشهب ، وفيها من الدلائل المادية التي يمكن للعلم المادي أن يدرسها ويكتشفها ما يلي:

1- وجود (شهب) ظاهرة تنقض ، وحينما تنقض باتجاه الأرض تكون ثاقبة ملتهبة مضيئة .

2- وجود (رجوم) أي : قطع من الحجارة مصدرها النجوم أو الكواكب ، وهذه النجوم والكواكب هي المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا ، أما الرجوم (وهي الحجارة) فقد نشرت في السماء مع الحرس الذين ملئت بهم السماء ، وهذه الحجارة المختلفة الحجوم تنطلق شهباً مُبِينةً ثاقبة .

3- إن هذه الرجوم المنبثة في السماء (أي في الفضاء العالي) لم تكن قبل بعثة محمد [illegible] .

[illegible]

[illegible]:

[illegible]:

إن الهواء الجوي يحمينا من أسلحة السماء المخيفة ، فأسرع مقذوفاتنا النارية ينطلق خلال الهواء بسرعة أقل من نصف ميل في الثانية ، على حين يندفع خلال الفضاء العالي عدد لا حصر له من المتيوارت ،

الحديدية المختلفة الأحجام ، من حجم الهباء إلى حجم جبل عظيم ، بسرعة هائلة تختلف من عشرين إلى مئة ميل في الثانية .

فمن هذا نلاحظ أن النصوص الدينية قد قررت هذه الحقيقة ، قبل أن تكتشفها الوسائل الإنسانية للبحث العلمي ، ويوم كان العلم الإنساني جاهلاً بوضع السماء .

2- يقول العلماء الماديون : إن أصل هذه النيازك من الكواكب والنجوم ، وهذا عين ما أشار إليه القرآن .

يقولون : إن النجوم يحدث فيها انفجارات من قوت لآخر ، وبقوة هائلة ، فيطير منها في كل انفجار مئات الأطنان من التراب الناعم ، ثم يتجمع بعضه على بعض فتتكون منه النيازك والمذنبات .

3- ويقول العلماء الماديون عن حالات حدوث هذه الرجوم في السماء وتكاثرها بين حين وآخر:

"إن مذنب بيلا ظهر منشقاً إلى جزئين في عام (1846م) ثم ظهر هذان الجزءان في عام (1852م) على صورة مذنبين منفصلين ، ثم اختفيا بعد ذلك ، وظهرت بدلاً منهما جموع حاشدة من متيورات مضيئة صغيرة في جو الأرض".

أليست هذه الرجوم التي مصدرها نجوم السماء وكواكبها ، وقد حدثت في فترة نعرفها ، وهذا يقرِّب إلى التصور ما حدث في عصر الرسالة المحمدية .

من كل هذا يتبيَّن لنا أن الحقائق العلمية المادية تتفق مع ما جاء في القرآن ، وهذا ما يتعلق بالقضية الأولى .

وأما القضية الثانية وهي كون الشهب رجوماً للشياطين تلاحقهم وتحرقهم ، فهذه لم يتوصل العلم المادي إليها ، لأنها خارجة عن دائرة اختصاصه ومدى وسائله ، فهو لا يستطيع من عنده أن يثبتها ولا يستطيع أن ينفيها ، ويجب عليه بالنسبة إليها أن يترك الحديث عنها إلى ما يقرره الدين ، وما ثبت فيه بالنصوص الصحيحة القاطعة .

فكان الأولى بالعظم حول هذا الموضوع أن يعتصم بالصمت إذا لم يشأ أن يذعن للدين وما جاء فيه .

(14)
حول المعرفة الدينية والمعرفة بمعناها العقلي والعلمي

قال (د. العظم) في الصفحة (72) من كتابه:

"ورد معنا ذكر طائفة من المفكرين يقولون : إن المعرفة الدينية تختلف اختلافاً جذرياً وكلياً عن المعرفة بمعناها العقلي أو العلمي ، لذلك نجدها دائماً مناقضة للمنطق ومتنافية مع العقل".

قبل أن أتابع ذكر بقية كلامه حول هذه المقدمة ، لا بد من التنبيه على أن هذا الكلام كذب على الإسلام والمسلمين لا أصل له مطلقاً . إنه لا يوجد واحد من علماء المسلمين يقول : إن المعرفة الدينية تختلف اختلافاً جذرياً وكلياً عن المعرفة بمعناها العقلي ، ولذلك نجد المعارف الدينية مناقضة للمنطق ومتنافية مع العقل .

فلست أدري من أين جاء بهذه الفرية على الإسلام والمسلمين على المعارف الدينية الإسلامية؟!

إن الذي يقوله جميع علماء المسلمين يقضي بأن جميع ما ثبت في الدين يتفق مع مفاهيم المنطق السليم ، والعقل الصحيح ، والعلم الثابت .

وقد سبق أن بيَّنَّا أن التناقض أو التنافي لو وجد فهو ليس بين ما ثبت في الدين بشكل قاطع وما ثبت في العلم أو العقل بشكل قاطع ، وإنما بين ما نسب إلى الدين وهو ليس منه وبين الحقائق العلمية الثابتة ، أو بين ما نسب إلى العلم وهو ليس منه وبين الحقائق الدينية الثابتة ، أو بين ما نسب إلى الدين وما نسب إلى العلم وكل منهما لم تصحَّ نسبته إلى صاحبه .

ولكن قد توجد أمور ثبتت في الدين والعقل لا يستطيع مستقلاً أن يثبتها ، كما لا يستطيع أن ينفيها ، فهي لا تناقض أصول العقل والمنطق ولا تتنافى مع العلم ، إنما عجزت الوسائل العلمية عن إدراكها والوصول إلى معرفتها ، وعجزت التصورات العقلية عن إدراكها وتحديدها ، وهذا شيء يُعزى إلى قصور المعرفة والإدراك ، وليس من التناقض ولا من التنافي حتماً . ونظير هذا يحدث في مجال الدراسات العلمية الإنسانية البحتة . إن العلماء قد استنبطوا من الظواهر المادية كثيراً من القوانين ، منها مثلاً قانون الجاذبية ، مع أن أية وسيلة علمية لا تستطيع أن تحدد كنه هذه الطاقة التي تظهر آثارها ، ولا يستطيع العقل أيضاً أن يتصور صورة مادية لها ، ولا أحد يقول مع ذلك : إنها مناقضة للمنطق ومتنافية مع العقل .

وبعد هذه المقدمة التي افتراها على الإسلام والمسلمين ، قال في متابعة كلامه:

"يقول أصحاب هذا المذهب : إن العقل الإنساني قاصر عن أن يعرف طبيعة الإله ، وعن أن يحيط به ولو إحاطة جزئية . إنه عاجز عن تصوره وعن التعبير عن طبيعته ، وعّر البعض عن هذا الرأي بقولهم عن الله : (كل ما يخطر في بالك فهو خلاف ذلك).

وقبل أن نتابع بقية كلامه نقول : هذا كلام لا علاقة له بالمقدمة التي افتراها ، فكون العقل الإنساني قاصراً عن تصور ذات الخالق جلَّ وعلا ، وعاجزاً عن معرفة كنه هذه الذات ، لا يعني بحال من الأحوال أن ذاته سبحانه مناقضة للمنطق ومتنافية مع العقل . جُلُّ ما في الأمر إثبات العجز للجهاز المدرك ، علماً بأن العقل عاجز عن إدراك أو تصور كثير من الحقائق العلمية الثابتة في الكون المادي المدروس ، حتى إن العقل لم يستطع إلى يوم الناس هذا أن يدرك كنه ذات نفسه ، فهل جهله بذات نفسه ينفي وجوده ، باعتبار أن هذا الجهل مناقض للمنطق ومتنافٍ مع العقل بحسب دعوى (د. العظم)؟

هذا كلام فارغ وسخيف ومتهافت لا يقبله من لديه مثقال ذرة من عقل ، وهو في حقيقته يسخر من قائله ولا يخدع قارئه.

ثم إن (د. العظم) بعد أن وضع المقدمة المفتراة ، وبنى عليها مسألة غير ذات علاقة بها مطلقاً بقصد المغالطة والتضليل ، قال موجهاً اعتراضاته:

"توجد عدة اعتراضات على هذا الموقف . أولاً: هل بإمكاني أن أقيم علاقات جدية بيني وبين هذا الإله ، الذي تتجاوز طبيعته تجاوزاً مطلقاً منطقي ومشاعري وأفكاري ومثلي وآمالي؟ هل بإمكاني أن أجد عزاء في إله جُلُّ ما أعرفه عنه أنه مهما خط في بالي من أفكار وصفات فهو يختلف عنها اختلافاً مطلقاً؟ إن وجود مثل هذا الإله وعدم وجوده سيان بالنسبة إليه . إن هذا الإله ليس إلا تجريداً فارغاً من كل معنى ومحتوى ، ولا يمكن لإرادة إنسان أن تتعلق بتجريد محض ، تجاوز بمراحل التجريد الذي وصفه أرسطو باسم (المحرك الأول) فإذا كان بإمكانك أن توجه ابتهالاً أو دعاء إلى المحرك الأول فمن المؤكد أنك لن تستطيع أن توجه لإله لا يمكنك أن تصفه بشيء على الإطلاق ، لأنه بطبيعته مخالف لكل ما يرد في ذهنك من أفكار وكل ما تنطق به من صفات".

هذا هو الاعتراض الأول الذي وجَّهه ، وهو بهذا الكلام يضيف إلى افترائه في المقدمة ومغالطته فيما بنى عليها ، فيطرح هنا كذباً جديداً ومغالطة في الحقائق ويدَّعي على الفكر الإسلامي تعميماً كاذباً مخالفاً للحقيقة تماماً .

إن أحداً من المسلمين لا يقول: إن العقل قاصر عن أن يعرف شيئاً عن الله الخالق جلَّ وعلا ، أو قاصر عن أن يحيط ولو إحاطة جزئية بصفاته ، فهذا من الكذب على المفاهيم الإسلامية .

لكن الذي يقوله المسلمون إنما هو منحصر في معرفة كنه ذات الخالق ، والذات شيء والصفات ذات الأفعال والآثار شيء آخر ، فقول المسلمين : "كل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك" ، قول منحصر في

معرفة كنه ذات الخالق ، لا في معرفة صفاته ، وذلك لأن تصورات الأفكار كلها مقتبسة من صور الكون الحادث ، وهذه الصور المادية لا تليق بكمال الله جلَّ وعلا ، إذ ليس كمثله شيء ، ولا يتوقف على معرفة كنه ذات الخالق شيء من الإيمان ولا من العلاقة به .

إننا نتعامل مع كثير من طاقات الكون دون أن نعرف كنه ذاتها . عقولنا لا نعرف كنه ذاتها . معظم ما هو داخل في أجسامنا لا نعرف كنه ذاته . أفيؤثر هذا على إيماننا بها وتعاملنا معها؟

ولا بد أن يلاحظ القارئ حشد المغالطات التي صنعها (د. العظم) ويكتشفها ويعرف ما فهيا من زيف لا يحتاج كشفه إلى كد ذهني .

لقد جعل الشيء الذي يعجز العقل عن إدراكه وتصوره شيئاً مناقضاً للمنطق ومنافياً للعقل ، وهذا باطل بداهة كما أوضحنا ، إن أموراً كثيرة جداً يعجز العقل عن تصورها وتحديد ذاتها وهي واقعة فعلاً ، وحينما يدركها العقل لا يرى فيها مناقضة للمنطق ولا منافاة للعقل . الأعمى يعجز عن تصور الألوان ، مع أن الألوان لا تناقض المنطق ولا تتنافى مع العقل ، لا في مفهوم المبصرين ولا في مفهوم العميان .

ليكن واضحاً لدينا تماماً أن قصور الجهاز المدرك عن إدراك بعض الحقائق لا يعني بحال من الأحوال أن هذه الحقائق مناقضة لمنطق الأشياء . هذه بديهة ولكن (د. العظم) أراد أن يغالط بها ، وأراد أن يموِّه بها على السذج من المخدوعين المفتونين بعبارات (أصول البحث العلمي) و(قواعد المنطق الحديث) و(ما توصلت إليه الحقائق العلمية) وأمثالها من العبارات التي غدت شعارات للتمويه والتضليل فقط يستعملها بعض أصحاب المذاهب ذات الأغراض الخاصة ، كسائر الشعارات الجميلة ، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية ، إن هذه الشعارات تحمل بريقاً لفظياً يسرُّ السامعين ويعجبهم ، ولكن ليس لها عند مستغليها مضمون عملي تطبيقي .

وبعد أن بنى (د. العظم) هذا البناء الوهمي على المقدمة الكاذبة الأولى ، وجَّه عدة اعتراضات عليه ، وهذه الاعتراضات وجهها على اعتبار أن من نسب إليهم هذا المذهب من المفكرين المسلمين يرون أنه لا يمكن إدراك أي شيء عن ذات الخالق ولا عن صفاته .

وهنا تكمن مغالطته الثانية ، وهي مغالطة تعتمد على تعميم تمويهي كاذب لقضية خاصة ، وذلك لأن عبارة : "كل ما يخطر في بالك فالله بخلاف ذلك" عبارة خاصة بتصور كنه ذات الله ، وليست شاملة لذاته وصفاته ، ولكن (د. العظم) عمَّم في دلالتها وفي مفهومها تعميماً باطلاً ، ليوجه اعتراضه على منطقة التعميم التي ادعاها زوراً وبهتاناً .

إن صنيعه يشبه صنع من قال : إن الماء صخر جامد ، والذين يقولـون : إن السفن الشراعية تجري بالهواء لا بد أن يسلموا بأن هذه السفن تجري في الجبال والصخور والرمال ، وكلامهم هذا معترض من وجوه:

الأول: أن الماء ليس صخراً جامداً .
الثاني: أن السفن البحرية لا تجري في الجبال والصخور والرمال .
الثالث: أن السفن البحرية قد تجري بالمحركات الآلية .

هذا لون عجيب جداً من المغالطات التي تصطنع الأكاذيب ، والتعميمات ، وتضع الأشـياء فـي غيـر مواضـعها ، ومـع ذلـك فـإن المنطـق (العظمي) يقبله ، ويقبله مع سائر الملحدين!!

وعلى مثل هذا المنطق يريدون أن يصنعوا جيلاً عربياً تقدمياً .

من الطبيعي بعد أخذ المجال التعميمي الذي ادعاه كذباً علـى الفكـر الإسلامي أن يصل إلى منطقة تجريد مطلق لا يفهم منه شيء ، فبينما كـان أصل الموضوع منحصـراً فـي كنـه ذات اللـه ، إذا بـه يجعلـه شـاملاً للـذات والصفات كلها وسائر المفاهيم ، وهذا ما لا يقول به أحد في الوجـود ، ولمـا وصل في أكذوبته إلى هذا المستوى وجه اعتراضه كما راق له فقال : "هـل بإمكاني أن أقيم أية علاقات جدية بيني وبين هذا الإله ... إلى آخر كلامه".

مـن الطـبيعي أن إلهـاً لا يفهـم عنـه شـيء مـن ذات ولا مـن صـفات مطلقاً أن يكون تجريـداً فارغـاً مـن كـل معنـى ومحتـوى . لكـن أحـداً مـن المؤمنين بالله لا يقول بمثل هذا الكلام الباطل .

إن المؤمنين يثبتون لله صفات كـثيرة مـن صـفات الكمـال ، بـل هـم يثبتـون لـه كـل صـفات الكمـال ، وينفـون عنـه كـل صـفات النقصـان ، ويستطيعون أن يتصوروا من صفاته على مقدار عقولهم ، ويطلقون الحدود دون حصر ، إنهم يؤمنون بصفة وجوده الواجب سـبحانه ، ويحسـنون تصـور هذه الصفة على مقدار عقـولهم ، ويؤمنـون بصـفة قـدرته الكاملـة القـادرة على خلق كل ممكن ، ويحسنون تصور هذه الصـفة علـى مقـدار عقـولهم ، ويؤمنـون بصـفة إرادتـه واختيـاره الـتي تختـار مـن الممكنـات مـا تشـاء ، ويحسنون تصور هذه الصفة على مقدار عقـولهم ، ويؤمنـون أيضـاً بصـفات علمه وسمعه وبصره وصفات أفعـاله ، ويسـتطيعون أن يتصـوروا مـن هـذه الصفات على مقدار عقولهم ، وهكذا إلى كثير من صفاته سبحانه .

فهل هذا هو التجريد المطلق الذي ادَّعاه (د. العظم) كذباً وبهتاناً؟!

ألا يسوغ في منطق العقل أن نؤمن بموجد نعلم كل صفاته الـتي لهـا آثار متصلة بنا ، مـن خلـق ورزق ، وإحيـاء وإماتـة ، وعـدل وجـزاء ، ورحمـة وعقاب ، وغير ذلك دون أن نعلم كنه ذاته وطبيعتها الخاصة؟

إن العلماء الماديين يؤمنون بالجاذبية ، وهم لا يعلمون من خصائصها إلا أنها قوة تجذب . إنهم يعتقدون بها ، ويتعاملون معها ، لمجرد معرفة صفة من صفاتها ، دلت على آثارها ، فكيف بمن علمنا من صفاته أشياء كثيرة متعلقة بنا؟

يا عجباً لمنطق الملحدين!! إنهم يقيمون علاقات جدية مع أوهام إلحادية ، وعلاقات جدية مع قوانين طبيعية لا يعرفون كنه ذاتها ، وإنما تظهر لهم بعض آثارها التي تدلهم على بعض صفاتها ، ثم يستكبرون عن أن يقيموا علاقات جدية مع الله ، الذي يظهر لهم من آثاره أنه قادر عليم ، عادل حكيم ، خالق رازق ، محيي مميت ، سميع بصير ، نافع ضار ، يجازي المحسنين والمسيئين .

وإن تعجب فعجب قولهم وعجب منطقهم .

ثم إن (د. العظم) وجَّه اعتراضاً ثانياً على البناء الفاسد نفسه الذي بناه فقال:

"ثانياً: إذا كان الإله لا يوصف ولا يدرك بالنسبة إلى البشر فما معنى قولنا إذاً بأنه (رحيم وبأنه عادل) . عندما ننعت الله بالرحمة والعدل ماذا نعني بهذه الصفات؟ أليس هناك من شبه على الإطلاق بين الرحمة والعدل عندما نطلقهما على الله ، وبين تصورنا الإنساني لهاتين الصفتين؟ إذا كان الجواب بالنفي هل تكون إذن أذهاننا فارغة من كل معنى وتصور؟ عندما ننعت الله بالرحمة والعدل ، هل ننسب إليه كلمات لا معنى لها على الإطلاق بالنسبة للبشر؟ في الواقع إننا في موقف حرج حيال هذا الموضوع ، فإما أن ننعت الله بالعدالة وفقاً لتصور يشبه إلى حدٍّ ما وبصورة غامضة تصورنا الإنساني لهذه الصفة ، وإما أن يكون قولنا بعدالته كلاماً فارغاً من كل معنى ومحتوى . أي : إننا مرغمون إما على التشبيه وما يترتب عليه من عواقب ، أو على التنزيه التام وما يستتبع من نتائج.

يوجد حل تقليدي لهذه الكتلة من التناقضات والمشكلات ، وهو الأخذ بظاهر المعنى والتصديق به مع تفويض معرفة حقيقته إليه تعالى ، أي التصديق دون معرفة ، والإيمان على طريقة العجائز".

مرة ثالثة يلجأ في هذا الموضوع بالذات إلى المغالطة والتمويه عن طريق التعميم الفاسد .

فبعد المغالطة السابقة التي اعتمد فيها على تعميم العجز البشري في واقعهم الدنيوي عن إدراك ذات الله وكنهها ، بالنظر إلى أن الأبصار لا تدركه سبحانه ، وبعد أن جعل هذا العجز البشري شاملاً للذات والصفات وهو ما لم يقل به أحد ، فقز قفزة جديدة إلى مغالطة جديدة ، تعتمد على تعميم خلط فيه جميع ما نسب إلى الله من صفات في النصوص ، ليعطيها حكماً واحداً عاماً ، باعتبار أن بعضها مما يوهم التشبيه بالمخلوقات قد ثار حوله حوار في فهم المراد منه بين المفكرين من علماء المسلمين .

ويبدو أعن علمية المغالطة القائمة على تعميم الخاص أهم عناصر مغالطاته ، كما أنها أهم عناصر مغالطات (فرويد) أحد قادته المثاليين في نظره ، إذ كان (فرويد) يأخذ من الحالات الشاذة النادرة أحكاماً عامة مطلقة ، مخالفاً بذلك كل منهج علمي .

إن ادعاء (د. العظم) بأننا لا نفهم شيئاً عن صفات الله تعالى وإلا وقعنا ف ي التشبيه ادع اء باطل ، ونستطيع بالتحليل العلمي أن نكشف بطلانه .

إن الطاقة الفكرية تستطيع أن تأخذ منطلقاتها في الاتجاه غير المحدود (اللانهائي) مهما كانت الحواس تشدها إلى الواقع المدرك المحدود ، فالفكر يشاهد مثلا عن طريق الحواس الموجودات الحادثة ، فيأخذ صورة صحيحة إلى تصور معنى الوجود الأزلي ، وهو يُحسن أن يتصور من معنى الوجود الأزلي على مقدار وعائه ، فيثبته لله تعالى ويطلقه من حدود المدركات بالحس ، ويلاحظ الفكر الإنساني القدرات المادية التي ترفع الأرطال والقناطير وما هو بوزن الجبال ، والقدرات غير المادية التي تفعل الأفعال العجيبة ، فيأخذ صورة تجريدية صحيحة عن معنى القدرة أو الطاقة ، ثم ينطلق منها في سلسلة التكامل الارتقائي إلى تصور قدرة فوق قدرة ، وطاقة فوق طاقة ، حتى يصل إلى تصور قدرة تخلق السماوات والأرض وتفعل كل ممكن ، دون أن تعجز أو تضعف ، فيثبت هذه القدرة لله ، ويطلقها من حدود المدركات بالحس ، بمقتضى أحكام سلسلة التكامل ، التي لها في العقل أصول يمكن أن تبنى عليها مدركات غير محدودة ، والعقل يحسن أن يتصور من معاني القدرة الكاملة على مقدار وعائه ، وما زاد عن وعائه يقف دونه عاجزاً مسلماً ، فهو بذلك قد فهم وأدرك على مقداره ، وكان لوصف الله بأنه قدير معنى صحيح واضح في فكره وتأملاته .

ونقول نظير ذلك في الإرادة ، وفي العلم ، وفي السمع ، وفي البصر ، وفي الرحمة وفي العدل وهكذا .

ومغالطة التشبيه التي جاء بها (د. العظم) إنما جاء بها من الصفات الواردة في النصوص مما يوهم ظاهره التشبيه الجسدي ، كالصفات التي تثبت لله وجهاً ويداً ونحو ذلك ، فهذه هي التي جرى بين علماء المسلمين حول المراد منها ، بين الإثبات من غير كيف ، والتأويل والتفويض ، ولكن هذه لا تؤثر على سائر الصفات التي لا خلاف في فهمها وإدراك معانيها .

وناقدنا (د. العظم) لم يجد سبيلاً إلا أن يغالط عن طريق التعميم الذي أصَّل له .

وحين يتصور (د. العظم) أنه بلغ ما يريد طرح حول الموضوع نفسه مسألة القضاء والقدر ، فقال :

"وأفضل مثال على هذا الموقف المشكلة الكلاسيكية التالية : يفترض في المؤمن أن يسلم بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى ، وأن يؤمن بالعقاب والثواب ، وأن يؤمن أيضاً بالعدالة الإلهية ، رغم ما في هذه الموضوعات من تناقضات عقلية وأخلاقية . ويبرر أصحاب هذا الرأي موقفهم بقولهم: إن العقل الإنساني عاجز تماماً عن إدراك طبيعة العدالة الإلهية ، وعلاقتها بالحساب والقضاء والقدر ، وبما أن هذه المواضيع لا تخضع للمنطق البشري ، لذلك تبدو متناقضة ومغايرة لمعاييرنا الأخلاقية وغير منصفة".

يبدو أن الناقد أخذ فكرة القضاء والقدر في الإسلام من أفواه جهلة العامة الجبريين ، ولم يقرأها في كتاب علمي معتمد من كتب العقيدة الإسلامية[1].

وربما يكون قد قرأها في كتاب علمي معتمد إلا أنه طمس مذهب أهل الحق في هذا الموضوع ، وأخذ رأي الجبريين الذين كذبهم القرآن فيما ادَّعوه ، ورفض مذهبهم جمهور علماء المسلمين ، وبعد أن أخذ رأي الجبريين جعله هو الرأي الإسلامي ، وأخذ يوجه عليه اعتراضاته لما فيه من تناقض ، وغرضه هدم الإسلام كله من خلال رأي فاسد قاومه القرآن ، ورفضه علماء المسلمين .

أما تكذيب القرآن لرأي الجبريين فيما ذهبوا إليه ، باعتبار معارضاً لمبدأ امتحان الإنسان وتكليفه وجزائه بالعقاب أو بالثواب فنجد في قول الله تعالى في سورة (الأنعم/6 مصحف/55 نزول):

{سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}

ونجده أيضاً في قول الله تعالى في سورة (النحل/16 مصحف/70 نزول):

{وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاۤ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلاَّ ٱلْبَلاغُ ٱلْمُبِينُ}

فهؤلاء مشركون وجبريون يزعمون أن الله قد شاء لهم أن يشركوا ، فأعلن الله أنهم يكذبون في دعواهم .

إن قول المشركين : {لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرَّمنا من دونه من شيء} ، مستند إلى ادعاء جبري يتضمن أن الله قد شاء لهم الإشراك به ، وشاء لهم عبادة غيره ، ولذلك كانوا

---

[1] لقد أوفيت بحث هذا الموضوع في كتاب "العقيدة الإسلامية وأسسها".

مشركين به في عقيدتهم وفي عبادتهم ، ولذلك كذَّبهم الله في هذا الادعــاء ، وأوعدهم بالعذاب فقال : {كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا} وأمر رسوله بأن يطالبهم بالدليل على مـا ادعـوه ، فقـال لـه : {قـل : هـل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصـون} ، أي : هل عندكم من خبر عن الله يثبت مدعاكم هذا؟ فإن كان عندكم شـيء من ذلك تحتجون به فـأخرجوه لنـا ، ولكنكـم فـي الحقيقـة لا تعتمـدون فـي ادعائكم هذا على أي مستند علمي ، وإنما تتبعون الظنون الكاذبة التي هــي أوهام بعيدة عن الحقيقة ، فما أنتم في الحقيقة إلا تخرصون ، أي تكذبون .

ثم علَّم الله رسوله أن يقول لهـم : {قـل : فللـه الحجـة البالغـة فلـو شاء لهداكم أجمعيـن}، أي : إن اللـه قـد شـاء أن يمنحكـم الإرادة الحـرة ، ليمتحنكم في حدود ما وهبكم من استطاعة ، ولو شاء غير ذلك ، أي لو شاء أن يجعلكم مجبرين لا خيرة لكم فيما تقومون به من أعمال لكـانت حكمتـه تقتضي بأن يهديكم أجمعين ، وفي هذا حجة عليهم بالغـة صـميم الحقيقـة ، ولله الحجة البالغة .

فـالفكر الإسـلامي قـائم علـى أن الإنسـان مسـؤول عـن أعمـاله ، ومحاسب علهيا ، ويُجازى عليها أيضاً ، لأنها داخلـة فـي حـدود اسـتطاعته إذ وهبه الله حرية الإرادة ، والقدرة الجزئية على تنفيذ إرادته ، وأعطاه شروط الامتحان ، ووضعه في مجالات الامتحان الأمثل .

هذه خلاصة العقيدة الإسـلامية الـتي أوضـحها القـرآن حـول موضـوع القضاء والقدر ، وفهمها جمهور علماء المسلمين .

ومـن هـذا يتـبين لنـا أن مـا لا سـلطة للإرادة الإنسـانية والقـدرات الإنسانية عليه هو الذي يقع مباشرة تحت سلطان القضاء والقدر ، وأن اللـه قد منح بقضائه وقدره الإنسان إرادته الحرة ، وعقله الذي يـؤهله للتكليـف , وجزءاً من القدرة على التنفيذ ، ليمتحنه ، ثم ليحاسبه ويجازيه.

فهل في هذا المفهوم الصحيح تناقض أو إشكال في موضوع القضــاء والقدر؟.

لكن الملحدين لا يروق لهـم البيـان الحـق عـن الـدين ، إنمـا يريـدون مفاهيم فاسدة تنتشر بين المسلمين ليحاربوا الدين بها .

* * *

الفصل التاسع

التطورات العلمية هي التي تتراجع في اتجاه المفاهيم الدينية

زعم (د. العظم) في نقده للفكر الديني أن الدين في نزاعه مع العلم يضطر لأن يتنازل عن مواقعه بعد صراع شديد ، فقال في الصفحة (24) من كتابه:

"إن محاولة طمس معالم النزاع بين الدين والعلم ليست إلا محاولة يائسة للدفاع عن الدين ، يلجأ إليها كلما اضطر الدين أن يتنازل عن موقع من مواقعه التقليدية ، أو كلما اضطر لأن ينسحب من مركز كان يشغله في السابق . إن نمط هذه العملية معروف جداً. إنها تبدأ بصدام شديد بين النظرة العلمية الجديدة حول موضوع ما ، وبين النظرة الدينية السائدة إلى الموضوع ذاته ، وبعد نزاع قد يستمر سنين طويلة تنتصر النظرة العلمية الجديدة ، وتسود بين كبار المفكرين ، وتنتشر بين الفئات المثقفة تماماً عندما يوشك العلم أن يتجاوزها إلى نظرة أفضل . عندئذٍ يقول أصحاب النظرة الدينية : إنه لم يكن من موجب لهذا النزاع أصلاً ، لأن الخلاف لم يكن بين جوهر الدين وروحه من جهة وبين العلم من جهة أخرى ، لذلك لا يضير الدين أن يتنازل للعلم عن أمور لا تمس روحه . ولكن الحق يقال : إن هذا النمط من التكفير يخبئ وراءه سلسلة طويلة من التراجعات الهامة والحاسمة ، اضطر إليها الدين عندما وقف وجهاً لوجه أمام العلم . بالرغم من هذا الكلام الجميل عن روح الدين وجوهره لم يتراجع الدين ولو مرة واحدة أمام العلم إلا بعد معركة ضارية ، أو تحت الضغط المتزايد للثقافة العلمية الحديثة ، أو تحت إلحاح الضرورات الحيوية للتكليف مع موجة العلمنة والتقدم التي تفرض نفسها على حياة المجتمعات في النهاية".

لنا حول هذا الكلام "العظمي" نظرات ، كل واحدة منها تحتاج مناقشة مستقلة .

(أ) ففي النظرة الأولى نلاحظ أن الناقد قد أطلق كلمة الدين وقصد كل ما يسمى بني الناس ديناً ، حقاً كان أو باطلاً ، وهذا الإطلاق التعميمي فيه مغالطة جدلية لا يفعلها من يحترم فكر نفسه ، أو يحترم المنهج العلمي السليم لدى النقد والمناظرة ، لأن الحكم الواحد لا يصح ، يحكم به على مختلفات في الحقيقة لمجرد اشتراكها في الاسم العام اشتراكاً لفظياً ، فلا يصح أن يقول القائل : إن الإنسان أصفر الوجه قصير القامة بدليل أن بعض الناس كذلك ، فالأحكام لا تعطي صيغة التعميم الشامل ما لم يثبت أن جميع الأفراد المختلفة في حقيقتها مشتركة فعلاً في هذا الحكم التعميمي .

فمغالطة (د. العظم) هنا قائمة على التعميم في الحكم مع اختلاف حقائق الأفراد التي يحكم عليها . وقد وضح لنا في مواضع كثيرة اعتماده على هذا العنصر من عناصر المغالطات .

أفعلى هذا المستوى يريد أن يوجه نقده العلمي؟

أفعلى هذا المستوى يريد أن يراجع المفاهيم الإسلامية مراجعة عصرية؟

إن هذا العمل بعيد كل البعد عن الروح العلمية النقدية ، لو أنه كان صادقاً في طلب الحقيقة والبحث عنها .

(ب) وفي النظرة الثانية نلاحظ أن الناقد قد أطلق كلمة الدين وقصد بها التعاليم الدينية الأساسية ، والتفسيرات الاجتهادية التي يقول أي إنسان منتسب إلى الدين ، وإن كانت اجتهادات ظاهرة الفساد ، وآخرون من علماء المسلمين يخالفونه فيها ، وإن كانت مفاهيم باطلة لطوائف منحرفة عن الدين تقول أقوالاً شاذة مرفوضة .

وبعد هذا التعميم الباطل يطلق حكمه على الدين نفسه من خلال حكمه على هذه الآراء التي جانب أصحابها فيها وجه الصواب .

لو قبلنا هذا التعميم لكان علينا أن نقبل أي فهم يفهمه أي إنسان من نص قانوني ، أو نص دستوري ، أو نظام من الأنظمة ، أو مذهب من المذاهب الإنسانية ، ثم نجعل هذا الفهم جزءاً من القانون أو الدستور أو النظام أو المذهب ، ثم نوجه إليها النقد على أساس هذا الفهم الخاطئ . لكننا نعلم أن هذا العمل مغالطة حقيرة لا تتفق مع أصول المنهج العلمي النقدي السليم ، لذلك فإننا لا نفعله ، لأن الإسلام يفرض علينا التزام الأمانة الفكرية ، ويفرض علينا أن نحافظ على أخلاق البحث العلمي السليم ، والمنهج النقدي الصحيح .

وشبابنا المسلمون يعرفون هذه الأخلاق ويلتزمونها ، ويعرفون مداخل المغالطات فلا يتأثرون بها . وإذا شاء الملحدون أن يموتوا بغيظهم من ذلك فليفعلوا ، ولتبقَ مغالطاتهم على أكف الرياح السافيات ، مع الهشيم اليابس والقمامات .

(ج) وفي النظرة الثالثة نلاحظ أن البحوث العلمية المتطور يوماً بعد يوم هي التي تتطور متقدمة إلى الأمام ، لتجد نفسها مقتربة من المفاهيم الكلية الكبرى التي قررها الإسلام في عقائده ومبادئه .

إننا نسمي هذا تقدماً في البحث العلمي إلى المواقع الغائية التي يحتلها الدين الحق ، ولو أردنا أن نجاري (د. العظم) في تعبيراته لقلنا : إن البحوث العلمية تتراجع من مواقع النظرات المادية الإلحادية إلى مواقع النظرات الغائية الإيمانية ، وهي المواقع التي يحتلها الدين بثبات واستقرار ، دون تحول أو تراجع ، لأن الدين الحق الإلهي ، وهو يقف عند مواقع الحق ، وحينما يصل العلم إلى الحق ، تماماً يجد نفسه عند مواقع الدين .

وهذا الكلام منا يحتاج إلى أدلة من الواقع العلمي ، حتى لا يكون ادعاء لا قيمة له ، وسأعتمد في هذا على أقوال كبار العلماء الماديين من علماء القرن العشرين .

من المعروف في قصة الحضارة الحديثة أن معظم الأبطال الأولي الذين اكتشفوا كثيرا من القوانين الطبيعية التي اعتمدت عليها هذه الحضارة كانوا مؤمنين بالله ، ولكن خلفهم قوم زعموا أن هذه الاكتشافات قد أبطلت الحاجة إلى الإيمان بوجود الخالق جلَّ وعلا ، وتلقف الملاحدة الذين لهم غايات خاصة من نشر الإلحاد في الأرض ذلك ، وأخذوا يروجون له في مختلف المجالات العلمية وغير العلمية .

ثم اتسعت دوائر المعرفة خلال القرن العشرين ، فبدأت تنهار أسس الفكر الإلحادي القائم على تفسير الكون تفسيراً مادياً ميكانيكياً بحتاً ، لدى كبار علماء الباحثين في مجالات المعارف الطبيعية الكونية .

لقد حل (أينشتاين) محل (نيوتن) ، كما أن العالمين (بلانك) و(هايزنبرج) قد أبطلا نظريات (لابلاس) ، وفقد معارضو الدين اليوم تلك المكانة التي كانت تسمح لهم بأن يستندوا إلى العلم لنقض أسس الدين .

إن نظرية النسبية وقاعدة الميكانيكا الكمية (كوانتم) قد أوصلتا العلماء إلى الاعتراف بأنه لا يمكن الفصل بين المشاهد والموضوع المشاهد ، ومعناه أنه ليس في إمكاننا إلا أن نشاهد بعض المظاهر الخارجية من أي شيء ، وأننا لا نستطيع أن نشاهد حقيقته الجوهرية .

وقد أصبح من الحقائق القطعية أننا لا نستطيع أن نهتدي إلى الوجود الأصلي لأي شيء فيما يتعلق بعلم الطبيعة ، وأن كل ما يمكننا عمله هو بذل الجهد لمعرفة الهيكل الرياضي لذلك الشيء ، وقد سلم العلماء على أعلى مستوى اليوم بأن الزعم بأننا نستطيع أن نشاهد الأشياء في صورتها النهائية لم يكن إلا وهماً وسراباً .

ويعتقد البروفيسور (آرثر إيدينجتين) "أن معرفة الهيكل الرياضي للشيء هي المعرفة الوحيدة التي يمكن لعلم الطبيعة أن يمنحنا إياها"[1].

فقد جاء في مقال لهذا العالم ما يلي:

" ... بقطع النظر عن الجوانب الجمالية والأخلاقية والروحانية ، فإن المادة والجوهر والبعد والوقت وغيرها من تلك الأشياء التي كانت تعتبر خاضع لعلم الطبيعة وحده قد أصبح من المتعذّر علينا معرفة خصائصها ، بقدر ما كان متعذراً معرفة خصائص الأشياء غير المادية. إن علم الطبيعة الجديد لم يعد في وضع يسمح له بالمعرفة المباشرة لخصائص الأشياء . إن حقيقة هذه الأشياء خارجة عن حدود الإدراك ، ونحن نصل إلى حقائقها بواسطة الصور الذهنية . وأية صورة ذهنية لا يمكن أن تعكس لنا صوراً غير

[1] اقتباساً من كتاب "الدين في مواجهة العلم"، تأليف وحيد الدين خان ... وكذلك ما جاء بعده من أقوال (آرثر إيدينجتين) ، وأقوال (سوليفان) ، وأقوال (السير جيمس جينز) وغيرهم .

موجود البتة في الـذهن . وهكـذا لا يمكـن للطبيعـة 0باعتبـار مجـال عملهـا الحقيقي- أن تتناول الخصائص الخارجة عن حدود الإدراك ، بل هي لا تقــوم إلا بالدراسة بواسطة الآلات التي يمكن لعلمنا الإحاطة بها . صحيح أن هــذه الدراسة تصور لنا بعـض الخصـائص لعمـل الكـون إلا أن معلوماتنـا الأصـلية تتعلق بالدراسة عن طريق الآلات ، وليست بالخصـائص نفسـها . إن علاقـة الدراسة عن طريق الآلات بالخصائص الحقيقيـة للأشـياء تشـبه علاقـة رقـم التليفون بصاحبه".

ما هذه العلاقة الضعيفة جداً بين الدراسـات الطبيعيـة للأشـياء وبيـن حقائق الأشياء؟

إن هذا العالم الطبيعي من كبار علماء القرن العشـرين ليقلـل كـثيراً مـن قيمـة الادعـاءات العريضـة الـتي كـان يـدَّعيها المـاديون ، والـتي كـانوا يزعمون فيها أن العلوم الطبيعية قد بلغت بدراساتها معرفة حقائق الأشـياء أو كادت تصـل إليه ا . إن علمـاء اليـوم المنصـفين قـد بـدأوا ينقضـون هـذه الأقوال ويستخفونها ، ويعتبرونها تجاوزاً كبيراً للحدود التي بلغها علم الناس ، وهؤلاء العلماء قد بدأوا يعلنون ما كان أعلنه القرآن عن مبلغ علــم النــاس بقوله تعالى في سورة (الإسراء/17 مصحف/50 نزول):

{...وَمَآ أُوتِيتُم مِّن ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}.

ويقول البروفيسور (آرثر إيدينجتين) أيضاً:

"إن حقيقة "أن العلم محدود بالمعلومات عن هيكل الأشـياء" حقيقـة ذات أهمية قصوى . إنها تؤكـد أن الحقيقـة الكاملـة لا تـزال غيـر معروفـة . وفي ضوء هذه الحقيقة لا يمكن الزعم الآن بأن أحاسيسنا أو تجربـة اتصـال النبي بالله ليس لهما مثيل موضوعي (خارجي) وذلك لأنه من الممكن جــداً أن يكون هناك مثيل خارجي لهذه الأحاسيس ، أو لتجربـة النـبي أو العـارف بالله . ولم يعد من الممكن أن يقال عن أحاسيسنا الدينية أو الجمالية : إنهـا مجرد ظواهر خادعة كما كانوا يقولون بالأمس صلافة وتبجحاً ، وبإيجاز : إن العارف المؤمن بالله المؤمن بالدين يمكنه أيضاً أن يعيـش –كحقيقـة- فـي الدنيا".

أليس هذا تراجعاً ظاهراً في موقف العلم إلى مواقع الفكـر الـديني ، وهذا التراجع أو التقدم في الحقيقـة نتـج عـن واقـع تقـدم البحـوث العمليـة الطبيعية ، إن العلم الإنساني بدأ يتعرف على حدوده .

ولكن الماديين المتعصبين للنظرات التقليدية الإلحادية ما زالوا يجترون الادعاءات التبجحية السابقة ، على الرغم من أن العلم المتطور قد أظهر فسادها ، وتقدم خطوات مهمة في اتجاه مواقع الدين .

وعلى هذا باستطاعتنا أن نسمي الملاحدة الماديين رجعيين ، لأنهم لا يسايرون تقدم العلم الصحيح .

على أن قضية التقدمية والرجعية من القضايا النسبية ، فمن ابتعد عن الحق إلى جهة الباطل ثم رجع إلى الحق فهو رجعي فاضل كريم ، ومن ابتعد عن جهة الباطل إلى جهة الحق ثم رجع إلى جهة الباطل فهو رجعي خسيس ذميم ، ومن تابع تقدمه في جهة الحق فهو تقدمي بطل صاعد ، ومن تابع تقدمه في جهة الباطل فهو تقدمي خبيث منحط ، فالقضية في كل ذلك نسبية ، تتبع السالك والجهة معاً ، وكذلك الوراء والأمام ، فالنازل من المعالي يكون الوادي أمامه وتكون القمة وراءه ، ولو عقل لنظر إلى الوراء ورجع إليه ، والصاعد إلى المعالي تكون القمة أمامه والوادي وراءه ، وحينما يعقل يستمر في صعوده ولا يلتفت إلى الوراء ولا يرجع إليه .

وقد انتهى الرياضي والفيلسوف الإنكليزي (ألفرد نورث وهايت هيد) إلى "أن الطبيعة حية".

أي: ليست كما يزعم الماديون مجرد مادة تظهر الحياة فيها نتيجة تركيب آلي في عناصرها ، وهذا اقتراب من المفاهيم الدينية التي تقرر أن الكون عمل موجود حي .

ثم إن الفلكي الإنكليزي السير : (آرثر إيدينجتين) قد استنتج من دراسة العلوم : "أن مادة العالم مادة عقلية" .

وكذلك الرياضي السير : (جيمس جينز) الذي يعتبر أعظم علماء العصر قد عبَّر عن الكشوف الجديدة بقوله : "إن الكون كون فكري".

إن العلماء الذين أدلوا بهذه الآراء هم علماء على درجة كبيرة من الأهمية في دنيا العلم ، ويلخص البروفيسور (ج. و. ن. سوليفان) أفكارهم في الجملة التالية:

"إن الطبيعة النهائية للكون طبيعة عقلية".

أي : ليست كما يزعم الملحدون الماديون مجرد حركة عشوائية غير عاقلة ظهر عنها في بلايين القرون هذا النظام الكوني المشاهد ، وهذه النتائج العلمية التي توصَّل إلهيا لعلماء تلغي بكل تأكيد الركائز الخيالية التي كان يستند إليها الملحدون ، وتجعل العلم يقترب من الحقائق الدينية التي تقرر أن الكون عمل موجود عظيم قادر حي سميع بصير .

إن كتاب "عالم الأسرار" ، للفلكي الرياضي البريطاني السير (جيمس جينز) يحتوي على أكثر المواد العلمية قيمة من هذه الناحية ، وقد انتهى هذا العالم بعد مناقشة عملية بحتة إلى أن :

"الكون لا يقبل التفسير المادي في ضوء علم الطبيعة الجديد ، وسببه –في نظري- أن التفسير المادي قد أصبح الآن فكرة ذهنية".

أي : وهذه الفكرة الذهنية لا يؤيدها واقع الكون . ويقـول هـذا العـالم أيضاً: "إذا كان الكون كوناً فكرياً فلا بد أن خلقه كان عملاً فكرياً أيضاً".

هل يدرك الملحدون هذه الرجعة العلمية إلى الـدين؟ أم يظلـون فـي البقعة العمياء التي يقفون فيها فلا يتقدمون مع تقدم أضواء المعرفة؟

ويقول السير (جيمس جينز) أيضاً:

"من الصحيح أن نقول : إن نهر العلم قد تحول إلى مجرى جديد فــي الأعوام الأخيرة ...

لقد كنا نظن قبل ثلاثين سـنة – ونحـن ننظـر إلـى الكـون- أننـا أمـام حقيقة من النوع الميكانيكي . وكان يبدو لنـا أن الكـون يشـتمل علـى ركـام من المادة المبعثرة ، وقد اجتمعت أجزاؤه بالصدفة ، وأن عمل هذه المـادة ينحصر في أن ترقص لبعض الـوقت رقصـاً لا معنـى لـه ، تحـت تـأثير قـوى عمياء لا هدف لها ، وأنه بعد نهاية الرقص ستنتهي هـذه المـادة فـي صـورة كون ميت ، وأن الحياة قد وجدت صـدفة خلال عمـل هـذه القـوى العميـاء ، وأن بقعة صغيرة جداً من الكـون قـد نعمـت بهـذه الحيـاة ، أو علـى سـبيل الاحتمال يمكن أن توجد هذه الحياة في بقاع أخرى ، وأن كـل هـذا سـينتهي يوماً ، وسيبقى الكون فاقد الروح .

ولكن توجد اليوم أدلة قوية تضطر علم الطبيعـة إلـى قبـول الحقيقـة القائلة بأن نهر العلم ينساب نحو حقيقة غير ميكانيكية .

إن الكون أشبه بفكر عظيـم منـه بماكينـة عظيمـة . إن (الـذهن) لـم يدخل إلى هذا العالم المادي كأجنبي عنه ، ونحن الآن إلـى مكـان يجـدر بنـا فيه استقبال (الذهن) كخالق هذا الكـون وحـاكمه . إن هـذا الـذهن بلا شـك ليس كأذهاننا البشرية ، بل ذهن خلق الذهن الإنساني مـن "الـذرة المـادة" وهذا كله كان موجوداً في ذلك الذهن الكوني في صورة برنامج معد مسبقاً . إن العلم الجديد يفرض علينا أن نعيد النظر في أفكارنا عـن العـالم ، تلـك التي كنا أقمناهـا علـى عجـل . لقـد اكتشـفنا أن الكـون يشـهد بوجـود قـوة منظمة أو مهيمنة ، وهذه القوة تشبه أذهاننا إلى حد كبير ، وهذا الشبه ليس من ناحية العواطف والأحاسيس وإنما هو شبه يتعلـق بـذلك النهـج الفكـري الذي يمكننا تسميته بالذهن الرياضي".

هذا كلام عالم من أعظم علماء القرن العشرين ، شهد آيات الله في الكون عن طريق وسائل المعرفة الإنسانية التقدميـة ، وكـان منصـفاً بريئـاً من داء التعصب ،فأعلن شـهادته المسـتندة إلـى المعرفـة العلميـة ، وأبـان بوضوح أن نهر العلم قد تحول فعلاً إلى مجرى جديد سائر في اتجاه مواقـع الإيمان بالله الخالق القادر العليم الحكيم .

وتحقق بعض ما جاء في الوعد الإلهي إذ قال سبحانه في سورة (فصلت/41 مصحف/61 نزول):

{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

وسيتحقق كامل الوعد الإلهي مع تقدم العلمي الإنساني بحثاً عن خفايا الكون وأسراره .

فليَقَرَّ المسلمون المؤمنون بالله أعيناً ، وليمت الماديون الملحدون بالله غيظاً . إن العلم المنصف قد بدأ فعلاً يتحول عن تفسيراته المادية البحتة ، التي ملأت الدنيا ضجيجاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، متجهاً إلى تفسيرات أخرى يقترب فيها الدين اقتراباً أزعج المؤسسات الإلحادية إزعاجاً كثيراً ، إذ بدأت تفقد ركائزها التي كانت تلبس ثوب العلم زوراً وبهتاناً ، وتصنع مغالطاتها من الفرضيات التي لم تكن قد أخذت مستوى التحقق العلمي ، وتصوغ منها مقدمات يقينية ، لتدعم سياستها الإلحادية ، نظراً إلى أن الإلحاد يخدم كما عرفنا مصالحها الخاصة .

إن انتصار الحقيقة الكبرى في نهاية المسيرة العلمية قضية مقطوع بها في عقيدة المسلمين ، فلا خوف على الدين من العلم الصحيح .

إلا أن داء الهوى وداء التعصب كثيراً ما يصيبان الباحثين في طريق العلم والمعرفة ، كما يصيبان الآخرين من الناس .

يقول المفكر الإسلامي (وحيد الدين خان)[1]:

"وبالرغم من هذه التغييرات في دنيا العلم لم يطرأ تغير يذكر على العقلية المنكرة للدين . بل على العكس من ذلك ينهمك معارضو الدين في تدبيج قضيتهم ضد الدين بأساليب جديدة ، وليس سبب هذا الموقف اكتشافاً علمياً خطيراً ، وإنما هو التعصب ولا غير . إن التاريخ ليحفل بما لا يحصى من الوقائع التي تبرهن على أن البشر رفضوا الحقيقة – رغم تجليها بوضوح – لأن تعصبهم لفكرة ما لم يسمح لهم بقبولها . وهذا التعصب الأعمى هو الذي جعل العلماء الإيطاليين قبل أربعة قرون يرفضون نظرية (جاليليو) كبديل لنظرية أرسطو القديمة ، على الرغم من أن الكرتين اللتين أسقطهما (جاليليو) من قمة منارة (لينبج) قد جعلتا نظريته حقيقة مرئية للعيان ، وهذا هو التعصب الذي جعل العلماء في نهاية القرن الماضي يسخرون من نظرية البروفيسور (ماكس بلانك) المفسِّرة لظواهر الضوء ، والتي أبطلت نظرية (نيوتن) وتلك هي النظرية التي تسمى اليوم بنظرية الكمية (الكوانتم) ، وتعتبر من أهم أسس علم الطبيعة الحديث .

وإذا كان أحدنا يظن أن داء التعصب يمكن أن يصيب الآخرين دون العلماء فإنني سأذكره بما قاله أحد العلماء المعاصرين وهو الدكتور (أ. و. هيلز):

"إنني سأكون آخر من يدعي أننا نحن العلماء أقل الناس عرضة للتعصب بالنسبة للمثقفين الآخرين".

---

[1] في كتابه "الدين في مواجهة العلم"".

فنحن أمام دنيا يمزقها التعصب . فكيف لنا أن نتوقع أن نظرية ما سوف تحظى بقبول الجميع لمجرد أن المنطق أو العلم قد أثبتها؟!

إن تجربة التاريخ الطويل تدلنا على أن العواطف لا العقل هي التي كانت تقود الإنسان ، وبالرغم من أن العقل هو الذي يحظى بالمقام الأرفع علمياً ومنطقياً ، لكن العواطف في أغلب الأحايين هي التي كانت تستعبد العقل ، وكان العقل دوماً يخترع المعاذير للعواطف."اهـ.

* * *

الفصل العاشر

صراع حول ما أسماه العظم

مأسَاة إبليس

ملاحظة قبل الدخول في الصراع

قال الناقد (د. العظم) في الصفحة (83) من كتابه : "قبل أن أدخل في صلب الموضوع أريد أن يتضح للجميع بأن بحثي يدور في إطار معين ، لا يجوز الابتعاد عنه على الإطلاق ، ألا وهو إطار التفكير المثيولوجي – الديني الناتج عن خيال الإنسان الأسطوري وملكاته الخرافية – إنني لا أريد معالجة قصة إبليس باعتبارها موضوعاً يدخل نطاق الإيمان الديني الصرف ، ولا أريد أن أتكلم عنه باعتباره كائناً موجوداً حقيقياً ، وإنما أريد دراسة شخصيته باعتبارها شخصية ميثولوجية أبدعتها ملكة الإنسان الخرافية وطوَّرها وضخمها خياله الخصب".

فلا يغترَّ القارئ ببعض أقواله الدينية في صلب الموضوع ، لأنه مضطر إلى إيرادها لدراسة القصة من خلالها ، على اعتبارها واعتبار كل ما يتصل بها خرافة من الخرافات وأسطورة من وضع الإنسان .

(1)

كتب (د. العظم) في كتابه "نقد الفكر الديني" فصلاً خاصاً بعنوان : "مأساة إبليس" ، وكان هذا الفصل محاضرة ألقاها .

زعم فيما كتب أن قصة إبليس أسطورة خيالية من الأساطير الدينية ، مثلها كمثل الأساطير الخيالية التي تنتهي بمأساة درامية ، وإبليس بطل هذه المسألة قديس بحسب تفسيراته التي اعتمد فيها على آرائه الشخصية ، وعلى آراء باطنية شاذة اعتمدت على المذهب الجبري في موضوع القضاء والقدر ، وهو مذهب مرفوض كما علمنا ، وما اشتمل هذا المذهب عليه من أفكار لا يمثل العقيدة الإسلامية الصحيحة ، لذلك فإن جميع ما بناه على هذا الأساس من تفسيرات ومفاهيم وأسئلة وإشكالات ساقط مردود ، باعتبار أن الأساس الذي بنى عليه أساس مرفوض دينياً ، وما بني على فاسد فهو فاسد .

ولم يكتفِ باعتبار قصة إبليس الواردة في القرآن قصة أسطورية ، بل هو يعتبر سائر القصص الدينية الصحيحة من قبل القصص الأسطورية ، فقصة إبراهيم وأمر الله له بذبح ولده أسطورة مأساة درامية خيالية في نظره ، وقصة أيوب وبلائه أسطورة مأساة ،وهكذا ، ولكن أعظم بطل ذي قصة مأساوية في نظره هو إبليس ، لأنه تحدى الموقف المأساوي ببطولة .

من الطبيعي أن ينكر القصص الدينية بعد أن أنكر وجود الله ، وأنكر الشرائع السماوية كلها ، وأنكر القرآن وصحة نسبته إلى الله جلَّ وعلا .

إن العقيدة الإسلامية بكل أركانها وفروعها مبنية على أصل واحد هو الإيمان بالله ، فمن اجتثّ من فكره وقلبه ووجدانه هذا الأصل فكل كلامه في الفروع كلام جدلي محض لا أساس له ، ولا بد أن تكون مناقشته فيه متسمة بالمغالطات والأكاذيب والمشاغبات والعمل على طي الحقائق وكتمانها ، والاقتصار على الجوانب التي تفيده في المعركة الجدلية ، مثله في ذلك مثل المصارع الذي يصنع بيده وعلى وفق هواه دميةً لخصمه ، ثم يدخل معها إلى حلبة الصراع على أنها هي خصمه الحقيقي ، ويصارعها كما يشاء ، ويلعب بها كما يشاء ، ثم يظهر انتصاره عليها . أو كمثل المصارع الذي يستخدم بعض المرتزقة من المصارعين ، ويطلب منه أن يلبس قناع خصمه الحقيقي ، وينزل بدل الخصم في حلبة المصارعة ، على أن يصارع مصارعة ضعيفة ، ينهزم في أعقابها عند حلول الزمان المعلوم ، ووفق صورة مرسومة متفق عليها سابقاً .

وما أكثر هؤلاء المقنعين من الذين يتظاهرون بالدفاع عن الدين ، ويصارعون أعداءه بضعف ظاهر ، ثم ينكشفون بعد محاولات باردات ، لا يستخدمون فيها أية قوة من القوى الدينية الصحيحة ، ويقبعون أخيراً في الزوايا مهملين ، ويبقى أعداء الدين في الحلبة بعدهم يجولون .

وبعض هؤلاء يقدمون ما يلزم من حركات ليستخدمها الطرف المقابل الذي رسم له النجاح مقدماً ، وليقوم بحركات بهلوانية تعجب الناظرين ، وتلفت إليه الانتباه كله ، وتصوِّره في نفوس المشاهدين بصورة البطل المصارع الذي لا يُغلب .

ولقد غدت هذه اللعبة الخداعية لعبة مكشوفة لدى الجماهير ، في حلبات الرياضة البدنية ، وفي حلبات السياسة ، وفي حلبات المذاهب الفكرية المختلفة ، وفي حلبات المعارك الحربية أيضاً ، وهي في حلبات الصراع ضد الدين كثيرة جداً ، ومتعددة الوجوه والصور والأشكال ، ومختلفة السمات والملامح .

ومن عجيب أمر (د. العظم) أنه أقام من نفسه عارضاً للصورة الإسلامية كما يهوى ، ومدعياً على الإسلام وفق الصورة التي رسمها هو ، ومحامياً عنه كما يشتهي ، ومحامياً ضده كما يريد ، وقاضياً مشاركاً في دراسة الدعوى ، وأخيراً جعل من نفسه حاكماً لا يقبل حكمه الاستئناف ولا التمييز ، وهو قبل كل ذلك الخصم الذي يدبر المكايد ، ويصنع الأكاذيب ، ويلفق الحيل لهدم الإسلام هدماً كلياً ، ولا يألوا جهداً في توجيه أي حرب ضده وضد المسلمين ، خدمة للماركسي ، ومن ورائها اليهودية العالمية .

وحينما يستشهد بأقوال بعض المسلمين فإنه لا يستشهد إلا بالأقوال الشاذة والآراء المنحرفة ، ويتصيدها تصيداً من ضمن الآراء الصحيحة السليمة ، ويقدمها على أنها هي وحدها الممثلة للفكرة الإسلامية في موضوع البحث الذي يناقضه ، ويطوي ما عداها من الآراء والمفاهيم ، أو يشير إليها إشارة خفيفة دون بيان ، وعلى طريقته التي عرفناها فيه يغالط في الحقائق ، فيعمم الخاص، أو يخصص العام من عنده ، أو يكذب في النسبة ، أو يؤول من عنده تأويلاً فاسداً ، أو يحرف في المراد من المعاني ، إلى غير ذلك من أصول المغالطات .

نقل شطحات الحلاج الشاذة القائمة على العقيدة الجبرية ، وعلى التفسيرات الباطنية ، والتعبيرات الرمزية ، واعتبرها هي الممثلة للفكرة الإسلامية في موضوع إبليس وقصته ، مع أن هذه الأقوال مخالفة للنصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية مخالفة صريحة ، ولا تحتمل هذه النصوص تلك المعاني الباطنية الشاذة ، لا في أسلوبها العربي ، ولا في دلالتها الفلسفية ، وما هي إلا تحريف في الدين بآراء فلسفية لاهوتية دخيلة على الفكر الإسلامي .

واعتمد آراء عز الدين المقدسي في كتابه "تفليس إبليس" لأنها في مضمونها تتضامن مع الشطحات الحلاجية الباطنية ، الجانحة عن المفاهيم القرآنية ، بالآراء الدخيلة على الفكر الإسلامي ، والتي أفسدت بعبثها نقاء الحقيقة الدينية الظاهرة من النصوص الإسلامية ، وهي الحقيقة التي فهمها أصحاب رسول الله ﷺ [illegible]

[illegible]

[illegible]

إبليس هو واحد من الجن ، والجن مخلوقات غير الملائكة ، وهما جميعاً غير الإنس ، ولكل صنف من هذه المخلوقات خصائص وسمات . فالملائكة خلقهم الله من نور ، والجن خلقهم الله من مارج من نار (أي: من أخلاط من النار) ، والإنس خلقهم الله من طين كما هو معلوم (أي: من عناصر مختلفة من الأرض ترابها ومعادنها ومائها).

وقد دل على هذه الفوارق في عناصر التكوين ما رواه مسلم عن عائشة ، عن الرسول [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible] : [illegible] : [illegible] .

[illegible] ([illegible]/[illegible]) [illegible]:

{[illegible]}

[illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible] .

[illegible] "[illegible]" [illegible] .

[illegible] .

[illegible] "[illegible]" [illegible] .

[illegible] . [illegible] ([illegible]/[illegible]) [illegible]:

.{[illegible]...}

[illegible]: ([illegible] .[illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible]

"[illegible] : ([illegible] [illegible]) [illegible]."

[illegible] "[illegible]" [illegible] .

[illegible] :[illegible]

"[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] . [illegible] . [illegible]. [illegible] . [illegible] . [illegible] ."

[illegible] (.[illegible]) [illegible] .

[illegible]

[illegible] .

[illegible]

[illegible] : **[illegible]**
[illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible] "[illegible]" [illegible] .

. [illegible] : [illegible]

. [illegible]: [illegible]

[illegible] : **[illegible]**
[illegible] .

[illegible] : **[illegible]**
[illegible] . [illegible] .

[illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]
:([illegible]

[illegible] * [illegible] {[illegible]}.

[illegible].

[illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] :([illegible]

{[illegible]} [illegible] {[illegible]}

:([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]

{[illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]}

[illegible].

[illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible]

[illegible].

[illegible]

[illegible] : [illegible] .{[illegible]}

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible])
{[illegible]}

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible])

[illegible] * [illegible] * [illegible]

[illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] .([illegible] .[illegible]) [illegible]

([illegible])

:[illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible]

"[illegible] - [illegible] .

[illegible] - [illegible] ."

[illegible] !! [illegible] .

[illegible] : [illegible] " [illegible] . [illegible] : [illegible] . [illegible] ."

[illegible] .

[illegible] : [illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible] .

([illegible])

[illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible]
:[illegible] ([illegible]) [illegible]

"[illegible]."

[illegible] "[illegible]" [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible].

[illegible] : [illegible].

[illegible].

[illegible] :

[illegible].

[illegible].

[illegible].

[illegible].

[illegible].

[illegible].

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible]

[illegible] :[illegible]
[illegible] .

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]) :
{[illegible]} [illegible]

[illegible] .

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]) :
{[illegible] ..} .

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]) :
{[illegible]} .

[illegible] ([illegible]) :
{[illegible]} .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] "[illegible]" [illegible] .

[illegible] .

[illegible] : [illegible]
[illegible]

[illegible]: [illegible]:

[illegible]: [illegible].

[illegible]: [illegible].

[illegible]: [illegible].

[illegible].

[illegible].

[illegible].

([illegible])

[illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible].

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]) [illegible] :([illegible]

{[illegible]}

[illegible] :([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])

{[illegible]}

{[illegible]}

[illegible] :([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])

{[illegible]}

{[illegible]}

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

. [illegible]

[illegible] .

. [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible].

. [illegible]

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

.[illegible] [illegible] :([illegible])

{[illegible]}

[illegible]

[illegible] .

[illegible] ([illegible] .[illegible]) [illegible] .

[illegible] :

{[illegible]}

[illegible] .

[illegible] :

{[illegible]}

[illegible] :[illegible] .

[illegible] .

:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

.{...[illegible]}

[illegible]

:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

{[illegible]}

[illegible] : [illegible]

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible])
[illegible] {[illegible]}

[illegible] ([illegible]) [illegible]:

"[illegible] ... [illegible]"...

[illegible] , [illegible]:

[illegible]: [illegible] .

[illegible] "[illegible]" [illegible] {[illegible]} : [illegible] {[illegible]} :[illegible] .

[illegible] .

[illegible] "[illegible]" [illegible] ([illegible]) [illegible] ([illegible]).

[illegible] .

[illegible]!

[illegible]: [illegible] :[illegible]

{[illegible]...}.

[illegible]: [illegible]

[illegible]

[illegible].

[illegible] .

[illegible] "[illegible]" [illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible]

[illegible] .

الفصل الحادي عشر

الكفر والكافرون

اقتباساً من المفاهيم الدينية ، ودلالات النصوص القرآنية كتبت هذا الفصل عن الكفر والكافرين لأكشف به حقيقة الكفر ،وواقع حال الكـافرين ، وأسباب كفرهم ودواعيه ، ومناخ نمائه ونشاطه ، وموقف المؤمنين منهــم ، وموقفهم من المؤمنين ، وجـدلياتهم ، وأنـواع عقوبـاتهم العاجلـة والآجلـة التي حذرهم الله منها إذا استمروا على كفرهم .

(1)
ما هو الكفر؟

أصل معنى الكفر في اللغة التغطية الكاملة والستر التام ، يقال للابس السلاح الذي غطاه السلاح تغطية كاملة : كافر ، لأنه ستر جسمه بــه ستراً كاملاً ، ويقال للزارع : كـافر ، لأنـه يـدفن الحـب فـي الأرض فيغطيـه بـالتراب تغطيـه كاملـة ، ومنـه قـول اللـه تعـالى فـي سـورة (الحديـد/57 مصحف/94 نزول):

{ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ..}.

ويقال لليل المظلم : كافر ، لأنه يستر بظلمتـه كـل شـيء ، ويقـال : كفر الليل الشيء وكفر عليه إذا غطَّاه ، ويقال للبحر : كافر ، لأنه يسـتر مـا فيه ، وهكذا تدور الكلمة في اللغة حول الستر والتغطية .

واستعملت هذه الكلمة في الاصطلاح الديني للدلالـة علـى مـا يقابـل الإيمان ، والداعي إلى تسمية إنكار الحق الديني كفراً ، أنه قائم علـى سـتر أدلة الإيمان العقلية والفطرية الوجدانية.

فالإيمان هو التصديق ، والكفـر عـدم التصـديق ، وكـل إيمـان بشـيء يستلزم كفراً بنقيضه ، لذلك فكل مؤمن بالعقيدة الإسلامية الصحيحة كـافر بنقيضها وبكل مستلزمات هذا النقيـض ،ولـذلك كـان الإيمـان بـالله يقتضـي الكفر بالطاغوت اقتضـاءً حتميـاً . وفـي هـذا يقـول اللـه تعـالى فـي سـورة (البقرة/2 مصحف/87 نزول):

{لاَ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُـرْ بِٱلطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَـكَ بِـٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لاَ ٱنفِصَـامَ لَهَـا وَٱللَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ}

فلا يتم إيمان المؤمن حتى يكفر بكل الطواغيت ويؤمن بالله ، ولذلك اشـتملت عبـارة التوحيـد علـى السـلب والإيجـاب (لا إلـه إلا اللـه) ، فهـي تشتمل على الكفر بكل إله سوى الله وعلى الإيمان بالله وحده لا شريك له .

أما غير المؤمنين بالعقيدة الإسلامية إيماناً صحيحاً فقد عكسوا القضية ، فآمنوا بالباطل وكفروا بالحق ، سواء أكان ذلك بصفة كلية لجميع أركان العقيدة الإسلامية ، أو بصفة جزئية ، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (النحل/16 مصحف/70 نزول):

{أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ}

ويقول الله تعالى في سورة (العنكبوت/29 مصحف/85 نزول):

{أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ }.

وحين تطلق كلمة الكفر ومشتقاتها في الاصطلاح الديني فالمراد منها الكفر بما يجب الإيمان به ، أو يجب الإذعان والخضوع له ، إلا أن توجد قرينة تصرف إلى معانٍ أخرى تتصل بالمعنى اللغوي ككفر النعمة ، وكفر العشير ، ونحو ذلك .

فمن أنكر الإسلام ولم يقبل ما جاء فيه من حق فهو كافر ، ومن أنكر أي شيء ثابت في الإسلام بصفة قطعية فهو كافر ، لأنه جاحد دين الله مكذِّب لرسوله فيما جاء عن ربه .

فجحود بعض اليقينيات الدينية يكفي للحكم بالكفر ، ولا يتوقف الحكم بالكفر على إنكار الدين كله ، لأن العقيدة الإسلامية متماسكة الأركان ، متماسكة العناصر تماسكاً كاملاً من جميع الأطراف ، وهي كلٌّ لا يقبل التجزئة ، فمن أنكر بعضها مما هو ثابت بيقين فهو بها كافر ، ومن كذَّب الرسول بشيء قد ثبت عنه يقيناً فقد كفر بنبوته ، ومن كفر بنبوة الرسول فقد كذب شهادة من أرسله ، وهكذا تتسلسل نواقض عناصر الإيمان ، حتى تصل إلى الجذر الأساسي فتنقضه وهذا هو الكفر الأكبر .

والكفر دركات بعضه أشد من بعض ، وبعضه أقبح من بعض ، والإلحاد القائم على إنكار الخالق إنكاراً كلياً أشد وأقبح أنواع الكفر .

*** أصناف الكافرين:**

إذا أحصينا أحوال الكافرين وجدناهم أصنافاً لا صنفاً واحداً.

الصنف الأول : الضالون فكرياً ، وهم الذين ضلوا سبيل المعرفة الإيمانية الحقة ، وأعماهم التعصب عن رؤية الحق وإن بُيِّن لهم ، فهم لا يستجيبون لداعي الحق مهما لفت أنظارهم إليه ، لأنهم غير مستعدين نفسياً لتغيير عقائدهم الضالة ، ويظلون يؤمنون بالباطل ويزعمونه حقاً.

فهؤلاء هم الكافرون الضالون ، وهم على مستويات بعضها أخس من بعض .

الصنف الثاني: المنحرفون نفسياً والجانحون جنوحاً أخلاقياً ، وهم الذين يعرفون الحق ، ولكنهم يصرون على مخالفته بدافع من الكبر أو الهوى أو التعصب أو بدافع من ضغط البيئة الاجتماعية وخوف انتقادها ولومها أو ضغط القادة المضلين أو خوف فوات منافع جارية ومصالح قائمة ، أو نحو ذلك فهم من أجل ذلك يصرون على الكفر أو يسيرون في ركب الكافرين .

وهؤلاء هم الكافرون المغضوب عليهم ، وهم شر مكاناً وأقبح كفراً ، لأنهم يعرفون وينحرفون فلا يعترفون ، وهم على مستويات بعضها أخس وأقبح من بعض .

الصنف الثالث: منافقون من فئة الضالين فكرياً .

الصنف الرابع: منافقون من فئة المنحرفين نفسياً الجانحين جنوحاً أخلاقياً.

والمنافقون مخادعون جبناء يتظاهرون بالإسلام نفاقاً ، ويبطنون كفرهم القائم على الضلال ، أو القائم على الانحراف والإصرار على الباطل ، وهؤلاء في الدرك الأسفل من دركات الكفر ، لأنهم قد جمعوا قبح الكفر وقبح النفاق وما يلازمه من صفات الكذب والخداع والاستهزاء وغير ذلك من صفات المنافقين .

والنصوص القرآنية قد أوضحت أصناف الكافرين ، واشتملت فاتحة الكتاب على ذكر المضلين والمغضوب عليهم ، وهو يعم منافقي هذين الصنفين ، وبسط القرآن أحوال أصناف الكافرين في مواضع كثيرة ، وكشف صفاتهم وأعمالهم ببيانات مستفيضة .

*** من يُحكم عليهم بالكفر؟**

تطبيقاً للمفاهيم الإسلامية التي تحدِّد مواقع الكفر نستطيع أن نحكم بالكفر حكماً إسلامياً على من جحد بذات الله أو بصفات الثابتة بيقين ، أو جعل مع الله إلهاً آخر ، أو أنكر رسالة محمد أو جحد بآيات الله وكتابه أو بشيء منه ثابت فيه بيقين ، أو كذَّب الرسول بشيء مما بلَّغه عن ربه وثبتت نسبته إليه بيقين ثبوتاً قطعياً ، أو أنكر شيئاً من أركان الإيمان ، أو أركان الإسلام ، أو جحد بحقيقة ثابتة في الإسلام ثبوتاً قطعياً .

لذلك حكم الله بالكفر على الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، فقال تعالى في سورة (المائدة/5 مصحف/112 نزول):

{لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

أي فالذي لا يستطيع دفع الهلاك عن نفسه إذا أراد الله أن يهلكه كيف تدَّعي له الإلهية ، والإلهية هي للرب الخالق لا للعبد المخلوق .

والمسيح عيسى عليه السلام أمر قومه في دعوته لهم بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأوضح لهم أن الله ربه وربهم ، خلقه كما خلقهم ، وأوضح لهم أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه جهنم بسبب كفره وظلمه الكبير ، قال الله تعالى في سورة (المائدة/5 مصحف/112 نزول):

{لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوۤاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَابَنِيۤ إِسْرَائِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}

وحكم الله بالكفر على الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة لأنهم جحدوا إحدى الحقائق الكبرى من حقائق الإيمان ، وهي حقيقة أن الله واحد وليس مركباً من ثلاثة ، فقال تبارك وتعالى عقب الآية السابقة:

{لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوۤاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلاَّ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

وناقش الله أصحاب عقيدة التثليث بقوله بعد ذلك:

{مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلآيَاتِ ثُمَّ ٱنْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ}

وهذه المناقشة تقوم على إثبات البشرية للمسيح وأمه ، استناداً إلى بعض أوصافهما البشرية المعروفة فيهما ، إذ كانا يأكلان الطعام ، ومن يأكل الطعام لا يمكن عقلاً أن يكون إلهاً ، ومن كان بشراً مخلوقاً فإنه لا يملك لمن يعبده ضراً ولا نفعاً ، ومن لا يملك نفعاً ولا ضراً فإنه لا يستحق أن يتقرب إليه بالعبادة .

وحكم الله بالكفر على الذين كذَّبوا بالقرآن ، فقال تعالى في سورة (فصِّلت/41 مصحف/61 نزول):

{إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَّ يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}

فجعل سبحانه تكذيبهم بالقرآن كفراً ، وناقشهم في السورة نفسها بقوله تعالى:

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}

وحكم الله بالكفر على من كذب الرسول محمداً أو غيره من رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين ، ففي شأن المنافقين قال الله لرسوله في سورة (التوبة/9 مصحف/113 نزول):

{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}

فجعل تكذيبهم للرسول ، كفراً لأنه في حقيقته تكذيب لله وكفر به وكفر بآياته .

وحكم الله بالكفر على من كذَّب بيوم الدين ،فقال تعالى في سورة (العنكبوت/29 مصحف/85 نزول):

{وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَآئِهِ أُوْلَـٰئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

فالعقيدة الإسلامية لا تقبل التفريق في الإيمان بين أركان الإيمان ، أو بين عناصر الركن الواحد ، والإيمان غير قابل للتجزئة والتفريق ، بأن يؤمن الإنسان ببعض العناصر ويكفر ببعضها ؛ ومن فعل ذلك كان كافراً غير مؤمن ، وهذا ما أعلنه القرآن بقول الله تعالى في سورة (النساء/4 مصحف/92 نزول):

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً * وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }

ففي هذا دليل واضح على أن الإيمان لا يقبل التفريق بين أركانه .

وخاطب الله بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة/2 مصحف/87 نزول):

{...أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}

وفي هذا النص دليل واضح أيضاً على أن عناصر الإيمان لا تقبل التفريق .

فالإيمان وحدة متماسكة متى انفكت عروة من عراها انحلت سائرها وانفرط عقدها .

(2)
حرص الإسلام على إيمان الناس وإنقاذهم من الكفر وشروره

من روائع مضمون رسالة الإسلام أنها تحرص أشد الحرص على إيمان الناس وهدايتهم ، رغبة بإنقاذهم ونجاتهم وسلامتهم وسعادتهم .

وقد حث الإسلام المؤمنين به على إرشاد الناس ودعوتهم إلى الإيمان والعلم الصالح ، وسلوك سبيل الحق والخير والفضيلة ، وعلى قتالهم في بعض الأحوال لإزالة الموانع من نفوسهم ، أو لإزالة الموانع من طريق إيمانهم ، لإنقاذ من يمكن إنقاذه من صفوفهم ، حتى يكونوا مع المؤمنين من أهل دار النعيم سعداء راضين مرضيين ، لا من أهل نار الجحيم أشقياء مطرودين من رحمة الله .

فالدوافع لهداية الناس إلى الإيمان وفعل الصالحات تنبع من منابع الحب وإرادة الخير للناس أجمعين .

ولو أن الناس كلهم كفروا بالله وعصوه لما كانوا يضرون الله شيئاً ، ولو أنهم جميعاً آمنوا به وأطاعوه لما نفعوا الله شيئاً ، ولما زادوا في ملكه شيئاً ، ولكن الله يحب لعباده أن يؤمنوا ويصلحوا حتى يسعدوا ، ويكره لهم أن يكفروا ويفسدوا حتى لا يكونوا من أهل الشقاوة والعذاب .

وقد جاء في الحديث القدسي الثابت في الصحيح ، أن الله تعالى قال : "يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخيَط إذا أدخل البحر . يا عبادي : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه".

وما تضمنه هذا الحديث القدس نجده في نصوص عدة من القرآن الكريم .

فمنها قول الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران/3 مصحف/89 نزول):

{وَلاَ يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي ٱلآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

فالله تبارك وتعالى يخفف عن رسوله صلوات الله عليه حالة الحزن التي كانت تعتريه ، حين يشاهد بعض قومه يسارعون في الكفر ، ويبين له أن وظيفته في الناس التبليغ والدعوة إلى الله ، وليست وظيفته تحويل

الناس إلى الهداية ، فإنهم هم المسؤولون عن أنفسهم وعن سلوك سبيل الهداية ، ويبيِّن له أيضاً أن الذين يسارعون في الكفر والذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً.

أي : فالحرص على إيمانهم خدمةٌ لهم وغيرَةٌ عليهم ورغبةٌ في نجاتهم وسعادتهم .

ومنها قول الله تعالى في سورة (محمد/47 مصحف/95 نزول):
{إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ}

فهؤلاء الذين اختاروا الكفر ، وأضافوا إليه الصد عن سبيل الله . ومعاداة الرسول ، من بعد ما تبين لهم الهدى ، إنهم في أعمالهم هذه كلها لن يضروا الله شيئاً ، وما يعملونه من أعمال للصد عن سبيل الله ومناهضة الرسول ومقاومة الإسلام والمسلمين فسيحبطها الله وسينصر أولياءه .

فلن يضروا الله شيئاً ، ولن يضروا أولياءه وحملة رسالته إذا صدق هؤلاء مع الله ، ولن ينالوا منهم إلا أذى قد يصيبهم في الدنيا في أنفسهم أو أموالهم أو أرضهم ، وعاقبة الظفر والنصر ستكون لهم بتأييد الله ونصره المبين ، وهذا ما بينه الله بقوله في سورة (آل عمران/3 مصحف/89 نزول) خطاباً للمؤمنين في معرض الحديث عن اليهود:
{لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ}

وأوضح الله تبارك وتعالى أنه غني عن عباده ، ولكن لا يرضى لعباده رجس الكفر ورذائل الفسق والعصيان ، بل يحب لهم طهارة الإيمان ، وفضائل الاستقامة والطاعة ، ثم يجازيهم على أعمالهم بالعدل . فقال الله تعالى في سورة (الزمر/39 مصحف/59 نزول):
{إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ}

ومن كفر فعليه كفره ، ولا يزيده كفره عند ربه إلا مقتاً وخساراً ، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (فاطر/35 مصحف/43 نزول):
{هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي ٱلأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً}

ويقابل هذا أن من آمن وعمل صالحاً فلنفسه يقدم الخير ، وهذا ما بيَّنه الله بقوله في سورة (الروم/30 مصحف/84 نزول):
{مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ }

من كل ذلك تتضح لنا الحقائق التالية:

1- أن الله غني عن إيمان عباده وطاعتهم .
2- أن الكافرين لا يضرون الله شيئاً .
3- أن أعمال الكافرين لن تضر المؤمنين الصادقين مع الله إلا أذى .
4- أن من كفر فعليه كفره .
5- أن من آمن وعمل صالحاً فله عمله .

(3)
أسباب الكفر والضلال

يتبين لنا بالتأمل وبالتتبع العلمي في تقصي الواقع الإنساني طائفة من أسباب الكفر والضلال في الناس ، ونذكر فيما يلي أسباباً وعوامل رئيسية تتضمن أسباباً وعوامل فرعية كثيرة .

*** السبب الأول – الانحراف الفكري عن منهج التفكير السديد:**

وفي تتبع هذا السبب وظواهره نلاحظ أن كثيراً من الناس يقبلون في حياتهم الفكرية أن تتحوَّل أوهامهم وتخيلاتهم أو ظنونهم إلى حقائق علمية وعقائد ثابتة ، دون أن يكون لها نصيب من الحقيقة ، ودون أن تمر في مراحل الطريق المنطقي السليم للمعرفة ، وبذلك يقعون في ضلالات فكرية ذات نتائج خطيرة .

وزاوية الانطلاق في هذا السبب تبدأ من اتباع الظن الضعيف الذي هو دون مستوى الرجحان ، لافتقاره إلى دليل عقلي أو علمي يقوّيه ويرجحه ، وهذا الظن التوهمي الكاذب هو الذي اتبعه من جعلوا لله شركاء بغير حق ، وفيهم قال الله تعالى في سورة (يونس/10 مصحف/51 نزول):

{أَلا إِنَّ للَّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَنْ فِي الأَرْض وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ}

أي : ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء حقيقيين ، لأن الله واحد لا شريك له ، إن يتبعون إلا الظن التوهمي الكذاب ، وإن هم إلا يخرصون ، أي: وإن هم إلا يكذبون على الحقيقة بالتوهم الكاذب والظن الضعيف الذي لا قيمة له في تحصيل المعارف .

وقد يكون الباعث على قبول الظن الذي لا قيمة له في مجال اكتساب المعرفة كونه موافقاً لهوى النفس ، وهذا الهوى يزيِّن ضعيف الظنون ويحسنه لدى النفوس ويكبره ويجسمه بالوهم وبالتخيل الكاذب ، ولا يزل ينفخ فيه حتى يسيطر على المشاعر ، ويستحوذ على الفكر أخيراً ، وعندئذٍ يتبع صاحب هذا الظن الضعيف ظنه معتقداً أنه حقيقة ، وهو في أصله خرص من نسيج الخيال وحياكة الوهم الكاذب ، وهذا الرديف من الهوى هو الذي ساعد على دفع المشركين الوثنيين إلى ضلالاتهم ، ولذلك خاطبهم الله بقوله عن معتقداتهم في سورة (النجم/53 مصحف/23 نزول):

{إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ}

ولما كان أكثر الناس تسيطر الظنون الضعيفة والأوهام السخيفة على أفكارهم ونفوسهم فيتبعونها ويعتقدونها ، حذَّر الله من اتباع أكثر من في الأرض ، فقال تعالى في سورة (الأنعام/6 مصحف/55 نزول):

{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ}

أي : يرجمون بالخرص التخيلي أو التوهمي ، ويقررون ما يقع عليه خرصهم على أنه حقيقة ، ويبنون على ذلك عقائدهم وأعمالهم .

ولهذا السبب الرئيسي عوامل فرعية متعددة داخل النفوس الإنسانية منها العوامل التالية:

1- **الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي :**

فقد تلمع في نفس الإنسان بارقة من فكرة تمر في خياله أو توهمه ، فيأتي الغرور بالنفس فيلبسها ثوباً لماعاً مزركشاً ، فتحلو في نفسه وتزدان ،ثم يتجسم توهمه بها حتى تصبح لديه فكرة ثابتة أو عقيدة راسخة دون أن يعالجها بالحجة والبرهان ، والمناقشة المنطقية السليمة .

وقد يسعى مبشراً بها بين السذج وضعفاء التكفير والجاهلين ، مزيناً حجته بزخرف من القول ، أو مستخدماً قوة شخصيته أو قوة نفوذه ، ثم يكون له مؤيدون وأنصار يتابعونه على ضلالته التي انخدع هو بها بعامل الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي .

وقد نشأ في التاريخ فرق متعددة تحمل مذاهب فكرية باطلة ، وذلك بسبب إصابة واحد من الناس أو مجموعة منهم بمرض الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي ، ثم كان منه ومن عوامل أخرى ضلالات موروثة ، استمسكت بها أجيال متلاحقة ، بات من العسير التخلص منها إلا في ظروف معالجات فكرية ونفسية مؤثرة .

2- الجهل العام الذي يسمح بتقبل كثير من المفاهيم الباطلة:

وهنا نلاحظ أنه قد تشيع في مجتمع متخلف فكرياً أو ثقافياً أفكار باطلة محرفة عن منهج التفكير السليم ، وتجد هذه الأفكار الباطلة قبولاً في هذا المجتمع ، وذلك بسبب تخلفه العلمي ، ثم يتطاول الأمد فتمسي هذه الأفكار عقائد قومية متوارثة ، وتقاليد متَّبعة ثابتة ، كأنها من الحقائق البدهية التي لا تقبل أية مناقشة فكرية أو أي تغيير .

ومن هذه المفاهيم الباطلة مفاهيم يلقيها بين المجتمع الجاهل ماكرون مضللون من شياطين الإنس ، لهم مصالح وأغراض وشهوات

خاصة من بث هذه الأفكار الباطلة ، والخرافات والأوهام وتزيينها في نفوس القوم ، وذلك ليكون لهذه الانحرافات والخرافات ثمرات ممتعة لأولئك الشياطين يستغلونها ، ويستثمرونها ، ويقضون شهواتهم وملذاتهم على مصائب القوم من مفاهيمهم الباطلة .

3- التقليد الأعمى:

من الملاحظ أن الإنسان ينشأ في بيئة من البيئات الاجتماعية فيكتسب منها معارف ومهارات وعادات وأخلاقاً كثيرة ، ومن هذه المكتسبات ما هو حق ، ومنها ما هو باطل ، ومنها أيضاً ما هو صالح ، ومنها ما هو فاسد ، وبمقتضى نشوئه في هذه البيئة الاجتماعية يتكون لديه بدافع الأنانية خلق التعصب لأهله وعشيرته وقومه ، والتعصب لجميع ما هو في بيئته من مفاهيم وعادات وأخلاق ، لأنه يتصور أنه بتعصبه هذا يدافع عن كيانه الذاتي ، ولكنه دفاع ليس في محله ، إذ هو دفاع عن الانحراف .ولو أنه سمح لقواه العقلية المتجردة عن مؤثرات البيئة أن تبحث وتناقش وتميز بين الحق والباطل والخير والشر والصالح والفاسد ، لوجد أن دفاعه عن ذاتيته إنما يكون بتقويمها وإصلاح عوجها ،وهجر الموروثات الباطلة ، والاستمساك بالحق منها .

وبالتتبع نلاحظ أن كثيراً من الناس ليس لهم فيما يستمسكون به من مفاهيم وعادات باطلة أية حجة ، إلا أنها أشياء ورثوها عن أسلافهم من قومهم ، فاقتدوا بهم وتعصبوا لهم وساروا على آثارهم دون بصر فيها أو نظر .

4- المبالغة في تعظيم بعض العظماء من الناس:

نظرة تأمل في التاريخ الإنساني تكشف لنا أنه قد يظهر بين حين وآخر في كل أمة من الأمم أفذاذ منها ، يبلغون درجة عالية في سُلَّم الكمال التي تعتبره تلك الأمة كالتقوى والاستقامة أو العلم والعبقرية ، أو الإخلاص لأمتهم وبلادهم ، وقد يكتب الله على أيديهم بعض الظفر والازدهار والنجاح الباهر ، والتوفيق العظيم ، وما إلى ذلك من رغائب فيعظِّمهم الناس ، ويمجدونهم ويلبسونهم ثوباً من الكمال ليسوا أهلاً له ، حتى يعتبروا كل عمل من أعمالهم ، وكل خلق من أخلاقهم حسناً وإن كان قبيحاً ، وخيراً وإن كان شراً ، وحتى يعتبروا كل قول من أقوالهم حقاً وإن كان باطلاً ، ويبالغ بعضهم في ذلك حتى يخلع عليهم صفة التنزيه عن النقص والخطأ ، والعصمة من كل إثم .

ويسري هذا الداء إلى نفوس الرعاع السذج أو الجهلاء أو ناقصي التفكير ، فيبلغون في تقديسهم إلى حد توهم الألوهية أو جزء منها فيهم ، وينحرفون بذلك عن منهج التفكير السليم ، ويتجاوزون كل حد مقبول في العقول الصحيحة ، وقد يشجعهم على ذلك بعض الأذكياء الذين يستطيعون استغلالهم واستثمارهم من خلال حماقاتهم وانحرافاتهم في الأفكار والعادات ، أو من خلال تخلفهم عن مواكبة ركب العلم الصحيح والحضارة النافعة .

ومن المنغمسين في هذه الضلالة وثنيو القرن العشرين الذين يلحدون بالله ، ويتخذون لعظمائهم أوثاناً يقدسونها ، ويفدون إلى زيارتها ،ويمنحونها الأكاليل ، ويهدونها طاقات الورود ، ويعتبرون مخالف تعاليمهم من أكبر الكبائر التي توجب الإعدام أو السجن المؤبد ، أو الإبعاد والطرد ، أو توجب حروباً طاحنة تهلك الحرث والنسل .

5- فلسفات ناقصة أو أصول فكرية فاسدة:

من الملاحظ أن العامل في كثير من ألوان الضلالات الفكرية فلسفات ناقصة أو أصول فكرية فاسدة ، وفي المجتمعات الإنسانية مظاهر متعددة لهذه الفلسفات الناقصة والأصول الفكرية الفاسدة .

ومن مظاهرها الفلسفات التي تؤدي على تعطيل دلائل الاستنتاج العقلي القاطع ، وتؤدي إلى الوقوف عند حدود المادة المدركة بالحس المباشر أو عن طريق الأجهزة ، وتؤدي إلى إنكار الوحي ، وإنكار أية حقيقة من حقائق الغي التي تأتي بها النبوات ، بدعوى أنها غير مدركة بالحس فلا يصح في نظرهم القاصر التسليم بها .

وهذه النظرة القاصرة إلى الوجود والتي يشهد ببطلانها كل عقل واعٍ مدرك هي مصدر شر كبير أفضى ببعض الناس إلى اعتناق فكرة المادية الملحدة ، التي لا تعترف بشيء إلا باللذة والغريزة وحدود الظواهر المادية .

*** السبب الثاني – الانحراف النفسي عن منهج الخُلُق القويم:**

نلاحظ لدى دراسة أحوال الناس أن فريقاً كبيراً من ذوي الضلالة في الأرض لم يضلوا لجهلهم بالحقيقة بسبب عامل من عوامل الانحراف الفكري عن منهج التفكير السليم ، وإنما ضلوا أو أجرموا بسبب هروبهم من وجه الحقيقة إرضاء لشهوة من شهوات نفوسهم ، ورغبة من رغائبها .

ومتى هرب الإنسان من وجه الحقيقة سعى ينتحل لنفسه مبادئ أخرى باطلة ليحلها في محلها ، ثم يكدح كدحاً شديداً ليقنع نفسه وغيره بصحتها وسلامتها ، وضرورة الأخذ بها .

وذلك لأن الفكر السوي يصعب عليه أن يسلم بالمفاهيم الباطلة مهما أغرت الأهواء والشهوات بزخرفها ، ولكن سلطان الأهواء والشهوات يأسر النفوس فيجعل بينها وبين العقل السليم غشاوة ، ومتى طال أمد الغشاوة الحاجبة للعقل عن عمله السديد تبلد الفكر ، وفسدت طريقة البحث لديه .

وزاوية الانطلاق في هذا السبب تبدأ من اتباع الأهواء والشهوات .

إن الأهواء والشهوات في الأنفس تميل في أغلب أحيانها إلى اغتنام اللذات العاجلة ، ولو كان من ورائها مشار وآلام كثيرة آجلة ، وتميل إلى زخرف الحياة الدنيا وزينتها وتفاخرها ولو كان في ذلك شقاء أبدي بسخط الله .

فمن طبع أهواء النفوس وشهواتها أنها تؤثر العاجلة ، وتذر الآخرة ، ما لم يضبطها ضابط من العقل الصحيح الراجح ، المقرون بالإرادة الحازمة ، أو ضابط من الإيمان الراسخ والدين المهيمن على النفس والمتغلغل في أعماق القلب والوجدان والمقرون بتقوى الله جلَّ جلاله.

لذلك كان اتباع الأهواء والشهوات من الأسباب المضلة المبعدة عن صراط الله المستقيم ، والمفضية بالإنسان إلى مواقع تهلكته .

ولذلك كانت الأهواء والشهوات من الوسائل التي تستغلها الشياطين للإغواء ، فتدغدغها وتثيرها وتوجهها للانحراف عن صراط الله ، ولا تزال تسيطر عليها شيئاً فشيئاً ، حتى تكون أسلحة فتاكة في أيديها ، وقد تستدرج الإنسان عن طريق أهوائه وشهواته حتى تصل به إلى مواقع الكفر بالله وبكل فضيلة إنسانية .

ولذلك حذرنا الله تبارك وتعالى من اتباع الأهواء والشهوات على غير هدى من الله .

فقال الله تعالى في سورة (الروم/30 مصحف/84 نزول):

{بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ}

ففي هذه الآية يبين الله أن من الأسباب الموصلة إلى الظلم والموقعة فيه اتباع الأهواء ، وقد ضل الظالمون بسبب اتباعهم أهواء نفوسهم فحكم الله عليهم بالضلالة حكماً عادلاً ، فمن يهدي من أضل الله؟ أي : حكم عليه بالضلالة , ومن ينصره من عقاب الله؟ إنه لا أحد يحكم له بالهداية بعد أن حكم الله عليه بالضلالة ، ولا أحد ينصهر من عقاب الله .

وخاطب الله رسوله محمداً [illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]
{[illegible]}

:[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]
{[illegible]}

:[illegible] .

[illegible] .

:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]
{[illegible]}

[illegible] ([illegible]) [illegible] :

[illegible] - :

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] - :

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible] :

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] :

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] :

[illegible] - [illegible] .

[illegible] .

[illegible] - [illegible] :

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] . [illegible] :([illegible] / [illegible] / [illegible]) [illegible]

{ [illegible] }

[illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]
[illegible] * [illegible]
[illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible]/) [illegible]
[illegible] * [illegible]
[illegible] * [illegible]

([illegible])

[illegible]

[illegible] .

[illegible] :[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]

{[illegible]}

[illegible].

. [illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible]

{[illegible]}

[illegible] :[illegible]

[illegible].

[illegible].

[illegible].

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])

{[illegible]}

[illegible]

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] ([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] : [illegible]

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible]

[illegible] : [illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] . [illegible] .

[illegible]

[illegible] (…/…/…): [illegible]

[illegible] * [illegible]

[illegible]

[illegible] (…/…/…): [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] (…/…/…): [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]

[illegible] -[illegible]
[illegible] .
[illegible] -[illegible]
[illegible] .

* [illegible]:

[illegible]
[illegible] ([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]):
{[illegible]}

[illegible] ([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]):
{[illegible]}

[illegible] . [illegible]
[illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] ([illegible]:
{[illegible]}

[illegible] : [illegible] .

[illegible] ([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]):
{[illegible] * [illegible]}

[illegible]
[illegible] ([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]):
{[illegible]}

[illegible]
[illegible] ([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]):

[illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] ...[illegible].

[illegible] .

*** [illegible] :**

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] :([illegible]
[illegible] {[illegible]} [illegible]

:([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]
[illegible] {[illegible]}

[illegible]
.[illegible] {[illegible]} :[illegible]

:([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]
[illegible} * [illegible] * [illegible]
.{ [illegible]

:[illegible] *

[illegible]
:([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]
[illegible] * [illegible] * [illegible]
{[illegible]

[illegible]
:([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]
[illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]
{ [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]: *

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] :[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] ([illegible]) [illegible] :([illegible] [illegible] {[illegible] * [illegible] {[illegible]

[illegible] : [illegible] .

[illegible] .

([illegible])

[illegible]

[illegible] :([illegible]) [illegible] } [illegible] * [illegible] .{[illegible] * [illegible]

. [illegible] . [illegible] . [illegible] .

[illegible] .[illegible]

{...وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ * رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}

وقال تعالى فيها أيضاً:

{...رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}

أي: تخلفوا عن الخروج مع الرسول

[illegible] *

:[illegible]

[illegible] .

[illegible] ([illegible])

:([illegible] /[illegible] /[illegible]) [illegible]

[illegible] * [illegible] }

.{ [illegible]

:[illegible]

[illegible] .

[illegible] } : [illegible]

. [illegible] { [illegible]

[illegible] /[illegible]) [illegible] ([illegible])

:([illegible] /[illegible]

[illegible] * [illegible] }

{ [illegible]

[illegible] { [illegible] } [illegible] . [illegible]

. [illegible]

[illegible] /[illegible] /[illegible]) [illegible]

:([illegible]

[illegible] }

{ [illegible]

[illegible]

[1] النكتة : النقطة السوداء .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] * [illegible]

[illegible].

[illegible]

[illegible] * [illegible]

[illegible].

[illegible]

[illegible] * [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible]

/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] :([illegible]

.{[illegible]}

[illegible] ([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] : [illegible]

[illegible]}

{[illegible]

:[illegible]

{[illegible]}

([illegible])

[illegible]

[illegible]

. [illegible]

[illegible]

. [illegible]

[illegible]

. [illegible]

:[illegible] *

:[illegible]

:([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] ([illegible])

[illegible]

[illegible] . [illegible] .

[illegible] .

[illegible] :([illegible] / [illegible] / [illegible]) [illegible] * [illegible] * [illegible]

[illegible] .

-[illegible] : [illegible] .

[illegible] .

-[illegible] : [illegible] .

-[illegible] : [illegible] .

-[illegible] .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] :([illegible] / [illegible] / [illegible]) [illegible] ([illegible])
[illegible] { [illegible] }

[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible] .

[illegible] ([illegible])
[illegible] :([illegible] / [illegible] / [illegible]) [illegible]
[illegible] { [illegible] }

[illegible] .
[illegible] { [illegible] }

*** [illegible] :**

[illegible]
[illegible] .

- [illegible] .
- [illegible] .
- [illegible] .
- [illegible] .
- [illegible] .
- [illegible] .

[illegible] -[illegible]
[illegible] .
-[illegible] .
-[illegible] .
-[illegible] .
-[illegible] .
-[illegible] .
-[illegible] .

* * *

[illegible]:
-[illegible] .
-[illegible] ([illegible]).
-[illegible] .
-[illegible] .
-[illegible] .

([illegible])

[illegible]

([illegible]) [illegible]:

[illegible] :
[illegible] ([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]):
{[illegible]}

[illegible] .

[illegible] ([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]):

* [illegible]

[illegible].

[illegible].

[illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]:([illegible]

[illegible]

[illegible] : [illegible].

[illegible]:([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]

* [illegible]

[illegible] :[illegible].

[illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

{[illegible]}

[illegible] :[illegible] .

[illegible] .

[illegible] :[illegible] .

:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible] {[illegible]} .{[illegible]}

[illegible] .

:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible] {[illegible]}

[illegible] .

[illegible] . [illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible] {[illegible]}

[illegible] .

([illegible]) [illegible]:

[illegible] : [illegible]
[illegible] .

[illegible]:

[illegible]– [illegible] .

[illegible]– [illegible] .

[illegible]– [illegible] .

[illegible]– [illegible] .

[illegible]– [illegible] — [illegible] — [illegible] .

[illegible]– [illegible]: "[illegible]" [illegible] .

[illegible] -[illegible]
[illegible]
[illegible] .

: [illegible] ([illegible])

[illegible]
[illegible] .

[illegible] : [illegible] *

[illegible]
[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]
:([illegible] [illegible]/[illegible]
[illegible] }
[illegible] * [illegible]
[illegible]
{[illegible]

[illegible]
. [illegible]

[illegible]
([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]
:[illegible]
[illegible] * [illegible] }
[illegible] * [illegible]
[illegible] * [illegible]
{[illegible]

[illegible]
. [illegible]

:[illegible] *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] * [illegible]

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible])
* [illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible] * [illegible]

[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]

[illegible] :

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] ([illegible] : [illegible]) [illegible] .

[illegible] : [illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible] : [illegible] ([illegible] :[illegible]) [illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] . [illegible]

[illegible] :([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])

{[illegible] * [illegible] * [illegible]...}.

[illegible]

[illegible] :([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])

{[illegible]

[illegible] .

[illegible] :([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])

{[illegible]..}.

[illegible] :([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] .

[illegible] .{[illegible]}

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible])
[illegible] {[illegible]}

:[illegible] *

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible])
{[illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]}

[illegible] : [illegible] — [illegible] — [illegible]

. [illegible] : **[illegible]**

[illegible] : **[illegible]**
. [illegible]

[illegible].

[illegible] .

[illegible].

[illegible] .

[illegible] } : [illegible] { [illegible] } : [illegible] { [illegible] .

[illegible] :[illegible] ([illegible]).

[illegible]

[1] يقال لغة : ردف له وردفه إذا اتّبعه فكان رديفاً له ، أي : تابعاً مباشراً له في اللحوق ، فهذا التعبير يلوح لهم بأن عقابهم المعجل سيأتيهم سريعاً لأنه سيردفهم .

[illegible]

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible] * [illegible]

[illegible] .

[illegible] .{[illegible]} [illegible] : [illegible] .{[illegible]

[illegible] *:

[illegible] .

[illegible] /[illegible]) [illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible] * [illegible] * [illegible] .{ [illegible]

[illegible]:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible]:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible].

[illegible].

[illegible] : [illegible].

[illegible] : [illegible].

[illegible]:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible].

[illegible] : [illegible] : [illegible].

[illegible]. [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible] :

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] !

[illegible] : ([illegible]) : [illegible]
([illegible]) [illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible] : [illegible]
[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] * :

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] * :

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] : [illegible]
[illegible]
[illegible]
. [illegible]

[illegible]
:([illegible]/[illegible]) [illegible]
[illegible]
* [illegible] * [illegible]
.{ [illegible]

[illegible]
[illegible]
. [illegible]

[illegible]
. [illegible]

[illegible]
: [illegible]

[illegible] — [illegible] — [illegible] — [illegible] — [illegible]
. - [illegible]

[illegible] — [illegible] — [illegible] — [illegible] — [illegible] : [illegible]
. [illegible] —

[illegible]
. [illegible]

[illegible]
: [illegible]

:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible] ([illegible])

فهم يتكلفون إعلان السخرية من الآيات الربانية ، لتغطية موقفهم الذي أصابتهم فيه الدهشة من الآيات ، ثم يوجهون اتهامهم الذي يشتمون به من جهة ، ويحاولون به تفسير ظاهرة الآيات من جهة أخرى تفسيراً يصرفها عن حقيقتها .

(ج) وقد بلغت بهم الوقاحة مداها فواجهوا الرسول

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])
{[illegible] * [illegible]}
{[illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])
{[illegible]}

[illegible] .

: [illegible] [illegible] *

[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] " : [illegible] ."

[illegible] .

[illegible] .

[illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] :([illegible]
{[illegible]}

[illegible]

* [illegible]

[illegible]

[illegible] *

:[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible] : [illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) :
{[illegible]}

[illegible] :[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible] .
[illegible]
[illegible]
[illegible] .

*** [illegible] :**
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible] :
[illegible] : [illegible]
[illegible] : [illegible] : [illegible] . [illegible]
[illegible]

[illegible] . [illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible]

[illegible] : [illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]

[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible])

[illegible]

[illegible] : [illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] :([illegible] / [illegible] / [illegible]) [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]

[illegible] .

[illegible] " [illegible] " : [illegible] . [illegible] " [illegible] " : [illegible] : [illegible] " [illegible] " : [illegible] .

([illegible])

[illegible]

[illegible] .

: [illegible] ([illegible])

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] . [illegible] . [illegible] . [illegible] . [illegible] .

[illegible} : [illegible] :[illegible] {[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible] {[illegible]}

[illegible]

* [illegible]:

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* [illegible]:

[illegible]

[illegible]

* [illegible]:

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وبنظرة تفصيلية نلاحظ أن الله تبارك وتعالى قد نصر نوحاً على قومه فأغرقهم وأنجاه والذين آمنوا معه ، ونصر هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً على أقوامهم ،

ونصر موسى على فرعون وملئه وجنوده ، ونصر داود وسليمان ، ونصر عيسى فأنجاه من قومه ، ونصر محمداً والمؤمنين معه وتوج لهم جهادهم بالفتح المبين ، ونصر المجاهدين المسلمين من بعده ، ففتح لهم أبواب ممالك الأرض ، وما توقف عنهم النصر إلا حينما عصوا في الواجبات والشروط التي فرضها الله عليهم ، والتي كانوا يستحقون بها إمداد الله لهم بمعونته ونصره .

ولنأخذ حياة الرسول محمد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* [illegible]:

[illegible]
[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):
{[illegible]}

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):
[illegible] * [illegible]
{[illegible]}

[illegible] .

* [illegible]:

[illegible] .

[illegible]
[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):
{[illegible]}

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):
{[illegible]} * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]

[illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible].

[illegible] : [illegible]

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible} * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]

[illegible] — [illegible] : [illegible] — [illegible] .

[illegible] .

[illegible]}: [illegible] .{[illegible]

[illegible]/[illegible]) [illegible] :([illegible]/[illegible] [illegible]} .{ [illegible] * [illegible]

[illegible] {[illegible]} : [illegible]
[illegible] .

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible])
[illegible] * [illegible] * [illegible] {[illegible]

[illegible]
[illegible] .

[illegible] — [illegible] — [illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible])
* [illegible] {[illegible]

[illegible]
[illegible] .

[illegible] .

:[illegible] ([illegible])

[illegible]
[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible]:
[illegible] :[illegible] .

[illegible] :[illegible] .

[illegible] :[illegible] .

[illegible] .

* [illegible]:
[illegible] .

[illegible] .

[illegible] :([illegible] [illegible]/[illegible] [illegible]/[illegible]) [illegible]
[illegible] * [illegible] .{[illegible]}

[illegible] {[illegible]} [illegible] .{[illegible]}

[illegible] : [illegible] . [illegible] : [illegible] .

. [illegible]

[illegible] .

* [illegible] :

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] : [illegible] ! [illegible] :([illegible] / [illegible] / [illegible]) [illegible]

. [illegible] : [illegible] : [illegible] : [illegible] :([illegible] / [illegible] / [illegible]) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* [illegible]:

[illegible].

* [illegible]:

- [illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}

[illegible].

- [illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}

[illegible].

- [illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}

[illegible].

- [illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}

[illegible].

- [illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}

[illegible].

- [illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}

. [illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]}

[illegible] : [illegible] . [illegible] :[illegible] {[illegible]} : [illegible] : [illegible] : [illegible] : [illegible] : [illegible].

* [illegible]
:[illegible]

[illegible] - [illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible]}

. [illegible] : [illegible]

[illegible] - [illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]}

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]):

{[illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible] * [illegible]}

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]):

[1] المهل : المعدن المذاب ، أو درردي الزيت ، أو القيح والصديد .
[2] الطلع: : نور النخلة ، وهو أول ما يطلع من ثمرها .
[3] المقامع : قضبان يضرب بها للقمع .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] : [illegible] .

[illegible] : [illegible]
[illegible] .

[illegible] : [illegible] .

[illegible] .

[illegible] –[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]): [illegible]
[illegible]

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]): [illegible]
[illegible]

[illegible] ([illegible]/[illegible]/[illegible]): [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] * [illegible]

[illegible]) [illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

[illegible] :([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible]

. [illegible]

:([illegible]/[illegible]/[illegible]) [illegible] * [illegible]

[illegible]

[illegible] .

* * *

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

[illegible] .

* * *

[illegible] ([illegible]) [illegible] .

[illegible]

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني